التوضيحات الحسان

على رسالة

الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لشيخ الإسلام ابن تيمية

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

خرجت أحاديث هذا الكتاب على كتب فضيلة الشيخ

محمد ناصر الدين الألباني

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

التوضيحات الحسان

على رسالة

الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الايداع	10432 / 2005

دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - الإسكندرية
٢ ش منشية الزهراء - حي الرمل - محمول: ٠١٠٥٠١٣١٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دار الخلفاء الراشدين

الحمد لله الذي أعطى فأجزل، ومَنَّ على عباده فأفضل؛ فأرشدهم إلى سبيل الهداية، وحذرهم من سبل الغواية؛ فأكمل لهم الدين، واستبانت أمام كل ذي قلب سبيل المجرمين، ونشهد أن لا إله إلا الله ولي المتقين، وناصر الموحدين، ومخز الكافرين والمنافقين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد الأولياء، وعلى آله وصحبه الأتقياء الأنقياء، الذين رفع الله بجهادهم راية الدين، وأظهرهم باتباع منهج الحق على حزب الشيطان من الكفار والمبتدعين؛ فاللهم إنَّا نحبهم فاحشرنا في زمرتهم يوم الدين.

ثم أما بعدُ...

فإن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يتعاونون على البر والتقوى، ويتناهون عن الإثم والعدوان، ورجاء منا أن نكون من أهل هذه الصفات الطيبة والخصال الحميدة، نقدم لإخواننا هذا الجهد المتواضع، راجين الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن ينفع به المسلمين عامة، وطلاب العلم خاصة، وألا يحرمنا أجره، وأن يتقبله منَّا خالصًا لوجهه الكريم.

وإن من توفيق الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن تكون باكورة خدمتنا لإخواننا تقديم رسالة من الرسائل العظيمة لعالم من أنفع العلماء علمًا وأجلهم قدرًا؛ فهو رجل كل زمان، بعلمه القائم على قوة الحجة، ووضوع البيان، وحلاوة المنطق مع دقة التعبير، وعمله

في زمان كثرت فيه الفتن، وعلت الأهواء والبدع، فأخفت نور السنن، وأصاب الأمة الهزال، وقعد بها الوهن؛ فتكالبت عليها أمم الأعداء ينتقصون ما بأيديهم؛ لما أنقصوا - هم - من دينهم، وابتغوا السبل فتفرقت بهم عن سبيل الحق، فاختلط عليهم الحابل بالنابل، وفقدوا القدرة على التمييز بين أهل الحق والاتباع، وبين أهل الزيغ والضلال؛ وما ذاك إلا لأنهم فقدوا معرفة الحق، فلم يعرفوا أهله؛ فقام شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المعروف بـ(ابن تيمية) يجلي الحق، ويحرر قواعد المنهج السلفي، ويبين صفات أولياء الرحمن، وصفات أولياء الشيطان، ليميز الناس بين الفريقين ولا يغتروا بتلبيس المضلين، فشرح الله بهذه الرسالة الصدور، وأنار بها العقول.

ولما أشبهت الليلة البارحة، واحتاج المسلمون في هذه الأيام لمثل هذا العلم النافع؛ ليميزوا بين الخبيث والطيب، والغث والسمين، ودعاة الحق من الدعاة على أبواب جهنم، قام شيخنا الفاضل، فضيلة الدكتور/ **ياسر برهامي - حفظه الله** ونفعنا بعلمه - بنفاذ بصيرته، ومعرفته بواقع الساحة الإسلامية والعالمية، وما يحتاجه أبناء الصحوة الإسلامية من العلوم والمعارف ليثبتوا أمام ما تموج به ديار الإسلام من الفتن والشبهات، قام - حفظه الله - بتقريب مادة هذه الرسالة لطلاب العلم في دروسه، فنفع الله بأشرطة هذا الشرح نفعًا كبيرًا. ولكي يعم النفع قامت دار الخلفاء الراشدين بالإسكندرية بتفريغ هذا الشرح المبارك وإثباته على هامش المتن بعد استأذان الشيخ - حفظه الله - وقد أسميناه:

التوضيحات الحسان على رسالة الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

وكان عملنا هذا في الكتاب كالآتي:

أولاً ـ قُمنا بتخريج أيات الكتاب؛ فذكرنا اسم السورة ورقم الآية.

ثانيًا ـ قُمنا بتخريج أحاديث الكتاب معـتمدين في هذا على كتب فضيلة الشيخ العلامة/ محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ.

ثالثـًا ـ قُمنا باختيار أصح الألفاظ وأثبتها من خلال مطابقتها على نسخ مطبوعة، اعتمدت في نسخها على عدة نسخ خطية للكتاب.

رابعـًا ـ قُمنا بتنظيم الكتاب تنظيمًا علميًا يتوافق مع كونه كتابًا مقروءًا وليس مادة مسموعة.

خـامسـًا ـ قُـمنا بوضع العناوين الداخليـة للكتـاب، فلم يكن من عـادة شـيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وضع عنواين للفصول ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

وبعـــد..،

فإن كان عـملنا صوابًا؛ فمن الله وله الحـمد والشكر، وإن كان غيـر ذلك فَمِنَّا ولا ننكره، غير أننا لم نتـعمده، فأحْسِن بنا الظنَّ، وإن كُـنَّا قاصرين لسنا من أهل هذا الفن.

اللهم اجعل عملنا صـالحًا واجعله لوجهك خالصـًا، وأن تجنبنا مضلات الفتن، وتعصـمنا من المحن، وأن تميتنا على السنن، وتغـفر لنا ذنوبنا التي جنيـناها في السر والعلن، إنك قريب مجيب.

وصلى اللهم وبارك على عبده ورسوله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الناشر

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الشيخ ياسر برهامي

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، مَن يَهده اللهُ؛ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل؛ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ.

﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١). **أما بعد:**

فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

فإن ولاية الله سبحانه والقرب منه سبب سعادة الإنسان في دنياه وأُخراه: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (يونس: ٦٢-٦٤). وكل إنسان يبحث عن السعادة، فلابد له من معرفة الطريق الذي يوصله إلي غايته بالقرب من خالقه ومولاه، ولابد أن يعلم علامات الطريق وصفات أصحابه؛ ليزن نفسه أولاً بهذه الصفات، وينظر هل هو منهم أم لا؟ ثم ليستأنس بإخوانه على الطريق على تباعد الزمان والمكان، ولا يستوحش من قلة السالكين، ثم لابد له من معرفة طرق الشقاوة والضلال، خاصة أنه على رأس كل منها شيطان يدعو إليها ويزعم أن سبيله هذه هي سبيل السعادة والهداية.

وكلما اقتربت الساعة كثرت الفتن، وازدادت المحن، وقل العلم، وكثر الجهل، والتبس الحق بالباطل عند كثير من أهل الأرض .. فازدادت الحاجة إلى التمييز والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولابد من الناقد البصير، والعالم الرباني الذي يجلي للناس الحق ببيان الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يضيء عبر العصور بأسلوبه الفريد المتميز بكثرة الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية منبع الهدى والنور، لمن أراد أن يتخذ سبيل الهداية طريقه وسط طرق الغواية، ويبين في رسالته العظيمة: (**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**) صفات كل فريق وأحوال كل طائفة، فجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين.

ونحن إذ نحاول أن نقدم هذا الكتاب الرائع الذي يمثل علامة مميزة لأهل السنة لا ينبغي لطالب علم أن يفوته التعرف عليها في وسط ظلام الاختلافات والنزاعات بين الطوائف الإسلامية، وتحت الضغوط الهائلة التي يتعرض لها العمل الإسلامي من داخل الصف، وخارجه، ومن المنتسبين للإسلام والمخالفين له. وإذ نحاول تقريب ما أراد شيخ الإسلام توصيله إلى الأفهام بتعليقات يسيرة غرضنا منها زيادة البيان والإيضاح، وهي في النهاية مستفادة من كلامه ـ رحمه الله ـ أو من كلام أمثاله من أئمة الهدى من علماء أهل السنة والجماعة على مرِّ العصور.

نسأل الله سبحانه أن يجعل عملنا صالحًا وأن يجعله لوجهه خالصًا ولا يجعل لأحد فيه شيئًا، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

كتبه
ياسر برهامي

الإسكندرية في الثامن والعشرين من ربيع الأول
عام ستة وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية
على صاحبها أزكى الصلاة وأتم التسليم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شيخ الإسلام ابن تيمية

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أنفسِنا، ومِن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِه اللهُ؛ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضللْ؛ فلا هاديَ له. ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له. ونشهدُ أن محمدًا عبْدُه ورَسُوله. أرسله بالهُدى، ودِين الحق؛ ليظهره على الدِّين كله، وكفى بالله شهيدًا.

أرسله بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا؛ فهدى به من الضَّلالة، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغيِّ، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمّاً، وقلوبًا غلفًا؛ ففرَّق به بين الحقِّ والباطل، والهدى والضَّلال، والرشاد والغيِّ، والمؤمنين والكفار، والسعداء أهل الجنَّة، والأشقياء أهل النار، وبين أولياء الله وأعداء الله.

فمن شهد له محمد ﷺ بأنه من أولياء الله؛ فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله؛ فهو من أولياء الشيطان.

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

وقد بيَّن اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ أن لله أولياء من الناس، وللشياطين أولياء، وفرَّق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. فقال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٢-٦٤)[١].

---

(١) بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفة أوليائه أنهم المؤمنون المتقون، كما بيَّن عاقبة أمرهم أنهم لا خوف عليهم مما يُقدمون عليه، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم أو ألمَّ بهم، كما بيَّن ـ عزَّ وجلَّ ـ أن لهم البُشرى في الحياة الدنيا، سواء من عاجل بشرى المؤمن مما يلقيه الله سبحانه وتعالى في قلوب الخلق وعلى ألسنتهم من محبة أوليائه والثناء عليهم، أو من الرؤيا الصالحة التي يراها المؤمن أو تُرى له.

أما في الآخرة: فبما تبشرهم به الملائكة عند احتضارهم، وعند قيامهم من قبورهم، عندما تتنزل عليهم الملائكة ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

وكذلك أيضًا ما يبشر به العمل الصالح صاحبَهُ في القبر، حين يأتيه في صورة رجل طيب حسن الوجه طيب الريح يقول: «أبشر بما يَسُرَك، هذا يومك الذي كنت توعد أنا عملك الصالح»[١].

---

(١) صحيح مرفوعًا: صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٦٧٦)، و«مشكاة المصابيح» برقم (١٦٣٠).

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٧)(١).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة: ٥١-٥٦)(٢).

---

(١) لله - عَزَّ وَجَلَّ - أولياء ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهو - عَزَّ وَجَلَّ - وليهم يخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلال إلى نور الإيمان والعلم والتوحيد، أما الفريق الآخر، وهم أهل الكفر والطغيان، فـ ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ ورأس الطواغيت الشيطان، والطاغوت: هو كلُّ ما عُبد من دون الله وهو راض، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، يتعاونون على الكفر والفسوق والعصيان، ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾، فهم يتركون الإيمان والعلم والعدل والحق الذي أخبر الله به وأمر به إلى ظلمات الشرك والشك والنفاق والظلم وغير ذلك، مما يحدث لمن يعبد غير الله، أما جزاؤهم فـ ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

(٢) أمر سبحانه وتعالى المؤمنين الذين هم أولياؤه أن يعلنوا البراءة من الكفار، وخصوصًا اليهود والنصارى، وعدم اتخاذهم أولياء، ولاشك أن ذكر هذه الولاية عقب =

. . . .

= البراءة دليل واضح على أنَّه لا تحـدث الوَلاية لله إلا ببغض أعـداء الله، ثم بيَّن الله ـ عَـزَّ وَجَلَّ ـ ما الذي يؤدي إلى مـوالاة الكفـار، إنَّه النفاق، وهو مـرض القلوب ـ والعياذ بالله ـ، قـال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هذا المرض حدث بسبب الشك، أو الشبـهات، أو الشهـوات الباطلة، فهؤلاء المنـافقون يسارعـون في موالاة اليهود والنصـارى والكفار، خوفًا من أن تقع الهـزيمة بالمسلمين، فهم يُسارعـون فيهم ليكون لهم يدٌ عندهم، يَـحْمُـونَ بها أنفـسهم، ولكن سـرعان مـا ينصر الله أوليـاءه المؤمنين الذين تولوا دينه وسنة رسوله ﷺ وعبـاده المؤمنين، ويفتح عليهم، وعندئذ يُذْهِبُ الله مكر هؤلاء المنافقين وكيدهم هباءً منثورًا، فعندها يندمون على ما أسروا في أنفسهم من موالاة الكفار رغبة فيما عندهم من المنازل والوجاهات والمصالح الموهومة.

ثم بَيَّن سبحانَهُ أن المؤمنين يتعجبون من المنافقين كيف يجمعون بين النقيضين بين كونهم يُقْـسِمون بالله أغـلظ الإيمان، ويبذلون الجهـد في المبالغة في الـقسم أنهم مع المؤمنين، ثم هم يتخذون الكفار أولياء، فكيف يجـتمع هذان النقيضان، فلا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا مع المؤمنين، وفي نفس الوقت يتخـذ الذين كفروا أولياء، ولكن انظر ما الذي تستوجبه موالاة الكفار، إنها تستوجب حبوط العمل، وجلب الخسران، في الدنيا والآخرة، كما أنها تجر إلى الردة، وهذه نهاية كل نفاق.

ثم ذكر سبـحانه صفات أوليـائه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يُقَدِّمُون حبـه ـ عَزَّ وجَلَّ ـ على حب أنفسهم، وطاعته ـ عَزَّ وجَلَّ ـ على طاعة غيره، وإن كـانوا أقرب الأقربين، فيقدمونه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الأنفس والأمـوال والأولاد، وبذلك يستـحقـون حبَّ الله تعالى، ثم اسـتكمل صفاتهم بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. =

وقال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (الكهف: ٤٤)[(١)].

وذكر أولياء الشيطان؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (النحل: ٩٨-١٠٠)[(٢)].

= ثم أكملوا ذلك بالجهاد في سبيل الله، ولم يخافوا لومة اللائمين، الذي يلومون من يجاهد في سبيل الله، ومن يعمل على إعلاء كلمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، فمن تفضل الله - سبحانه وتعالى - عليه بحبه وبالذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين والجهاد في سبيله، فهذا محض جوده وفضله، والله واسع عليم، ثم بيَّن الله - عَزَّ وَجَلَّ - من تجب علينا موالاتهم: فعلينا بموالاة المؤمنين المقيمين الصلاة، والمؤتين الزكاة الذي يركعون ويخضعون لله - عَزَّ وَجَلَّ - وهذا ما بينه سبحانه في قوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ تلك الفئة هي الغالبة المنصورة بإذن الله.

والغرض المقصود من الاستدلال بهذه الآية في هذا الباب: هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾: أنَّ لله - عَزَّ وَجَلَّ - من الناس أولياء، وهذه صفاتهم.

(١) فالله يتولى أمور عباده عمومًا، وأمور عباده المؤمنين بالحفظ والعناية خصوصًا.

(٢) قوله: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ ﴾: دليل على أن هناك من يتولى الشيطان، والشيطان وليه، وهؤلاء هم أولياء الشيطان.

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٦)[١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ (الكهف: ٥٠)[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١١٩)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٧٣-١٧٥)[٣].

---

(١) فسماهم أولياء الشيطان، وأمر بقتالهم، لأنهم يصدون عن سبيل الله، ويشركون بالله، ويظهرون الفساد في الأرض.

(٢) بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أن سبب فسق إبليس ـ لعنه الله ـ هو خروجه عن توحيد الله إلى الشرك والكفر به، وبيَّن أن هؤلاء الكفار هم الذين اتخذوه وذريته من الشياطين أولياء من دون الله، فهم الذين أطاعوهم في الكفر والمعاصي، ونصروهم في الصد عن سبيل الله، فهؤلاء ظالمون لأنفسهم إذ تركوا ولاية الله واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، بل استبدلوا العدو بالولي الحقيقي، تركوا ولاية الرحمن، ووقعوا في ولاية الشيطان، بئس للظالمين بدلاً.

(٣) إن الشيطان يخوفكم بأوليائه، إنما ذلكم الشيطان يُخَوِّفكم بأوليائه، فقاتلوا أولياء الشيطان، قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، والشاهد أن الله قد سماهم أولياء الشيطان.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٧-٣٠)(١).

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢١)(٢).

وقال الخليل عليه السلام: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (مريم: ٤٥)(٣).

---

(١) حين اتبع هؤلاء المشركون بالله الشياطين على الباطل سواء أكانوا شياطين الإنس أم الجن وتركوا دين الله ـ سبحانه وتعالى ـ واتخذوا الشياطين أولياء؛ فجعلهم الله أولياء للشياطين جزاءً لما فعلوا ـ نعوذ بالله من ذلك ـ.

(٢) هذا في شأن الميتة حين قال المشركون: أتأكلون مما قتلتم، ولا تأكلون مما قتل الله بيده ـ يعنون: الميتة ـ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: **﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾**، وقال سبحانه: **﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾** أي: بهذه المجادلة الباطلة والقياس الفاسد في استباحة الميتة، فسماهم أولياء الشياطين حين يجادلون في رد الحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، واتباع التشريع الشيطاني المخالف لشرع الله.

(٣) **﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾** أي: قريبًا منه متبعًا له، فيخذله في الدنيا والآخرة، إذ إن من قَرُبَ من الشيطان، فهو ملعون معه مطرود من رحمة الله، مخذول معذب في الدنيا والآخرة، قد حصل له الشقاء لقربه من الشيطان وتخليه عن طاعة الرحمن فيتركه الله ولا يوفقه.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الممتحنة: ١-٥)(١).

فصل

في وجوب التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

(صفات أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)

وإذا عُرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ فيجب أن يُفَرَّق بين هؤلاء وهؤلاء؛ كما فرَّق اللهُ ورسولُه بينهما، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون؛ كما قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (يونس: ٦٢-٦٣).

---

(١) نهى الله عباده المؤمنين عن مناصرة الكافرين ومعاونتهم على أمرهم وإظهار المودة لهم، حتى لو كان القلب خاليًا عنها، ونزلت الآيات في حاطب بن أبي بلتعة لما راسل المشركين ببعض أمر رسول الله ﷺ في غزوة الفتح.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى من عادى لي وليًا؛ فقد بارزني بالمحاربة أو آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنَّوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها؛ فبي يبصر، وبي يسمع، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددُّي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت، وأكره مساءته، ولابدَّ له منه**»[1]، وهذا أصحُّ حديث يُروى في الأولياء، فبيَّن النبي ﷺ أنه من عادى أولياء الله؛ فقد بارز الله بالمحاربة.

وفي حديث آخر: «**وإنِّي لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحَرِبُ**»[2]؛ (1) أي: آخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحَرِبُ ثأره؛ وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه؛ فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يَرْضَى، وسخطوا ما يَسْخط، وأمروا بما يَأمُر، ونهوا عما يَنْهى، وأَعْطَوا لمن يُحب أن يُعطي، ومَنَعوا من يُحِبُ أن يُمْنَع؛ كما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**أوثق عُرى الإيمان:**

---

(١) قوله: «**كما يثأر الليث الحَرِبُ**» تشبيه لشدة البأس، وهذا إنما هو لتقريب الأمر إلى أذهان العباد.

«**الليث الحَرِبُ**» هو الذي يُحارب، أو الذي حُورب.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، والطبراني (١٢/١٤٦)، والبيهقي (٣/٣٤٦-١٠/٢١٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/١٩).

(٢) قال سليم الهلالي: لم أجده بعد بحث شديد؛ فنظرة إلى ميسرة، وللحديث ألفاظ أخرى جمعها الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٤٠).

الحبُّ في الله، والبغضُ في الله»[١]، وفي حديث آخر رواه أبو داود. قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»[٢].

والولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد.

وقد قيل: إن الولي سُمِّي وليًا من موالاته للطاعات؛ أي: بمتابعته لها، والأول أصح[(١)]. والوليُّ: القريب، يُقال: هذا يلي هذا؛ أي: يقرب منه. ومنه قول النبي ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي: فهو لأولى رجل ذكر»[٣]؛ أي: لأقرب رجل إلى الميت، وأكده بلفظ «الذَّكر»؛ ليبين أنه حكم يختص بالذكور، لا يشترك فيه[(٢)] الإناث؛ كما قال ﷺ في الزكاة: «فابن لبون ذكر»[٤].

---

(١) قوله: «والأول أصح»؛ أي: أن الولاية: المحبة والقرب، وإن كان من ضمن معانيها الطاعة، يُقال: «المؤمن ولي الله» أي: مطيع لله.

(٢) قوله «الذكور» يشمل الرجال والصبيان.

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٧) عن ابن عباس والطيالسي (٣٨) عن ابن مسعود والإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٦) عن البراء بأسانيد فيها ضعف، ولكنها تنجبر.

ـ قال الألباني ـ رحمه الله ـ: فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل ـ والله أعلم ـ «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٨).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٨١)، والطبراني (٨/ ١٥٩-٢٠٨)، وله شاهد عند الترمذي (٢/ ٨٥)، وأحمد (٣/ ٣٣٨-٤٤٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٣٨٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣/ ٣٧٤/ ١٤٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه؛ كان المعادي لوليه معاديًا له[١]؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ (الممتحنة: ١)؛ فمن عادى أولياء الله؛ فقد عادى الله وحاربه؛ فلهذا قال: «من عادى لي وليًا؛ فقد بارزني بالمحاربة»[١]. وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه المرسلون منهم، وأفضل الرسل: أولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد[٢] ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣)[٣].

---

(١) قوله: «كان المعادي لوليه معاديًا له» الولي يأمر بما أمر الله به، فإذا عاداه أحد في ذلك، فهو يعادي أمر الله في الحقيقة، إذن فهو عدو لله.

(٢) قوله: «وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد»، وقول جمهور العلماء: إن أولي العزم من الرسل هم هؤلاء الخمسة.

ـ والقول الآخر: إن كل الرسل أولو عزم، ويستدل للقول الأول بقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، والأصل في ﴿من﴾: أنها للتبعيض.

(٣) قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣)، دلالة النص على ذكرهم خصوصًا دليلٌ على فضلهم.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه (ص١٩).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۞ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧-٨).

وأفضل أولي العزم محمد ﷺ خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا[(١)]، صاحب المقام المحمود[(٢)]، الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب لواء الحمد[(٣)]، وصاحب الحوض المورود[(٤)]، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة[(٥)] والفضيلة، الذي بعثه الله بأفضل كتبه، وشرع له

---

(١) قوله: «إمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا»، أي: إذا وفدوا على الله تعالى، وهذا كلام إن لم يصح نصًا ففي حديث الشفاعة ما يدل عليه، فإن الذي يتقدم ليسجد بين يدي الله ويشفع عنده في أمر خلقه هو النبي ﷺ.

(٢) قولُه: «صاحب المقام المحمود»، وهو مقام الشفاعة التي يتراجع عنها أولو العزم من الرسل.

(٣) يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب لواء الحمد، أي: يوم القيامة، يجعل الله له لواء يُسمى: لواء الحمد، يُعرف به ﷺ، قال ﷺ: «**لواء الحمد بيدي، آدم فمن دونه تحت لوائي**»؛ لأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - يفتح عليه من أنوع المحامد، والثناء، ما لم يفتحه على أحدٍ قبله.

(٤) «وصاحب الحوض المورود»: أخبر النبي ﷺ أن عدد آنيته كعدد نجوم السماء، من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا.

(٥) قوله: «صاحب الوسيلة»: هذه منزلة لا تنبغي إلا لعبد، والرسول ﷺ يرجو أن يكون هو، وأخبر ﷺ أن من سأل الله له الوسيلة حلت له شفاعته.

أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن بما فرقه فيمن قبلهم[١]، وهم آخر الأمم خلقًا، وأول الأمم بعثًا؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**نحن الآخرون**[٢] **السابقون يوم القيامة**[٣]، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يعني: يوم الجمعة، يومهم الذي اختلفوا فيه[٤]، فهدانا الله له؛ فالناس لنا تبع فيه، غدًا لليهود وبعد غد للنصارى»[١].

وقال ﷺ: «**أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة**»[٢].

وقال ﷺ: «**آتي باب الجنة فأستفتح؛ فيقول الخازن: من أنت؟، فأقول أنا محمد. فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**»[٣].

وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة، ومن حين بعثه الله جعله الفارق بين أولياء الله وبين أعدائه، فلا يكون وليًا لله إلا من آمن به وبما جاء به، واتبعه باطنًا

---

(١) قوله: «وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم»، كان في بعض من الأمم السابقة بعض الفضائل، أما هذه الأمة فاجتمعت فيها الفضائل في العلم والعمل.

(٢) وقوله «**نحن الآخرون**» أي: نحن الآخرون زمنًا.

(٣) وقوله «**السابقون يوم القيامة**» أي: إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أي: أنَّه سَبْقُ منزلة وقدرٍ.

(٤) وقوله: «**هذا يومهم الذي اختلفوا فيه**»: يدل على أن هذا الذي شُرِعَ لهم ابتداءً، لكن لما اختلفوا رفع ذلك عنهم ولم يعد مشروعًا لهم أن يُعظموا يوم الجمعة حرمانًا لهم من ثوابه وفضله وجعل لهم تعظيم السبت.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٨٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٢٤١٢-٣٣٩٨-٤٦٣٨)، وأبو داود (٤٦٧٣)، والترمذي (٣١٤٨) ومسلم عن أبي هريرة بلفظ: «**وأول من ينشق عنه القبر**».

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٩٧) عن أنس ﷺ مرفوعًا.

وظاهرًا، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه؛ فليس من أولياء الله تعالى، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: ادَّعى قوم أنهم يحبون الله؛ فأنزل الله هذه الآية محنة لهم[1]، وقد بيَّن الله فيها: أن من اتبع الرسول ﷺ؛ فإن الله يحبه، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ؛ فليس من أولياء الله تعالى. وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم؛ أو في غيرهم أنهم من أولياء الله تعالى، ولا يكونون من أولياء الله، فاليهود والنصارى يدَّعون أنهم أولياء الله، وأنَّه لا يدخل الجنة إلا من كان منهم، بل يدعون أنهم أبناؤه وأحباؤه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة: ١٨)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١١-١١٢).

وكانوا مشركو العرب يدَّعون أنهم أهل الله، لسكناهم مكة، ومجاورتهم البيت، وكانوا يستكبرون على غيرهم به، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٦-٦٧)[1]، وقال تعالى:

(١) قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾: دليل على أنهم كانوا يستكبرون به على غيرهم.

(١) الحديث أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٠٥/ ٣٧٩ ـ آل عمران). والحديث صحيح.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٠-٣٤)[(١)]، فبيَّن سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته، إنما أولياؤه المتقون.

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارًا من غير سر: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء - يعني طائفة من أقاربه - إنما وليي الله وصالح المؤمنين»[(١)]، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم: ٤)، وصالح المؤمنين كل من كان صالحًا من المؤمنين، وهم المؤمنون المتقون أولياء الله، ودخل في ذلك أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وكلهم في الجنة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[(٢)].

---

(١) قوله: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾: دليل على أن ظن الإنسان أنه ولي الله، لا يلزم منه أن يكون وليًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٩٦)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، وصححه الشيخ الألباني - رحمه الله -.

ومثل هذا الحديث الآخر: «إن أولياء الله المتقون أين كانوا وحيث كانوا»[(١)].

وكما أن من الكفار من يدعي أنه ولي لله، وليس بولي لله، بل عدوٌّ له، كذلك من المنافقين الذي يظهرون الإسلام، ويقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنه مرسل إلى جميع الإنس، بل إلي الثقلين: الإنس والجن، ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك، مثل: أن لا يقروا في الباطن، بأنه رسول الله، وإنما كان ملكًا مطاعًا[(١)] ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك، أو يقول: إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب، كما يقوله كثير من اليهود والنصارى، أو يقول: إنه مرسل إلى عامة الخلق، وأن لله أولياء خاصة لم يُرسل إليهم، ولا يحتاجون إليه، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى[(٢)].

---

(١) قوله: «أن لا يقروا في الباطن بأنه رسول الله، وإنما كان ملكًا مطاعًا»: هذا قول الفلاسفة، يوافقهم في ذلك من لا يخطئ اليهود والنصارى، ومن لا يُلزِم باتباع النبي ﷺ، ومن يقول إن النبي ﷺ هو رسولنا نحن وهؤلاء لهم أنبياؤهم ورسلهم، هذا من المنافقين الذين يعتقدون خلاف ما يظهرون، وهذا من النفاق الأكبر.

(٢) قائل هذه الضلالات الكفرية الصوفية الغلاة، وهم في نفس الوقت يدعون أنهم أولياء الله، وعندما بينت لمن يصحح قول ابن عربي في وحدة الوجود، ويصوب أقوال الكفار القائلين بذلك، أن من مات على هذه الملة، فقد مات على غير ملة الرسول ﷺ، قال لي: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»، فحذر من أن هذا =

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠/ ٢٥٠٤ ـ موارد)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٤١/ ٢٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠١٢).

. . . .

= الأمر عداوة لولي من أولياء الله مع أنه يصوب قول ابن الفارض:

وإن خر للأصنام في البيد عاكف   فلا تعدُ بالإنكار للعصبية

وقوله: «أو أنه مرسل إلى عامة الخلق، وأن لله أولياء خاصة لم يُرسَلْ إليهم»: يقولون: إنه مرسل للعوام، أما الخاصة فلا يحتاجون لرسالته.

وقوله: «بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى»: تجدهم يركزون على قصة الخضر مع موسى لتحريفها عما تدل عليه، والحقيقة أن موسى عليه السلام لم يكن مرسلاً إلى الإنس والجن ولا إلى الناس كافة، وإنما كان رسولاً إلى بني إسرائيل، ولا يمنع من وجود نبي آخر في زمنه يوحى إليه.

فالخضر إما نبي، وإما متبع لنبي يأتيه وحي قاطع من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذه الأفعال.

فهم يريدون أن يقولوا: أهل الالتزام بالشرع هم أهل الشريعة، وأما أهل الباطن فهم أهل الحقيقة، ومن كان على حال الخضر فهو يعلم بواطن الأمور التي لا يعرفها أهل الشريعة، وقد يفعل أفعالاً منكرة وهي في الحقيقة أمور من المعروف مثل: قتل من لا يستحق القتل، ويقولون: إن الولي مهما فعل لا تنكر عليه حتى لو رأيته يسرق ويزني؛ لأن الذي ينكر لا يعرف الباطن، وهم أصحاب الباطن، كما أن موسى عليه السلام كان مخطئًا حين أنكر، ولذلك تجدهم لم يستحلوا المحرمات فقط بل جعلوها كرامة، ففتحوا هذا الباب إلى حد الفواحش والمنكرات.

فمثلاً: يقولون من كرامات سيدهم فلان الفلاني أنه خطب يومًا بالناس فقال: أشهد أن لا إله لكم إلا إبليس صلى الله عليه وسلم، فقال الناس: كفر .. كفر، فَسَلَّ السيف ونزل من على المنبر.

أو أنَّهم لم يأخذوا عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهو موافقون له فيها، وأما الحقائق الباطنية، فلم يرسل بها، أو لم يكن يعرفها، أو هم أعرف بها منه أو يعرفونها مثل ما يعرفها هو من غير طريقته(١).

وقد يقول بعض هؤلاء: إن أهل الصُّفَّة كانوا مستغنين عنه، ولم يرسل إليهم(٢)، ومنهم من يقول إن الله أوحى إلى أهل الصُّفَّة في الباطن ما أوحاه إليه ليلة المعراج، فصار أهل الصُّفَّة بمنزلته(٣)، وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون أن الإسراء كان

= ويقول الشعراني في (طبقات الصوفية): وفعل ذلك ﷺ في ثلاثين جمعة في نفس اليوم، هذا الكلام يكفر من يقوله، ومن يرضى عن هذا الكلام يكون كافرًا أيضًا.

مثال آخر: من كرامات سيده فلان الآخر أنه كان يُنزل شيخ البلد من على بغلته ويأتيها في الطريق، فإن امتنع جعله يتسمر في مكانه ولا يتحرك، فيضطر أن يتركه يفعل ذلك بالبغلة. هذه المنكرات عدُّوها كرامات، والذي فتح هذا الباب أنهم اعتقدوا أن هؤلاء أولياء لله أهل باطن وأنهم مع النبي ﷺ مثل الخضر مع موسى عليه السلام.

ولذلك من اعتقد أن أحدًا يسعه الخروج عن شرع رسول الله ﷺ كما وسع الخضر الخروج على شرع موسى كان كافرًا، وهذا من نواقض الإسلام، كما ذكره محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ.

(١) يقول بهذا غلاة الصوفية.

(٢) لذلك تجد أنهم لا يهتمون بالسنة، ولا يبحثون في تهذيب النفوس من خلالها، بل عندهم وسائلهم الخاصة في التربية والتهذيب.

(٣) هذا الكلام من الكفر البواح، وهم يظنون أن كلمة الصوفية مأخوذة من الصفة، وهي ليست منها بل من لبس الصوف إذ صار شعارًا للزهد عندهم أو من كلمة صوفيا باليونانية يعني الحكمة عند الفلاسفة.

بمكة[١] كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ (الإسراء: ١).

وأن الصُّفَّة لم تكن إلا بالمدينة، وكانت صُفّة في شمالي مسجده ﷺ ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم، فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي ﷺ إلى المدينة فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به، ومن تعذر ذلك عليه نزل في المسجد إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه.

ولم يكن أهل الصُّفَّة ناسًا بأعيانهم يلازمون الصُّفَّة، بل كانوا يقلُّون تارة ويكثرون تارة أخرى، ويُقيم الرجل بها أيامًا ثم ينتقل منها، والذي ينزلون بها هم من جنس سائر المسلمين ليس لهم مزية في علم ولا دين، بل كان فيهم من ارتد عن الإسلام وقتله النبي ﷺ كالعرنيين الذين اجتووا المدينة ـ أي: استوخموها[٢] ـ فأمر لهم النبي ﷺ بلقاح ـ أي: إبل لها لبن ـ وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها، فلما صحّوا قتلوا الراعي، واستاقوا الذود[٣]. فأرسل النبي ﷺ في طلبهم، فأتي بهم، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وَسَمَّلَ «وسُمِّرت أعينهم»[٤]، وتركهم في الحرَّة[٥] يستسقون[٦] فلا يُسقون[١].

---

(١) أي: قبل مجيء أهل الصفة أصلاً، وأهل الصفة وجدوا بعد الهجرة، وصار هناك من يهاجر إلى رسول الله ﷺ ولا يجد مأوى، فجعلت لهم في مؤخرة المسجد يأوون إليها.

(٢) قوله «استوخموها»: مرضوا من جوها.

(٣) قوله «استاقوا الذود»: استاقوا الإبل كغنيمة.

(٤) قوله «وسمَّرت أعينهم»: جعلت المسامير فيها، كما فعلوا بالراعي.

(٥) الحرة: هي الحجارة السوداء على أطراف المدينة.

(٦) يستسقون: أي يطلبون السقي فلا يُسقون مثل ما صنعوا بالراعي.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٨٠٤)، ومسلم (١٦٧١).

وحديثهم في (الصحيحين) من حديث أنس، وفيه أنهم نزلوا الصُّفَّة، فكان ينزلها مثل هؤلاء ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص، وهو أفضل من نزل بالصُّفَّة، ثم انتقل عنها، ونزلها أبو هريرة وغيره، وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي تاريخ من نزل الصُّفَّة[(١)]. وأما الأنصار؛ فلم يكونوا من أهل الصُّفَّة، وكذلك أكابر المهاجرين كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي عبيدة بن الجراح وغيرهم لم يكونوا من أهل الصُّفَّة[(١)].

جملة أحاديث موضوعة في الولاية

وقد رُوي أنَّه كان بها غلامٌ للمغيرة بن شعبة، وأن النبي ﷺ قال: «**هذا واحد من السبعة**»[(٢)]. وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم، وإن كان قد رواه أبو نعيم في (الحلية)، وكذلك كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدد: الأولياء[(٢)] والإبدال[(٣)] والنقباء[(٤)]

---

(١) هؤلاء عندما هاجروا في سبيل الله ما كان لهم أموال يتاجرون بها ويربحون منها حتى تكون لهم مساكن.

(٢) لفظة الأولياء: أصح حديث فيها هو حديث البخاري: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**».

(٣) وأما لفظة الإبدال: فقد وَرَدَت في حديث موقوف[(٣)].

(٤) وأما لفظة النقباء: فقد وردت في نقباء الأنصار في بيعة العقبة.

---

(١) واسمها «طبقات الصوفية»، وخرج أحاديثها السخاويُّ ـ رحمه الله ـ وسماها: «تخريج الأربعين السلمية في التصوف».

(٢) ضعيف: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤) في ترجمة هلال مولى المغيرة بن شعبة، والحديث في سنده انقطاع.

(٣) قال الشيخ الألباني: واعلم أن أحاديث الأبدال لا يصح منها شيءٌ وكلها معلولة، وبعضها أشد ضعفًا من بعض.

والنجباء، والأوتاد، والأقطاب[(١)] مثل ثلاثة أو أربعة أو سبعة، أو اثنى عشر، أو أربعين، أو سبعين، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو القطب الواحد، أو الغوث الواحد .. فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال، ورُوي فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً، وأنهم بالشام، وهو في المسند من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(١)] وهو حديث منقطع ليس بثابت، ومعلوم أن علي بن أبي طالب ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي، وقد جاء في الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن

---

(١) أما الأوتاد والأقطاب: فلم ترد في كتاب ولا سنة، ويعتقد الصوفية في الأوتاد، أنهم أوتاد الكون، والأقطاب هم الذين يدور حولهم روح الكون كله، وأن القطب الواحد هو الذي تدور الدنيا حول أمره. أما الأبدال فعنوا بهم أنهم الذين يتبادلون تصريف الكون، وهذا ليس معناها، بل الأبدال: الذي جعلهم الله بدلاً ممن سبقهم من الأولياء الذين يقومون بالحق علمًا وعملاً في هذه الأمة، كلما مات منهم أحد جعل الله مثله بدلاً منه، فمثلاً: إذا مات في الأمة عالم فإن الله يبدل من هو مثله في العلم، والقيام بالحق، ولا يلزم أن يكون مثله في كل شيء، ولكن مثله في الطريقة، فإنه بموت النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن هناك مثله في المنزلة، وكذلك بموت أبي بكر، ولكن في الطريقة كان هناك من هو بدلٌ منه يقوم مقامه، لأن الحق لا يضيع من هذه الأمة؛ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا تَزَالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولاَ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**»[(٢)].

---

(١) **حديث ضعيف**: أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١١٢)، وأورد طرقه ابن الجوزي في كتابه: «الموضوعات»، وقال: «ليس في هذه الأحاديث شيء يَصِحُ» (٣/ ١٥١، ١٥٢)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٤٩٨، ٤٣٤١).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (٥٠٥٩).

النبي ﷺ أنه قال: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ مِن الدِّين على حين فُرْقَةٍ مِنْ المُسْلِمِينَ يقتلهم أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بالحَقِّ»[1]، وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحرورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين في خلافة علي، فقتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه، فدلَّ هذا الحديث الصحيح على أن عليَّ بن أبي طالب وأصحابه أولى بالحقِّ من معاوية وأصحابه، فكيف يكون الإبدال في أدنى العسكرين دون أعلاهما؟!، وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبي ﷺ أنه أنشده منشد:

قد لسعت حية الهوى[(١)] كبدي ... فلا طبيب لها ولا راقي

إلا الحبيب الذي شغفت به ... فعنده رقيتي وترياقي

وأن النبي ﷺ تواجد[(٢)] حتى سقطت البردة عن منكبيه، فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وأكذب منه ما يرويه بعضهم أنه مزق ثوبه[(٣)]، وأن جبريل أخذ قطعة منه، فعلقها على العرش[2].

---

(١) «لسعتْ حية الهوى»؛ يشبه الهوى أو الحب بأنه ثعبان، وكذلك تشبيهات الصوفية في أشعارهم يشبهون المحبة بالخمر فيسمون القصيدة بالخمرية والمقامات العالية عندهم يسمونها مقام الدهش، الهيمان، السكر. فهذه عندهم مقامات مدح، ويسمون الذات الإلهية باسم الأنثى، ويخاطبونها على ذلك ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ.

(٢)تواجد: أي اهتز وتمايل ووجد من شدة المحبة والوجد.

(٣)مزق ثوبه: مزق ملابسه من شدة حبه وهذا من خزعبلات الصوفية.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) ساقه السهروردي في «عوارف المعارف» في آخر الباب الخامس والعشرين في القول في السماع تأدبًا واعتناء بسنده إلى أنس، وأنكره.

فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله ﷺ أنه من أظهر الأحاديث كذبًا عليه ﷺ، وكذلك ما يروونه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان، وكنت كالزنجي بينهما»[(١)]، فهو كذب «موضوع» باتفاق أهل العلم بالحديث»[(١)].

والمقصود هاهنا: أنَّه من يقر برسالته ﷺ العامة في الظاهر[(٢)]، مع أنه يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك؛ فيكون منافقًا وهو يدَّعي في نفسه وأمثاله أنهم أولياء الله، مع كفرهم في الباطن بما جاء به الرسول ﷺ إما عنادًا وإما جهلاً[(٣)].

---

(١) الزنجي: أي لا يفهم شيئًا، أي كأنهما يتحدثان بلغة أخرى! والصوفية دائمًا يؤثرون استعمال الكلام الغامض الذي لا يُفهم ولا يُفسر.

(٢) قوله: «يقر برسالته العامة في الظاهر»: دليل على أن الإنسان قد يقول لا إله إلا الله، وعقيدته وحدة الأديان، أو وحدة الوجود، أو الخروج عن الشريعة.

(٣) قوله: «إما جهلاً»: هذا الجهل نشأ عن الإعراض، وليس معتبرًا في هذه الحالة كعذر، فهو يخالف المعلوم من الدين بالضرورة، فإن رسالة رسول الله إلى الناس كافة وعامة، وشريعته عامة إلى الإنس والجن، ومثال من يرى الخروج عن الشريعة: من يقول: إن الصلاة وسيلة لا غاية، فإذا وصل الإنسان إلى الغاية وهي اليقين ـ بزعمهم ـ سقطت عنه العبادة، فالصلاة وغيرها من العبادات إنما هي عندهم هي لغير الواصلين، فهذه ردة عن الإسلام بلا شك.

---

(١) موضوع: قال ابن القيم في «المنار المُنيف» (ص١٥): «وهذا مما وضعه جهلة المنتسبين إلى السنة في فضائل الصديق رضي الله عنه.

ـ وقال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» بعدما ساق الحديث، قال ابن تيمية: موضوع «الفوائد المجموعة». طبعة دار الكتب العلمية. بيروت.

من أسباب كفر اليهود والنصارى

كما أن كثيرًا من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله، وأن محمدًا رسول الله، ولكن يقولون: إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب، وأنَّه لا يجب علينا اتباعه؛ لأنه أرسل إلينا رسلاً غيره قبله ﷺ، فهؤلاء كلهم كفار، مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله، وإنما أولياء الله هم الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (يونس: ٦٢-٦٣). ولابد في الإيمان أن يؤمن العبد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٦-١٣٧).

وقال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٨٥-٢٨٦).

وقال تعالى: ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة: ١-٥). ولابد في الإيمان بأن يؤمن أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون من

أولياء الله المتقين، ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض؛ فهو كافر ليس بمؤمن، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥٠-١٥٢)[١].

ومن الإيمان به: الإيمان بأنه هو الواسطة بين الله وبين خلقه[٢] في تبلغ أمره ونهيه ووعده ووعيده وحلاله وحرامه، فالحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام: ما حرمه الله ورسوله، والدين: ما شرعه الله ورسوله ﷺ، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقًا إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافرٌ من أولياء الشيطان.

---

(١) قوله: ﴿يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾: هذا دليل على وجوب الإيمان بكل الرسل، وبكل ما جاء به الرسول ﷺ، وأن من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض فهو كافر، كذلك من آمن ببعض ما جاء به الرسول وكفر ببعض فهو كافر، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ٨٥). فإن أشد العذاب لا يكون لعصاة الموحدين بل للكافرين والمنافقين.

(٢) قوله: «هو الواسطة بين الله وبين خلقه»: أي أن الرسول بُعث مبلغًا عن الله ما أمره به لجميع الإنس والجن، فليس لأحد أن يخرج عن تحليل الشريعة وتحريمها، وكثير من أهل الزندقة يعتقد أن هناك طائفة لهم أن يرتكبوا المنكرات والمحرمات ويتركوا الواجبات بزعم أن لهم طريقًا مع الله، وأن هذا الأمر للعامة، وأن الخاصة لا تلزمهم هذه العبادات؛ لأنهم قد وصلوا، وهذا كله من الكفر المخرج عن الملة، =

وأما خلق الله تعالى للخلق، ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم، وهدايته لقلوبهم، ونصرهم على أعدائهم، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضارك فهذا لله وحده يفعله بما يشاء من الأسباب، ولا يدخل في مثل هذا واسطة الرسل(١).

= ويحتجون بقصة الخضر مع موسى، وهذا احتجاج باطل؛ لأن الخضر لم يكن ملزمًا باتباع شريعة موسى، وأن الله أعلمه بأشياء من علوم الغيب، وشرع له شرع سواء أكان أُوحِيَ له كنبي أم بشريعة بلغها له نبي من الأنبياء في زمنه، مثل قتل الغلام، وإصلاح الجدار بلا مقابل، وخرق السفينة، وهذا لا ينطبق على شريعة محمد ﷺ؛ لأنه رسول الله إلي الثقلين، وشريعته لازمه للناس كافة، فلا يجوز لأحد ادعاء أنه قد علم ما أخفاه الله عن غيره من العباد، وأن له ارتكاب المحرمات الظاهرة بزعم أنها في الباطن ليست كذلك، وأن هناك أسبابًا تجعلها له حلالاً. مثل: أن يقول إن الله أباح له ذلك، أو أنه رأى الرسول في المنام وقال له كذا، وربما يتمثل له الشيطان، وهذه الفرق كافرة خارجة عن الملة، فهو يعلم أن الله حرم هذا وأوجب هذا، ومع ذلك يرى نفسه خارجًا عن هذا التحريم والإيجاب، فلا يكون هذا مؤمنًا بالرسول ﷺ ولا بما جاء به.

(١) هناك قيد في مسألة الرسل: فالرسول لا ينفع الناس ولا يضرهم على سبيل الوساطة أو الشفاعة، ولا يُدعى من دون الله، ولا يطلب منه الإغاثة، ولا يُتخذ إلهًا يعبد من دون الله، ولكن الخالق الضار النافع الذي يجيب الدعاء هو الله ـ سبْحَانه وتعالى ـ أما وساطة الرسل فهي للإبلاغ عن الله الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم والإخبار بأمور الاعتقاد والإيمان.

وجوب الإيمان بكل ما جاء به نبينا محمد ﷺ وكفر من خالف في ذلك

ولو بلغ الرجل من الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ فليس بمؤمن، ولا ولي لله تعالى؛ كالأحبار والرهبان(١) من علماء اليهود والنصارى وعُبَّادهم، وكذلك المنتسبون إلى العلم والعبادة من المشركين: مشركي العرب والترك والهند وغيرهم، فمن كان من حكماء الهند والترك، وله علم أو زهد(٢) وعبادة في دينه وليس مؤمنًا بجميع ما جاء به محمد ﷺ فهو كافر عدو لله، وإن ظن طائفة أنه ولي لله، كما كان حكماء الفرس والمجوس كفارًا مجوسًا.

وكذلك حكماء اليونان؛ مثل أرسطو وأمثاله، كانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب، وكان أرسطوا قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة، وكان وزير الإسكندر بن

---

(١) الأحبار: هم العلماء، والرهبان هم: العُبَّاد، يتعبدون عبادات شديدة ويتخلون عن كل زخرف الدنيا، ويقضون السنين في القفار والخلوات لا يفعلون غير ما يظنونه عبادة ومع ذلك فليسوا بمؤمنين، ولا أولياء لله، مثل: بوذا، وزرادشت، وكونفشيوس، كانوا يُعَلِّمون الناسَ الحكمةَ بزعمهم وهي ليست الحكمة الشرعية، وعندهم زهد ورياضة نفسية لتحرير النفس من سلطان الشهوات، ومن عباداتهم الموروثة اليوجا، لاستخدام الطاقة الكامنة من خلال تحكم الإنسان في جسده لا العكس، وكل هؤلاء مشركون.

(٢) قوله: «أو زُهْد»: أي أن الإنسان قد يكون زاهدًا، أو متخففًا من الدنيا ومع ذلك لا يكون مؤمنًا، ودائمًا ما يفتن الناس بمن يزهد في الدنيا ويعظمونه ولا ينظرون إلى إيمانه ودينه.

فيلبس المقدوني[(١)] (وهو الذي يؤرخ له تواريخ الروم واليونان، ويؤرخ له اليهود والنصارى)، وليس هذا هو ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه، كما يظن بعض الناس أن أرسطوا كانو وزيرًا لذي القرنين، لما رأوا أن ذاك اسمه الإسكندر، فظنوا أن هذا ذاك؛ كما يظنه ابن سينا وطائفة معه، وليس الأمر كذلك، بل هذا الإسكندر المشرك الذي كان أرسطو وزيره متأخر عن ذاك، ولم يبن هذا السد، ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج، وهذا الإسكندر الذي كان أرسطوا من وزرائه يُؤرخ له تاريخ الروم المعروف.

تسلط الشياطين على أوليائهم

وفي أصناف المشركين من مشركي العرب ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة، ولكن ليس بمتبعٍ للرسل، ولا يؤمن بما جاؤوا به فلا يصدِّقهم فيما أخبروا به، ولا يطيعهم فيما أمروا، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين، ولا أولياء لله، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السِّحر، وهم من جنس الكهَّان والسَّحرة الذين تتنزل عليهم الشياطين، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) الإسكندر المقدوني: هو الذي بنى الإسكندرية وليس هو ذا القرنين كما يظن بعض الناس، بل ذو القرنين كان موحدًا، أما المقدوني هذا فمعروف من آثاره أنه عابد للأوثان، وعندما جاء إلى مصر وأراد أن يتقرب إلى المصريين ذهب إلى سيوة وأقام معبدًا للإله آمون وعبده فترة، وكان ابن سينا معظمًا جدًا لأرسطو، ويقول: إنه وزير لذي القرنين، وهذا كلامٌ باطلٌ بل إن الذي ذُكِرَ في القرآن لم يُسم الإسكندر، وإنما الاشتباه في كلمة (ذو القرنين)؛ لأن الإسكندر المقدوني يُسمى ذا القرنين.

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٥)[1].

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلي المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل؛ فلابد أن يُكَذّبوا وتكذبهم شياطينهم، ولابد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة، ولهذه تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن.

---

(١) قوله ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: دليل على أنه لابد أن يُحْدِثَ كذبًا ويَفْعَلُ إثمًا، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ يَقُولُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنْ السَّمَاءِ**»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾: دليل على أنهم يكذبون عليهم كما أخبرالنبي ﷺ أنهم تُلقى عليهم كلمة فيكذبون معها مائة كذبة.

---

(١) صحيح: رواه البخاريُّ في «التفسير» (٤٨٠٠).

تفسير الذكر بأنه القرآن

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف: ٣٦).

وذِكْرُ الرحمن: هو الذِّكْرُ الذي بعث به رسوله ﷺ مثل القرآن، فمن لم يؤمن بالقرآن ولم يصدِّقْ خبره، ويعتقدْ وجوب أمره، فقد أعرض عنه، فيقيِّض له الشَّيطان فيقترن به، قال تعالى: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٥٠).

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٤-١٢٦)، فدل على أن ذِكْرَه هو آياته التي أنزلها، ولهذا لو ذكر الرجل الله - سبحانه وتعالى - دائمًا ليلاً ونهارًا مع غاية في الزهد وغاية العبادة مجتهدًا في ذلك، ولم يكن متبعًا لذكره الذي أنزله - وهو القرآن - كان من أولياء الشيطان، ولو طار في الهواء أو مَشَى على الماء، فإن الشيطان يحمله في الهواء وعلى الماء، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

فصل
زيادة الإيمان ونقصانه

ومن الناس من يكون فيه شعبة إيمان وفيه شعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ أنه قَالَ: «أَربَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[1].

وفي الصحيحين أيضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنه قَالَ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨، ٢١٩).

وَسِتُّونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - شُعْبَةً، أَعْلاهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ»(١).

فبين النبي ﷺ أن من كان فيه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها، وقد ثبت في الصحيحين عنه أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه وهو من خيار المؤمنين: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، فقال: «يا رسول الله، أعلى كِبَرِ سني؟ قال: «نَعَمْ»(٢). وقد ثبت عنه أنه قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم»(٣). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(٤). وفي لفظ في صحيح مسلم: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»(٥).

وذكر البخاري عن ابن أبي مُلَيْكَة أنه قال: «أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِن أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُم يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِه»(٦). وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٦-١٦٧)(١).

---

(١) قوله ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾: دليل على أن الرجل قد يكون فيه إيمان ونفاق، ويكون له من ولاية الله بقدر إيمانه، وفيه عداوة بقدر نفاقه، والحقيقة أنَّ ولي الله هو المؤمن الذي اكتمل إيمانه، وعدو الله هو الكافر أو المنافق النفاق الأكبر.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).
(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٩٣٤)، والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٥٥، ٤٥٦).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).
(٥) هذه الزيادة عند مسلم (١ ـ كتاب الإيمان (٢٥) بيان خصال المنافق ح ١٠٩، ١١٠/ ٥٩).
(٦) أخرجه البخاري معلقًا (١/ ١٣٦)، ووصله البخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٣٧)، قال الحافظ: وصله ابن أبي خيثمة في «التاريخ» والمروزي في «كتاب الإيمان».

فقد كان هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان، فعلم أنهم مخلطون، وكفرهم أقوى، وغيرهم يكون مخلطًا وإيمانه يكون أقوى.

وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى؛ كان أكمل ولاية لله، فالناس يتفاضلون في ولاية الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق .. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٤-١٢٥). وقال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة: ١٠).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ (التوبة: ٣٧)[(١)]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (محمد: ١٧).

فبين ـ سبحانه وتعالى أن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه، وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه، وقال تعالى: ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ (المدثر: ٣١). وقال تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (الفتح: ٤).

فصل

في أن أولياء الله على طبقتين: مراتب الولاية

وأولياء الله تعالى على طبقتين: سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون. ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه، في أول سورة الواقعة وفي آخرها، وفي سورة الإنسان، والمطففين، وفي سورة فاطر .. فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر في الواقعة القيامة

---

(١) قوله ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾: دليل على أن الكفر يزيد وينقص.

الكبرى في أولها وذكر القيامة الصغرى[1] في آخرها، فقال في أولها: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ (الواقعة: ١-١٤)[2].

---

(١) القيامة الصغرى: أي الموت.

(٢) - ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾: أي خافضة لأقوام، ورافعة لآخرين.

﴿ رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾: زلزلتها.

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ ﴾: فُتّت تفتيتًا.

﴿ هَبَاءً ﴾: الغبار الذي يُرى في ضوء الشمس.

﴿ مُّنبَثًّا ﴾: متفرقًا.

﴿ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾: أصنافًا ثلاثة.

﴿ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾: أصحاب اليمين، ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾: وهذا تعظيمٌ لشأنهم.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾: جماعة كبيرة كثيرة من الأولين.

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾: جماعة قليلة من الآخرين.

- وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ (الواقعة: ٨٨-٩١). قال تعالى في سورة المطففين: ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (المطففين: ٢٧-٢٨). المُقَرَّبون يشربون من تسنيم خالص يُمزج لأصحاب اليمين، وقال تعالى في سورة الإنسان: =

فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين، كما وصف الله سبحانه ذلك في كتابه في غير موضع، ثم قال تعالى في آخر السورة: ﴿ فَلَوْلا ﴾؛ (أي: فهلا) ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٨٣-٩٦)[(١)].

= ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ (الإنسان: ٤-٥). عباد الله يشربونها خالصة، وفي سورة فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (فاطر: ٣٢). والصحيح أن هذه الآية في أهل الإسلام جميعًا، فهم أقسام ثلاثة: الظالم لنفسه وإن كان معه أصل الدين، والمقتصد هو القائم بالواجبات، التارك للمحرمات، والسابق بالخيرات الذي يزيد على ذلك المستحبات وترك المكروهات ظاهرًا وباطنًا.

(١) ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾: أي إذا بلغت الروح حلق الإنسان، وهي الغرغرة، تشبيهًا بالشيء الذي يتغرغر، أي: يتردد في الحلق.

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾: وأنتم أصحاب الميت وأقاربه تنظرون إليه، ولا تستطيعون فعل شيء له.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾: قربًا يليق بجلاله وعظمته، قرب علم وإحاطة ومراقبة وقدرة، وقيل: إن ضمير المتكلمين يعود إلى الملائكة، والصحيح الأول.

﴿ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾: غير محاسبين. =

وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان: ٣-١٢)[(١)].

= ﴿تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: وهذا دليل على أن المرء لا يملك الحياة، فروحه أخذت منه رغمًا عنه، وعمن حوله، فكيف يجزم بأنَّه لا يُحاسب، بل هي ملك لله، لذلك ستسأل أيها الإنسان عما تصرفت فيه مما هو ملك غيرك.

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: أي المُحْتَضَر من المقربين.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾: روح أي راحة، ﴿وَرَيْحَانٌ﴾: أمر طيب أو ريحان من الجنة

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾: أي يقال له سلام لك أنت من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾: ﴿فَنُزُلٌ﴾: النُّزل هو ما يعد للضيف، فإذا كان هذا ما يُعد له فهو أقبح ما يكون، أن يتوقع الإنسان خيرًا فإذا به يجد شرًا، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. يتوقع الإنسان إذا بشره أحدًا أنه يجد خيرًا فإذا به يجد شرًا، فيكون أشد عليه، كمن يُرفع ثم يَهوي إلى أسفل، فيكون أشد مما لو سقط ابتداءً. ﴿حَمِيمٍ﴾: الماء الحار الذي انتهى في حرارته.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾: يصلى النار ويحرق فيها.

(١) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾: على قولين؛ القول الأول: أي بيَّنَّا السبيل لكل إنسان، فَخُيِّر بين أن يكفر وبين أن يشكر، والقول الثاني: إن هذه هداية التوفيق =

وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال: ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ

= وما يقذفه الله - عَزَّ وجَلَّ - في قلب العبد، فقذف في قلوب المؤمنين إرادة أحد الطريقين إرادة الشكر والمحبة وطرق الخير، وقذف في قلوب الكفار الكفران والبعد عن طاعة الله.

﴿ سَلاسِلَ ﴾: ما تُقيد به الأيدي والأرجل.

﴿ وَأَغْلالاً ﴾: ما يجعل في الأعناق. ﴿ سَعِيراً ﴾: النار المشتعلة.

﴿ الأَبْرَارَ ﴾: هم أصحاب اليمين يشربون من كأس مزجت بكافور الجنة.

﴿ كَافُورًا ﴾: عينًا يشرب بها المقربون وهي لعباد الله خالصة ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ فهم لا يحتاجون إلى الذهاب لأماكن معينة عند شرب الماء، بل هو حاضر في كل موضع بإرادتهم، ضربوا الأرض فخرج هذا الشراب العذب.

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾: أي كان شره منتشراً.

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً ﴾: رغم أنهم يحبون هذا الطعام لحاجتهم إليه، إلا أنهم يطعمون هذا الطعام للمحتاجين. ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾: أي رغم حبهم له. ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾: أي شديداً.

فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٧-٢٨)[(١)] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف قالوا: «هو يمزج لأصحاب اليمين مزجًا ويشرب بها المقربون صرفًا»[(١)]، وهو كما قال الله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، ولم يقل يشرب منها؛ لأنه ضمن ذلك قوله يشرب معنى يُروى؛ فإن الشارب قد يشرب ولا

---

(١) ﴿سِجِّينٍ﴾: من السجن كلما سفل ضاق. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾: تعظيمًا لخطره وضيقه.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾: أي كتابهم كتاب مرقوم قد رُقِم وكُتِبَ فيه ما أَمَرَ الله أن يُكتب.

﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: طبع عليها حتى قست ولم تقبل الحق بسبب أعمالهم وكفرهم ـ والعياذ بالله ـ.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾: لا يرون ربهم، وهذا حجب إهانة وخزي.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾: يدخلون النار يحترقون فيها، ويقاسون حرّها.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾: هو ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾: رُقم وكتب فيه ما أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

﴿عِلِّيِّينَ﴾: كلما علا الأمر اتسع.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾: بدأ من كتاب ولم يبدأ من عليين.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: هم يشهدون ما في هذا الكتاب العالي القدر.

ـ ضمّن الفعل (يشرب) معنى فعل آخر هو (يروى)، ولذلك عداه بحرف الجر الذي يناسبه ففعل يروى يُعدى بحرف الباء فيقال (يروي بها) وأما (يشرب) فيعدى بنفسه يقال (يشربها) أو يشربه، فأما قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ فلأنه ضمن معنى الإرواء.

---

(١) صرفًا: أي خالصًا.

يُروى، فإذا قيل: يشرب منها لم يدل على الريّ، فإذا قيل: يشرب بها، كان المعنى: يروون بها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلي ما هو دونها، فلا يشربون معها غيرها، فلهذا يشربوها صرفًا، بخلاف أصحاب اليمين، فإنها مزجت لهم مزجًا وهو كما قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ (الإنسان: ٥-٦).

فعباد الله هم المقربون المذكورون في تلك السورة، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر؛ كما قال النبي ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ المَلائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[١] رواه مسلم في صحيحه.

وقال ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[٢] قال الترمذي: حَدِيثٌ صَحِيحٌ[١].

---

(١) قوله «يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»: لبيان أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر، وفيه دليل على أن الله فوق خلقه، فالسماء العلو.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٩٣٠).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٠)، وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» برقم: (٩٢٥).

وفي الحديث الذي في السنن، يقول الله تعالى: «أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا؛ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا؛ بَتَتُّهُ»[١]. وقال: «مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللهُ»[٢]. ومثل هذا كثير.

وأولياء الله تعالى نوعان: مقربون وأصحاب يمين؛ كما تقدم. وقد ذكر النبي ﷺ عمل القسمين في حديث الأولياء، فقال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[٣]، فالأبرار أصحاب اليمين هم المقربون إلى الله بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرَّم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم المندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات.

وأما السابقون المقربون؛ فتقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته أحبهم الله حبًا تامًا؛ كما قال تعالى: «وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»[٤]. يعني: الحب المطلق[١]. كما في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٦-٧). أي:

---

(١) الحب المطلق: أي الكامل المطلق من كل وجه فهو يحبه لذاته حينئذ، وقبل ذلك كان محبوبًا لتقواه وإحسانه، فالله يحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المتطهرين، فهذا محبوبٌ بسبب بعض صفاته، أما الحب المطلق فهو من كل وجه.

---

(١) صحيح: رواه وأبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٧٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٥٢٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥) من حديث عائشة بلفظ: **«الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»**.

(٣)، (٤) صحيح: تقدم تخريجهما.

أنعم عليهم الإنعام المطلق التام[١]. المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩). فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها إلى الله - عَزَّ وجَلَّ -، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله، فشربوا صرفًا كما عملوا له صرفًا[٢]. والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم[٣]، فلا يُعاقبون عليه، ولا يُثابون عليه، فلم يشربوا صرفًا، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا.

العبد الرسول والنبي الملك

ونظير هذا انقسام الأنبياء - عليهم السلام - إلى رسول عبد، ونبي ملك. وقد خَيَّر الله سبحانه محمدًا ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولاً وبين أن يكون نبيًا مَلِكًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً.

فالنبي الملك مثل: داود وسليمان ونحوهما عليهما - الصلاة والسلام - قال الله تعالى في قصة سليمان: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ

---

(١) وإلا فكل الخلق قد أنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣). وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٩).

(٢) قوله «عملوا صرفًا»: أي أن السمع والبصر والبطش واللمس كل ذلك كان لله؛ «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»، فلما عملوا لله صار جزاؤهم أنهم يأخذون الجزاء صرفًا.

(٣) أي شهوات مباحة لكن لم يستحضروا النية فيها، بل استحضروا مجرد إتيان الرغبة.

(٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص: ٣٥-٣٩).
أي: أعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه، ويترك ما حرَّم الله عليه، ويتصرف في الولاية والمال بما يُحِبهُ ويختار، من غير إثم عليه، وأما العبد الرسول؛ فلا يعطي أحد إلا بأمر ربه، لا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء، بل يعطي مَن أمره الله بإعطائه، ويولي مَن أمره ربه بتوليته، فأعماله كلها عبادات لله تعالى، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنِي وَاللهِ لا أُعْطِي أَحَدًا وَلا أَمْنَعُ أحدًا، إنَّمَا أَنَا قَاسِمٍ أَضَعُ حَيثُ أُمِرْتُ»[(١)] [(١)].

ولهذا يضيف الله الأموال الشرعية إلى الله والرسول؛ كقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١). وقوله تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (الحشر: ٧). وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (الأنفال: ٤١).

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء: أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه الله ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر، كما هو مذهب مالك وغيره من السلف، ويذكر هذا رواية

---

(١) قوله «أَنَا قَاسِمٍ أَضَعُ حَيثُ أُمِرْتُ»: دليل على أن النبي الملك يأمر وينهى أحيانًا في الأمور وغيرها لإرادة نفسه، مع كونه ملتزمًا أن لا يخرج عن الطاعة أبدًا، ولكن العبد الرسول مع كونه لا يخرج عن الطاعة أبدًا فإنه يتصرف في المباحات بما أُمِرَ به، ولذا كان العبد الرسول أفضل، كما أنه لا يعيش عيشة الملوك، ولا ينتقم لنفسه قط، ولا يطالب بحقه. وسليمان عليه السلام توعد الهدهد لأنه لم يستأذن، وأنس كان يلومه البعض في أمر لم ينفذه فيقول النبي ﷺ: دعوه إن قدر شيء كان، =

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١١٧)، والإمام أحمد (٢/ ٢٣٤)، واللفظ له.

= ولم يقل له قط لشيء فعله لم فعلته؟ ولا لشيء لم يفعله ألا فعلت كذا؟ وقد قال الله في شأن سليمان عليه السلام: ﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ**﴾ (سبأ:١٣). ﴿**تَمَاثِيلَ**﴾: غير ذوات أرواح، و﴿**قُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ**﴾: قدور كبيرة للطعام والشراب، وهذه من أحوال الملوك. أما الرسول ﷺ فدخل عليه عمر بن الخطاب ذات يوم وقد اضطجع النبي ﷺ على حصير فأثر في جلده، فقلت: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو كنت آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئًا يقيك منه، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أنا والدنيا، إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

وكان ﷺ يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد(٢)، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله(٣)، وكان الخلفاء على نفس الحال، ولذلك قال ﷺ: «**تكون الخلافة ثلاثين سنة ثم تكون ملكًا**»(٤). وكان عمر رئيسًا لأكبر دولة وتحت يده أعظم الكنوز وثوبه مرقع رضي الله عنه، فهذا الحال من خلافة النبوة، والرسول ﷺ قد خيره ربه بعد الرسالة بين أن يكون ملكًا نبيًا أو عبدًا رسولاً، فاختار تكميل العبودية بأن يكون عبداً رسولاً، والنبيُّ قد يرسل كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾ (الحج:٥٢). فدل هذا على تفاضل الأنبياء والرسل، فالمقربون إذن متفاوتون، فأعلاهم العباد الرسل، ثم الأنبياء، ثم عموم المقربين.

والخلاصة: أن العبد الرسول أعلى قدراً عند الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وإن كان سلطانهم في الدنيا ليس كالنبي الملك. =

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤١١٩)، والترمذي (٢٣٧٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٤٣٩).
(٢) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧).
(٣) **صحيح**: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٣٩)، وصححه الألباني.
(٤) **حسن**: حسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٩٥) من حديث سفينة رضي الله عنه.

عن أحمد. وقد قيل في الخمس إنه يقسم على خمسة؛ كقول الشافعي، وأحمد في المعروف عنه، وقيل: على ثلاثة، كقول أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ[(١)]. والمقصود هاهنا أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملك، كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً ـ صلى الله عليهم وسلم ـ أفضل من يوسف وداود وسليمان ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، كما أن المقربين السابقين[(٢)] أفضل من الأبرار أصحاب اليمين، الذين ليسوا مقربين سابقين، فمن أدى ما أوجب الله عليه وفعل من المباحات ما يحبه؛ فهو من هؤلاء، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه، ويقصد أن يستعين بما أُبيحَ له على ما أمره الله به فهو من أولئك.

= ومن ضلالات ابن عربي أنه قال:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

وهذا كلام باطل بالإجماع، فالأنبياء الملوك أعلى قدراً من المقربين بالإجماع، فالمفضول من الأنبياء أعلى باتفاق المسلمين، فالأولياء دون الأنبياء، والأنبياء أعلى قدراً ثم أعلى منهم الرسل.

(١) قول الشافعي وأحمد في المشهور عنه في الآية: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ (الأنفال: ٤١). فجعلهم خمساً، فالخُمس يقسم عليهم، وقال الإمام مالك: بل يصرف في أي جهة من هؤلاء مثل: الصدقات، فلا يلزم أن تقسم ثمانية أصناف ثمناً للفقراء، وثمناً للمساكين وهكذا، بل هذا بيان لوجوه الصرف، ولا يلزم التساوي فيما بينها، وهذا هو الظاهر كما قال ابن تيمية، وقال الإمام أبو حنيفة: لليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وأما سهم الرسول وذي القرى فقد انتهى بوفاته ﷺ.

(٢) ولاشك أن السابقين هم أبرار فعلوا البر لأنهم أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، ولكن زادوا أنهم ما فعلوا المباحات إلا تقرباً إلى الله، فهم خاصة أصحاب اليمين.

فصل

وقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أولياءه المقتصدين والسابقين في سورة فاطر في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ (فاطر: ٣٢-٣٦).

لكن هذه الأصناف الثلاثة في هذه الآية هم: أمة محمد ﷺ خاصة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (فاطر: ٣٢)[(١)]. وأمة محمد ﷺ هم الذين أُورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة، وليس ذلك مختصًا بحفَّاظ القرآن، بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء، وقسَّمهم إلى ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات، بخلاف الآيات

---

(١) قوله ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾: دليل على أن الظالم لنفسه من أمة محمد ﷺ، وهذا ترجيح المصنف لأحد القولين في تفسير الآية، فمن العلماء من يجعل الظالم لنفسه هو القسم الذي هو من أصحاب النار من الكفرة الذين ذُكروا في آخر أول سورة الواقعة ﴿ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ وآخرها، ومنهم من يجعل هؤلاء هم المخلطين من أهل التوحيد وهذا هو الموضع الوحيد في التقسيم الذي ذُكر فيه هؤلاء، وهذا هو الأقرب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ (النمل: ٥٩). فمن اصطفاهم الله فهم في النهاية لهم سلام.

التي في الواقعة والمطففين والإنسان والإنفطار؛ فإنه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم، وهذا التقسيم لأمة محمد ﷺ، فالظالم لنفسه: أصحاب الذنوب المصرُّون عليها. والمقتصد: المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم. والسابق بالخيرات: هو المؤدي للفرائض والنوافل، كما في تلك الآيات.

فصل

ومن تاب من ذنبه ـ أي ذنب كان ـ فتوبته صحيحة، لم يخرج بذلك عن قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ (فاطر: ٣٣)، يخبر بذلك عن السابقين والمقتصدين.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣-١٣٦).

وقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ (فاطر: ٣٣). مما يستدل به أهل السنة على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد.

دخول بعض أهل الكبائر النار وخروجهم منها

وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار، فهذا مما تواترت به السنن عن النبي ﷺ، كما تواترت بخروجهم من النار، وشفاعة نبينا محمد ﷺ لأهل الكبائر، وإخراج من يخرج من النار بشفاعته ﷺ وشفاعة غيره.

فمن قال: إن أهل الكبائر مخلدون في النار، وتأوَّل الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها، وأن المقتصد والظالم لنفسه لا يدخلها كما تأوله من تأوله من المعتزلة،

فهو مقابل بتأويل المرجئة[(١)]. الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل الكبائر النار، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة بلا عذاب، وكلاهما[(٢)] مخالفة للسنة المتواترة عن النبي ﷺ ولإجماع سلف الأمة وأئمتها. وقد دلَّ على فساد قول الطائفتين قول الله تعالى في آيتين من كتابه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨)[(٣)]. فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما

---

(١) مذهب المرجئة: أن كل أهل الكبائر يدخلون الجنة، ولكنه ذكر مذهبهم المخفف بأنه يجوز أن يدخلوا الجنة جميعًا، والراجح قطعًا أن هذه الأخبار لا تحتمل تأويلاً وهي تفيد التواتر أن منهم من يدخل النار، لذلك نقول: إن آحادهم في المشيئة أي من رجحت سيئاته على حسناته فهو في مشيئة الله، إن شاء الله عذبهم وإن شاء غفر لهم، ومنهم من يدخل النار قطعًا؛ لأن النبي ﷺ قد أخبر بذلك.

(٢) أي: كلا القولين.

(٣) قوله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾: دليل على أن الآية في غير التائب إذ لو كان المعنى: «ويغفر ما دون ذلك لمن تاب» لكان ما دون الشرك هو الذي يغفر بالتوبة، أما الشرك فلا يغفر له حتى ولو تاب منه، وهذا باطل بإجماع المسلمين، إذًا فلا تكون هناك فائدة من دعوة الرسل، فالرسل جاؤوا لإزالة الشرك، وأن يأتي الناس بالتوحيد، فالناس كانوا مشركين ثم تابوا، والله يغفر الشرك بالتوبة، فالأولى بذلك ﴿مَا دُونَ ذَلِكَ﴾. فالآية قسمت الذنوب إلى: شرك لا يغفر، وما دونه يُغفر إن شاء الله. وهذا المعلق بالمشيئة هو في حق من أصر على معصية كبيرة أو صغيرة، وهذا هو الرد على من يكفر من أصر على الكبيرة أو المعصية، فالمصر: هو الذي لم يتب ويعزم على أن يعود للمعصية، وربما يظل على عزمه ذلك إلى أن يموت. فأهل البدع من الخوارج ومن شابههم يقولون: إن هذا المصر كافر، وهذه المسألة وهي أن من عزم أنه لا يتوب من الذنب حتى يموت، =

دونه لمن يشاء، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب، كما يقوله من يقوله من المعتزلة؛ لأن الشرك يغفره الله لمن تاب، وما دون الشرك يغفره الله أيضًا للتائب، فلا تَعَلُّق بالمشيئة، ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

فهاهنا عمَّم المغفرة وأطلقها، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غَفَرَ الله له، ومن تاب من الكبائر غَفَرَ الله له، وأي ذنب تاب العبد منه غفره الله له، ففي آية التوبة عَمَّمَ وأَطْلَقَ، وفي تلك الآية خَصَّص وعلَّق.

= وعكسها من هو عازم على أن يترك الفريضة إلى أن يموت، ففي مقابلها في الترك، وهو أيضًا من الإصرار، فمن يكفر المُصِرُ ويُكَفِرُ تارك جنس كل عمل واجب وليس فقط الأركان الأربعة الصلاة والزكاة والصوم والحج، فعندهم إذا كان الإنسان قاطعًا للرحم إلى أن يموت، فهذا مصر تارك لوصل الرحم مطلقًا، أي أَنَّه تارك لجنس صلة الرحم، وكذا تارك لجنس بر الوالدين، أو الجهاد فهو مثل المُصر على المعصية أي أنَّه كافر عندهم، وهذا كلام المعتزلة القدماء وفي زماننا جماعة التوقف والتبين.

- إن بعض الناس يقولُ في هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ إن الشرك ليس ذنبًا، إذ إن الله لا يغفره، وهذا خطأ؛ لأن الله يغفر الذنوب جميعًا بما فيها الشرك، ولكن هذا في حق التائب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ (الزمر: ٥٤)، ونص الحديث لما سُئل رسول الله ﷺ: «أي الذنب أعظم؟»، قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»[1]؛ فالشرك أعظم الذنوب، ويغفره الله بالتوبة، ولا يغفره لمن أصر عليه إلى أن يموت.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧).

فخصَّ الشرك بأنه لا يغفره، وعلَّق ما سواه على مشيئته، ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه؛ كالتعطيل للخالق، وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب، أو يجوز أن لا يعذب بذنب؛ فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر للبعض دون البعض، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفورًا له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[١] دليل على أنه يغفر للبعض دون البعض، فبطل النفي والعفو العام.

فصل

في أن التفاضل في الولاية كالتفاضل في الإيمان والتقوى

وإذا كان أولياء الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ هم المؤمنون المتقون، والناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى؛ فهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك، كما أنهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق؛ كانوا متفاضلين في عداوة الله بحسب ذلك.

وأصل[٢] الإيمان والتقوى هو: الإيمان برسل الله، وجماع ذلك: الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسله.

---

(١) قوله ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾: دليل على أن بعض المؤمنين سيعذب والبعض الآخر لن يعذب، فهذا ينفي كلام المعتزلة أن الآية موقوفة على التائبين فقط، أو القول الآخر للمرجئة بنفي التعذيب عن كل الموحدين مطلقًا فكلا القولين باطل.

(٢) هذ الأصل مقطوع به عند أهل السنة، وهو أن الله لا يعذب إلا ببلوغ دعوة الرسل، وأدلته قطعية ومستفيضة كتابًا وسنةً وإجماعًا. قال تعالى: ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء:١٦٥). وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ (الأنعام:١٩). وقال تعالى: ﴿ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ﴾ (المائدة:١٩). وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك:٨). الآيات تدل على أن من لم يأته النذير لم يلق في =

وأصل الكفر والنفاق هو: الكفر بالرسل وما جاؤوا به، فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب في الآخرة؛ فإن الله تعالى أخبر في كتابه أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد بلوغ الرسالة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٥).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٥).

= جهنم، ولا ينازع في هذا الأصل إلا المعتزلة القائلون بالتحسين والتقبيح العقليين، فهم يقولون بقيام الحجة بالعقل، ومن يقول بقولهم في زماننا ممن ينفي العذر بالجهل الناشئ عن عدم البلاغ، يقول بمثل ذلك في قولهم: الحجة قائمة بالفطرة وبالميثاق الأول، وهو نفس معنى كلام المعتزلة في الحقيقة وإن تغيرت العبارة، ولذا تجدهم يدندنون كثيرًا حول الاحتجاج بالميثاق الأول كحجة مستقلة أو الفطرة كذلك دون بلوغ دعوة الرسل، وقد اغتر بقولهم من لم يعرف أصل هذا القول المأثور عن المعتزلة، والبعض قد ظن أن في المسألة خلافًا سائغًا، أو أن المسألة ليست من مسائل الأصول والاعتقاد، وهذا خطأ، فلا يختلف أهل السنة في أن الذي لم تبلغة الحجة لا يعذب، وأنه إذا كان مسلمًا عنده الإيمان المجمل ولم يبلغه التفصيل لا يكفر حتى يبلغه عن الرسول ما يكفر منكره، وإنما الخلاف السائغ في المسألة هو في تحقيق المناط أي في حق الشخص المعين أو الطائفة المعينة في مسألة معينة هل قد قامت الحجة عليهم فيها أم لا؟

وهل انتشر العلم بها بحيث لا تقبل دعوى الجهل أم لا؟ وكذا لا يختلف أهل السنة أن الجهل الناشئ عن الإعراض وجهل العاقبة لا يكون عذرًا لصاحبه.

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾ (الملك: ٨-٩). فأخبر أنه كلما ألقى في النار فوج أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه؛ فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها إلا من كذب النذير. وقال الله تعالى في خطابه لإبليس: ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص: ٨٥).

فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه، وإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم؛ فعلم أنه لا يدخل النار إلا من اتبع الشيطان، وهذا يدل على أنه لا يدخلها من لا ذنب له، فإنه ممن لم يتبع الشيطان ولم يكن مذنبًا، وما تقدم يدل على أنه لا يدخل النار إلا من قامت عليه الحجة بالرسل.

فصل
فيه تتميم لمعنى ما تقدم

ومن الناس من يؤمن بالرسل إيمانًا عامًا مجملاً، وأما الإيمان المفصل؛ فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل فآمن به إيمانًا مفصلاً ولم يبلغه بعض ذلك؛ فيؤمن بما بلغه عن الرسل، وما لم يبلغه لم يعرفه، ولو بلغه لآمن به، لكن آمن بما جاءت به الرسل إيمانًا مجملاً[(١)]، فهذا إذا عمل بما علم أن الله أمره به مع إيمانه وتقواه؛ فهو من أولياء الله تعالى، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه، وما لم تقم عليه الحجة به؛ فإن الله تعالى لم يكلفه معرفته، ولا الإيمان المفصل به؛ فلا يعذبه على تركه، لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك، فمن علم بما جاء به الرسول وآمن به إيمانًا مفصلاً وعمل به فهو أكمل إيمانًا وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلاً ولم يعمل به .. وكلاهما ولي لله تعالى.

---

(١) قوله «إيمانًا مجملاً»: أي يقول إن كل ما جاءت به الرسل هو مصدق به، ولكن ما هو؟ فهو لا يعرفه كله، بل يعرف بعضه ويجهل بعضه، والشرط في ذلك أن لا =

. . . .

= يكون مقصراً في طلب العلم، ولو قصر يكون آثمًا، لكن عنده الإيمان المجمل وهو أن الرسول ﷺ صادق فيما يخبر به، ويجب اتباعه فيما أمر به، وهذا هو أصل الإيمان، فإذا عرف التفصيل ازداد إيمانه، وهذه القضية التي قصرت عنها عقول المبتدعة من الخوارج والمعتزلة، وجماعات التكفير، والتوقف، ممن رأى وجوب الإيمان بتفاصيل معينة وقامت الأدلة عنده على ذلك، وقد يكون حقًا أن هذه التفاصيل واجبة مثل تفاصيل الإيمان بالله؛ وتوحيده، والملائكة، والكتب، والرسل، والقدر خيره وشره، واليوم الآخر، لكنه جهل أن الإيمان المجمل يوجد به أصل الإيمان، ولا يلزم التفصيل لحصول الإيمان المجمل، وكونه يلزمه معرفة تفصيل معين يأثم إذا قصر في طلبه، ويكفر إذا جحده أو أباه بعد بلوغ الحجة له، لا يعني أنه يشترط معرفة هذا التفصيل في حصول أصل الإيمان، بل إذا بلغه أمر صار في حقه لازمًا، بحيث إذا كذب شيئًا بعد أن بلغه أن الرسول جاء به كفر، وليس لهذا حد معين، بمعنى لا تقول إن هذا الجزء من التفصيل هو الذي يتم به أصل الإيمان وما بعد ذلك هو من كمال الإيمان، بل إن كل ما جاء به الرسول ﷺ يلزم كل مؤمن إذا بلغه أن يصدقه وأن يعتقد لزومه له ثم العمل به، وأهل البدع عندما خالفوا في هذه القضية اختلفوا وتناقضوا فنجدهم يشترطون بعض الأشياء ولا يشترطون البعض الآخر، مع أن الدليل على وجوب الأمرين واحد، وهذا أصل ضلالهم في قضايا الإيمان والكفر، وهو الذي جعلهم يقولون بأن الإيمان المجمل لا يكفي في حصول أصل الإيمان.

فالقاعدة: أنه طالما لم يبلغه شيء لم تقم عليه الحجة، ويلزمه أن يتعلم أصول الإسلام والإيمان والإحسان الواجب، فإذا لم تبلغه فالإيمان المجمل باقٍ معه إلى أن تبلغه.

مثال: هو مؤمن إيمان مجملاً، لكنه لا يصلي، لكونه لم تبلغه الصلاة، فإذا بلغته الصلاة أصبحت فرضًا عليه، فإذا أقر بوجوبها باطنًا لكنه لم يصل بعد ذلك فهذا فيه =

= خلاف مشهور بين العلماء في تكفير من تركها تكاسلاً، وما عدا الأركان الأربعة، فأهل السنة متفقون على أنه لو ترك عمل شيء من الواجب لم يخرج من الملة مادام قد صدّق، وانقاد بقلبه ولسانه، وقد يكون وليًا لله - عَزَّ وجَلَّ - وهو يجهل بعض ما جاء به الرسول ﷺ، ولم يقصر في طلب العلم، ولم تقم عليه الحجة به، مهما كانت المسألة من مسائل الدين في العقيدة أو العمل، فأهل البدع حينما حددوا مسائل معينة قالوا: بدونها لا يكون مسلمًا ابتداءً، ولا مؤمنًا عنده أصل إيمان، ولا يكون وليًا لله - عَزَّ وجَلَّ -، وهذه هي البدعة، مثال: بعض جماعات التوقف والتبين يشترط ثلاث مسائل: النسك والولاية والحكم، فتقول لماذا لم يشترط باقي أصول الإيمان؟ لماذا لا تقف عند الحدود التي وقف عليها الرسول ﷺ؟ وهذه الثلاثة فيهم إجمال وتفصيل أيضًا، فالنسك: يشمل عبادات كثيرة فهو يشمل الركوع والسجود وباقي أركان الصلاة والصيام والنذر والذبح والخوف والحب والرجاء والطواف .. كل هذا داخل في النسك، ويمكن تقسيمها تقسيمات أخرى مثل أن نقول إن النسك عبادات ظاهرة بالقول والعمل، ويمكن وضع عبادات القلب كقسم مستقل مادام التقسيم ليس شرعيًا، إذ الأمر فيه سعة في الاصطلاح، كذلك الولاية فيها إجمال وتفصيل فيها متابعة وحب ونصرة وطاعة ومعاونة وصداقة، كل هذا من معاني الموالاة، فأنت تشترط تفصيل كل أمر أم تشترط الإجمال، فإذا اشترطت الإجمال إذًا فلماذا لم تقبل الإجمال فيما هو أعم من هذا، ولماذا هذا التفصيل؟ هل الرسول حدد هذه الثلاثة؟ سيقول: إن الرسول بينها، فنقول: وأيضًا بين غيرها مثل الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، فلماذا لا تشترطهم؟

مثال: قضية امتحان الناس في الأسماء والصفات: هل يقول أؤمن بأسماء الله وصفاته فقط، أم لابد أن يبين أن أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون، ويبين صفات الله - عَزَّ وجَلَّ - الواردة في السنة، وكذلك الإيمان بالرسل فيه إجمال وتفصيل، =

= فيجب الإيمان بكل رسل الله، لكنَّنا لا نعرف منهم إلا ٢٥ رسولاً بأسمائهم، وهناك أنبياء لا نعرفهم، وأنبياء نعرف قصتهم ولا نعرف أسماءهم مثل اسم النبي الذي أُرْسل طالوت ملكًا في قومه: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤١)، وقال تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء: ١٦٤).

وكذلك الملائكة، منهم من يُعرف اسمه ولهم أعمال معروفة، وهناك من لا يعرفون: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر: ٣١). فإذا كذب أحد بجبريل بعد بلاغه إليه فهو كافر بالقرآن، وكذلك القرآن: فيه إجمال وتفصيل، هل يشترط للمؤمن أن نوقفه عند كل آية ونقول له: أقر بأن هذه آية؟ لا، بل يكفيه الإيمان مجملاً بأن القرآن كلام الله، بل يمكن أن يشهد أن محمدًا رسول الله ولم يعرف بَعدُ بالقرآن، فأول ما نطق الشهادة ثبت له حكم الإسلام، ثم بعد ذلك يُقال له: إن الرسول ﷺ جاء بالقرآن ويبدأ في تعلمه، وإلا فإنه يوجد من لم يعرف ما الذي في القرآن، ويسلم على ذلك، وبالتالي لم يعرف ما تتضمنه الآيات من عقائد وأحكام، وآيات القرآن هي الحجة والدليل: وهو لم يعرف الدليل نفسه، فضلاً عما يتضمنه الدليل، فإذا كان ثبت إيمانه بدون معرفة الدليل نفسه، فلابد أن يثبت إيمانه ولو لم يعرف ما يدل عليه الدليل أو مضمونه.

مسألة شروط (لا إله إلا الله):

هي من أعمال القلوب، وهي غير محدودة في سبعة، إذا حددها في سبعة واعتبرها تقسيمًا شرعيًا لا يجوز الزيادة عليه ولا النقصان؛ تكون بدعة. إذ في الحقيقة كل أعمال القلوب شرط في صحة (لا إله إلا الله) عند الله يوم القيامة، ولن نستطيع أن نمتحن فيها الناس، ونقول لشخص أتشك فيها أم توقن، أتعلم تفاصيل معناها =

= أم لا؟ أتصدق بها بقلبك أم لا يوافق قلبك لسانك؟، بل كل هذه عبادات قلبية نأمره بها، ونعلمه أن بدونها لا يوجد إيمان إذا لم تحب الله ولم تخف من الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥). وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١). فنعلمه وجوب ذلك، ولكن لا نتعامل معه في الدنيا إلا بما ظهر، لكن إذا قال: لا أحب الله فهو كافر؛ لأنه أظهر انتفاء عمل القلب، إذاً فالشروط ليست سبعة فقط، بل كل عبادات القلب شروط، ومن ذكرها من العلماء فهو من باب تعليم الناس وبيان أهميتها ولا يقصد الحصر. مثال: الخوف من الله من شروط لا إله إلا الله، فإذا قال شخص: أنا لا أخاف من الله، لا يكون مؤمنًا، كذلك إذا يئس من رحمة الله، أو قال: أنا لا أشكر الله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: ٧٨) أصبح كافرًا، وهذه الشروط تزيد وتنقص، فلا فائدة أن تقتصر على سبعة شروط، إذ الرسول ﷺ لم يحدها بهذا، بل يمكن أن نجعلهم واحداً فقط ويتفرع منه الباقي، مثل المحبة، ويتفرع عنها الانقياد، والانقياد يتفرع عنه الصدق والإخلاص، وهكذا.

والمسلمون يعلمون مقتضاها على الإجمال، ولا يعلمه كثير منهم على التفصيل، بل إن بعض الكفار كان يعلم معناها تفصيلاً، فأبو طالب كان يعلم أن معناها أنه لا يعبد غير الله ولا إله غيره، كذلك اليوم الناس تعرف هذا، لكن يمكن أن لا يعلموا أنهم عندما يتحاكمون إلى قانون يخالف الشريعة أن هذه عبادة للطاغوت، أو أنه عندما يذهب إلى القبر ويقول: أغثني يا فلان، أو ينذر له أنه بذلك جعله إلهًا، مع أنه يقول إنه ليس كذلك، إذاً فهو لا يعلم هذا التفصيل، وأن هذه مناقضة لـ(لا إله إلا الله) في التفصيل، لكن إجمالاً هو يقول: لا إله إلا الله، فإذا قلت له: إنك تعبد غير الله، يقول لك: أعوذ بالله، وإذا سألته: هل توجد آلهة غير الله تستحق العبادة؟ يقول: لا. =

....

= لذلك نقول: إن الذي يقول إن هنـاك آلهة غير الله تصح عبـادتها من أحد يكون خارجًا من الملة ابتداءً ولا يتصور الجهل بذلك.

مثال: كونه يقول: لا إله إلا الله، ثم يرجع ويقول: إن المسيح إله، أو يُجَوِّز قول من يقـول إنه إله أيضًا، فهـذا لم يقل: لا إله إلا الله ولم يعـتقدها؛ لأنه يـصرح بأن هناك آلهة من دون الله، ويقول: إنها حق، فهذا قالهـا ثم نقضها عندما صحح أُلوهية غير الله، أمـا من قال: الذبح ليس عبادة فهذا لابـد أن يبين له أولاً حتى يثبت بذلك قيام الحجة أنه ناقض لا إله إلا الله، وهذه هي النقطة التي حدث بسببها خلل كبير في فهم كلام الشيخ مـحمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ حـتى قال بعضهم: إن (لا إله إلا الله) في زماننـا لا يثبت بها الإسـلام؛ لأن الناس لا تعرف مـعناها، وذلك لأنهم جهـلوا بعض التفـصيل، ومن انحـرف في هذا الباب قـد أتي من عدم الـتفرقـة بين الإجمال والتفصيل، وعدم التفرقة بين من جهل بعض أنواع العبادات فصرفها لغير الله لا يريد بذلك عبادته وبين من صرح بأنه يعبد غير الله، فالأول يحتاج إلى إقامة الحجة فإذا أصر بعـد قيام الحجـة كفر؛ لأنه نقض (لا إله إلا الله)، أما من يصـرح بأنه يعبد غيـر الله كأبي جهل وأبي طالب، الذين يعلمـون أن مقصد رسـول الله بقوله للرجل قل: (لا إله إلا الله) أنه يعني أن يرغب عن ملة عبد المطلب، وكل ملة سوى الإسلام وأن يترك عبادة غير الله، فهؤلاء الحجة قائمة عليهم ببلوغ دعوة الرسول إلى كلمة (لا إله إلا الله) إجمالاً؛ لأنهم نقضوها إجـمالاً من الأصل، وإذا قال: أنا أعبد البدوي، أو أعبد الحكام خرج من الملة ونقض لا إله إلا الله، ولا يوجد مسلم يجهل مسألة عبادة غير الله إجمـالاً، وإذا كان جاهلاً بهـا فهو لم يـقل: لا إله إلا الله، بل كانت مجـرد حروف أجنبـيـة يرددها رتبـوها له، ولم يدخل في الـدين، ولا يعلم أن الرسل جـاءت بأن لا =

. . . .

= يعبد إلا الله، وإذا كان جـاهلاً بهذا فهو كافر جـاهل، نبلغه دعوة الرسل، وأنه لا يعبـد إلا الله. فإذا قال أنا مقر بـأنه لا يعبد إلا الله، ثم بعد ذلك يناقش في مـا فعله عند القبر أو في المحكمة أو في حب الكفرة أو في الاحـتفال بأعيادهم هل هي موالاة وعبادة أم لا؟ نكون قد دخلنا فـي التفصيل، فلابد أن نفرق بين التفـصيل والإجمال، فالإجمال هوالذي يثبت به أصل الدين، لذلك يقول المصنف: «أصل الإيمان والتقوى: الإيمان برسل الله، وجماع ذلك الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ».

مثال: إذا قيل: إن الذي جاء للرسول ﷺ بالكتاب هو ملك يُسمى جبريل، فقال: لا، فنبين له الأدلة من القـرآن، مثل قولـه تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (النحل:١٠٢). فإذا قال: لا أصدق، خرج من الملة، حتى ولو قال: محمد رسول الله.

مـثـال في المواريث: من يقول: لماذا لـلذكر مثل حظ الانثـيين؟ هذا ظلم؟ يجب أن يكون للذكر مثل ما للأنثى، نقول له: قال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء:١١). فإذا قال: لا، وأصـر، فهو كافـر خارج من الملة، مع أنه يقول: لا إله إلا الله مـحمد رسول الله، ويقول: القرآن حق، لكن إذا بلغ التفصيل فـقد أقيمت عليه الحجة، كذلك من يقول على أحكام القطع والرجم وحـشية وتخلف، وأقيم عليه الدليل، وأصـر فهو خارج من الملة مـرتد، وبالتالي لا يشترط تفـصيل معين نقف عنده ونقول لـو أقر بهذا التفصيل يكون مـسلمًا، وإن لم يقر فهو كافر، بل كل تفـصيل حتى ولو كان في أدنى مسألة عملية، وعرف أن القرآن جاء بها والرسول ﷺ، ثم بعد ذلك قال: لا، وأصر على موقفـه كفر بذلك. مثل السـواك نوضح له الحديث كي يعلم ونقيم عليـه الحجة، ومثل اللحـية كذلك، معظم الناس اليـوم الذين يقولون: إن اللحية ليـست فرضًا، ولا يعـرفـون أدلة ذلك، فـهي ليـست مـعـروفـة من الدين بالضـرورة في حـقـهم، =

....

= فهذا لا نستطيع أن نقول عنه: إنَّه خارج من الملة قطعًا ويقينًا؛ لأن هذا الأمر لم ينتشر ولم يعلم، ولم يأت في القرآن صراحة بحيث نقول: هذا مكذب للقرآن، والحديث إذا وصله فيقول بجهله يوجد أحاديث ضعيفة في البخاري ومسلم، ولا يقول أن الرسول أخطأ أو كذب، ولاشك أنه مخطئ حين يقول إن البخاري ومسلما فيهما ضعيف، ومع ذلك هناك فرق بين أن يكذب القرآن، وأن يكذب الحديث؛ لأن الحديث ليس كله متواترًا، لكن إذا كذب بالصلاة، ورمضان، والحج، والكعبة، فهذه أشياء متواترة، فإذا كذب بها أو أباها فهو كافر، ولذلك نقول: إن الذين يقولون بتوزيع الحج علي السنة بأن يحج الناس في صفر مثلاً من أجل الزحام، فهذا خروج من الملة؛ لأن هذا من المعلوم من الدين بالضرورة، فالكل يعلم أن المسلمين يحجون في ذي الحجة، فعندما يُجَوِّز الحج في غير ذي الحجة فهذا مثل التكذيب بالقرآن؛ لأنه متواتر.

كذلك من يقول: إن الحج عبادات وثنية، وكيف يطوف الناس بالأحجار، فالكل يعلم أن الحجر الأسود يقبل، والجمرة ترجم، وهذه أشياء متواترة، وقد لا يعلمها الناس من القرآن، ولكنها متواترة فعلاً، تنقل من جيل إلى جيل، مثل القرآن بالضبط، فمن يكذب بمثل هذا يكون خارجًا من الملة.

فائدة: معنى كلمة المعلوم من الدين بالضرورة:

معناها: أن ينتشر الأمر حتى يعلمه العالم والجاهل، والخاص والعام، دون احتياج لبحث عن دليل.

فائدة: حكم تهنئة الكفار بأعيادهم:

التهنئة من لوازمها الإقرار، ولكن لازم المذهب ليس بلازم على الدوام، بمعنى إذا قلت له أنت يلزم من تهنئتك أو كلامك هذا أنك تصحح عقيدتهم، يقول: لا، =

= لا ألتـزم بهذا الـكلام، وهذا هو الحادث عند آلاف المـسلمين، فهـو لم يلتـزم هذا اللازم، أن التهنئة يلزم منها إقراره بصحة هذه العقـيدة الفاسدة، فإذا التزمها خرج عن الملة، لكنه يقول: هذا من باب المجـاملة، ولا يلتزم لوازمهـا، وأحيانًا بعضـهم يلتزم لوازمهـا ويصحح عقائد الكفـار، ويصحح أن المسيح صلب، وأنه قـام من الأموات، فهذا خـرج من الملة، وعندما يستـوعب الشخص لوازمها يعلم لماذا قـال العلماء: من أهدى إليهم زهرة في عيـدهم فقد كفـر، فشخص يقول إن الله قد مـات، فهذا يسب الله، وأنت تفرح وتهنئه، فهذا شر من التهنئة بالزنا، وشرب الخمر.

فائدة: هل الاحتفال أشد أم التهنئة؟

التهنئـة أشد من جهة أنـها تستلزم التصـحيح، أو الإقرار بهـذه العقيدة الفـاسدة، والاحتفال يمكن أن يكون مجرد لعب، ولهو، وليس مستحضرًا فيه ما في هذه الناسبة.

مثال: الاحتفال بشم النسيم، السبب في الاحتفال بهذا اليوم غير معروف بالضبط ما هو، هل هو عيد النيروز عند الفـرس، أم يوم الزينة عند الفراعنة، أم عيد الربيع، أم مرتبط بعيد القيامة عند النصـارى، أم غير ذلك، مات السبب وظل اللعب واللهو، فالأمـر عند الناس مجرد لهو ولعب، لا يلـتزمون اللوازم الكفرية، وإن كـان ارتباطه ظاهرًا بعقيدة النصارى ارتباطًا مباشرًا، إذ هو اليوم التالي مباشرة لعيد القيامة عندهم.

فائدة: هل يعذر اليهود والنصارى وسائر المشركين؟

هؤلاء الكفار بلغهم خبر الرسـول ﷺ فلم يؤمنوا به فلا يعذرون بالإجماع، إذ وصلتهم (لا إله إلا الله محـمد رسول الله) فكذبوها إجمالاً، وكذبوا القـرآن إجمالاً، فهم كفار بالإجماع، وأما عوام المسلمين فقـد صدقوا بالتوحيد والرسول إجمالاً، ولم يعلموا التـفصـيل، فلا يمكن أن نسـوي بين الفريقين، فعوام الكفـار وجدوا آباءهم =

أهل الجنة في الدرجات

والجنة درجات متفاضلة تفاضلاً عظيمًا، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء:١٨-٢١)[(١)].

فبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ: أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه، وأن عطاءه ما كان محظورًا عن بر ولا فاجر. ثم قال الله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء:٢١).

فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا، وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا، وقد بَيَّن تفاضل أنبيائه ـ عليهم السلام ـ كتفاضل سائر عباده المؤمنين، فقال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (البقرة:٢٥٣). فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (الإسراء:٥٥). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قَالَ:

= مكذبين بالحق فاتبعوهم على ذلك، وأهل الإيمان اتبعوا آباءهم على الحق الموافق للفطرة والأدلة السمعية والعقلية، فالتسوية بينهم ظلم وإهدار لأعظم كلمة جاءت بها الرسل (لا إله إلا الله)، وإهدار للشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ.

(١) قوله ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾: دليل على أن عطاءه لكل خلقه، كل مَنْ خلقه تعالى يرزقه، ليس ممنوعًا من بر ولا فاجر، بل يعطي منه المؤمن والكافر.

«المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ[(١)] مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، لَكَانَ كَذَا وكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[(١)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ وعمرو بن العاص ﵄، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ؛ فَلَهُ أَجْرٌ»[(٢)][(٢)].

وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٩٥-٩٦).

وقال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الحديد: ١٠).

وقال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) قوله «وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ»: فيه الدليل على أن هناك مؤمنًا حبيبًا إلى الله، ومؤمنًا هو أحب إليه من هذا المؤمن، فهناك تفاضل في الدرجات والولاية.

(٢) فهو دليل على تفاوت الأجور وتفاوت الاجتهاد، وأنه ليس كل مجتهد مصيبًا.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد (٢/ ٣٧٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التوبة: ١٩-٢٢)[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩). وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١).

فصل
في أن التقوى شرط لنيل الولاية

وإذا كان العبد لا يكون وليًا لله إلا إذا كان مؤمنًا تقيًا، لقوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦٢-٦٣).

---

(١) قوله ﴿لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾: دليل على تفاضل أهل ولاية الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، ونزلت هذه الآية كما ورد في صحيح مسلم في أهل الإسلام الذين يسقون الحاج، ويعمرون المسجد الحرام، ومع ذلك جعل الله ظالمًا من سوى بين هذا وبين الإيمان والجهاد في سبيل الله، حتى لو وقع هذا العمل من مسلم، فإن الجهاد أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، ولاشك أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام عمل صالح، وهو من أعمال أولياء الله الصالحين، لكن أفضل منه وأكمل الجهاد في سبيل الله. والجهاد مراتب وأنواع: كجهاد النفس والشيطان والكفار والمنافقين بالقلب واللسان والمال واليد، ومنه تحديث النفس بالغزو، كما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**» رواه مسلم.

وفي صحيح البخاري: الحديث المشهور ـ وقد تقدم ـ يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ فيه: «وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»[(١)]. ولا يكون مؤمنًا تقيًا حتى يتقرب إلى الله بالفرائض، فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب إليه بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين؛ فمعلوم أن أحدًا من الكفار والمنافقين لا يكون وليًا لله.

من رُفع عنه القلم والولاية

وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قُدِّر أنه لا إثم عليه؛ مثل: أطفال الكفار، ومن لم تبلغه الدعوة ونحوهم[(١)]، وإن قيل" إنهم لا يعذبون حتى يرسل الله إليهم رسلاً[(٢)]، فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين.

فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات؛ لم يكن من أولياء الله، وكذلك المجانين والأطفال[(٣)]؛ فإن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمَ عَنْ ثَلاثَةٍ؛ عَنْ

---

(١) رغم أنهم لا إثم عليهم، ومَن لم تبلغهم الدعوة غير معذبين إلى أن يمتحنوا، ومع ذلك فليس عندهم إيمان، ولا يقال إنهم من أولياء الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ.

(٢) هذا صحيح ثابت فيمن لم تبلغه الدعوة يوم القيامة يرسل الله إليهم رسولاً يأمرهم بدخول النار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها سحب إليها؛ كما في الحديث: **«أربعة يحتجون يوم القيامة»**. أما أطفال الكفار، فالصحيح أنهم مع إبراهيم عليه السلام كما دل عليه حديث البخاري عن سمرة رضي الله عنه.

(٣) ويمكن أن يقال في المجنون والطفل المسلمين إن فيهم نوع ولاية لله؛ لأنهما محكوم بإيمانهما في الدنيا والآخرة على الفطرة السليمة، ومحكوم بإيمانهما ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه (ص١٩).

المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنْ الصَّبيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ»[١] . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة ﭫ. واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول. لكن الصبي المميز تصح عبادته ويثاب عليها عند جمهور العلماء[١] .

وأما المجنون[٢] الذي رفع عنه القلم؛ فلا يصح شيء من عبادته باتفاق العلماء، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات، بل لا يصح عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة؛ فلا يصلح أن يكون بزازًا[٣] ولا عطارًا ولا حدادًا ولا تاجرًا، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء؛ فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته، ولا غير ذلك من أقواله، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق

---

(١) الصبي بعد سبع سنين تصح صلاته، فهو يؤمر بها ويثاب عليها أيضًا، كما قال رسول الله ﷺ : «**مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ**»[٢] .

(٢) يقصد أن المجنون الكافر لا يصح إيمانه، حتى إذا نطق الشهادة لا يعامل كمسلم؛ لأنه في الأحكام الظاهرة مازال كافرًا، فلابد أن ينطق مع وجود العقل، فإذا نطق الشهادة ثم رجع لا يكون مرتدًا؛ لأنه كان كافرًا ولم يزل، وكذلك المجنون المسلم، إذا كفر فلا يحكم بكفره، ولا يصح منه كفر، ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات، وإن كنا نحكم بإسلامه ظاهرًا وباطنًا باعتبار ولادته على الفطرة وبقائه عليها.

(٣) البَزُّ: هو المتاع. والبَزَّازُ: التاجر الذي يبيع المتاع.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٤٠٠)، والترمذي (١٤٢٣)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «إرواء الغليل» رقم (٢٩٧). .

(٢) رواه أبو داود (٤٩٥)، وقال الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ: حسن صحيح.

بها حكم شرعي، ولا ثواب ولا عقاب، بخلاف الصبي المميز[١]؛ فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع بالنص والإجماع، وفي مواضع فيها نزاع. وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان[٢] ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل؛ وامتنع أن يكون وليًا لله؛ فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله، لاسيما أن تكون حجته على ذلك: إما مكاشفة

---

(١) الصبي المميز إذا أسلم صحَّ إسلامه على الصحيح، وإن كفر لا يصح كفره، مثال: صبي بلغ عشر سنوات، نطق الشهادتين، فقد أصبح مسلمًا، فإذا كفر لم يصح كفره حتى بلوغه، فإذا أراد حينئذ أن يختار الدين الذي كان عليه، جُعل مرتدًا، وهذه الجملة ذكرها شيخ الإسلام؛ لأن كثيرًا من الصوفية يجعلون الجنون من علامة الولاية ويُسمونه مجذوبًا لا مجنونًا، ويعنون أن الله قد جذبه إليه حتى ذهب عقله الذي يتعامل به مع الناس، فأراد شيخ الإسلام أن يبين أن الجنون نقْص وليس ولاية، وأن أقصى أحواله أن يكون معذورًا لا وليًا من أولياء الله، وإن كان في إطلاق الكلام نظر، وذلك أنه في بعض الأحيان تستصحب الولاية السابقة كمسلم كان يؤدي العبادات وكان على الإيمان والعمل الصالح فأصابه مرض فجن أو ذهب عقله فصار غير مكلف، لكن صحت عبادته السابقة وبقي معه حكم الإيمان مستصحبًا، فلا يمتنع أن يكون حكم الولاية السابق على الجنون مستصحبًا بعد الجنون، وسيأتي من كلام شيخ الإسلام ما يوضح هذا القيد.

(٢) المجنون الذي لا يصح منه الإيمان هو المجنون الكافر، أما المجنون المسلم فحكم الإسلام مستصحب ظاهرًا وباطنًا، وكذلك من ولد مسلمًا وجن قبل البلوغ كالأطفال المتخلفين عقليًا، فهؤلاء إذا بلغوا فحكم الإسلام والإيمان مستصحب لهم ظاهرًا وباطنًا، وهم على الفطرة والميثاق الأول، وبالتالي فهم داخلون في عموم الولاية.

سمعها منه، أو نوع من تصرف؛ مثل: أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع(١)؛ فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات شيطانية(٢) وتصرفات شيطانية، كما للكهان والسحرة والمشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليًا لله، وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله.

فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله؟! مثل: أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا، بل لا يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقًا إلى الله غير طريق الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق(٣)، أو هم قدوة العامة دون الخاصة، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية، فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان فضلاً عن ولاية الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم؛ كان أضل من اليهود والنصارى.

وكذلك المجنون؛ فإن كونه مجنونًا يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي شرط في ولاية الله، ومن كان يجن أحيانًا ويفيق أحيانًا إذا كان في حال إفاقته مؤمنًا

---

(١) **مثال:** أن يشير المجنون إلى شخص فيموت، أو يصيبه صرع فيقال إن هذا المجنون من أولياء الله.

(٢) يعني: أن خوارق العادات من مكاشفات وتأثيرات ليست وحدها دليلاً على الولاية، إذ قد تحدث من كافر ومنافق، بل لابد أن يكون حال الإنسان الذي وقعت منه المكاشفات أو التأثيرات موافقًا للسنة حتى يحكم بأنها كرامة وأنه ولي.

(٣) أي أن الأنبياء حددوا الطريق في الشرع، والطريق إلى الله عندهم واسع لمن يحب أن يختار أي دين، ولا يلزم اتباع شرع محمد ﷺ؛ فهذا كفر، أو هم قدوة العامة دون الخاصة: أي أن الأنبياء للعوام، وأما هم الخواص فلا يقتدون بهم، وهذا أيضًا كفر.

بالله ورسوله، ويؤدي الفرائض ويجتنب المحارم؛ فهذا إذا جن لم يكن جنونه مانعًا من أن يُثيبه الله تعالى على إيمانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك، وكذلك من طرأ عليه الجنون[١] بعد إيمانه وتقواه؛ فإن الله يُثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلي به من غير ذنب فعله، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه.

وعلى هذا .. فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم، بل قد يأتي بما يناقض ذلك؛ لم يكن لأحد أن يقول: إن هذا ولي الله.

فإن هذا لم يكن مجنونًا، بل كان متوليها[٢] من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ويفيق أخرى، وهو لا يقوم بالفرائض، بل يعتقد أنه لا يجب اتباع الرسول ﷺ؛ فهو كافر، «ومن اعتقد هذا ولي لله؛ فهو كافر - أيضًا -»، وإن كان مجنونًا باطنًا وظاهرًا قد رفع الله عنه القلم؛ فهذا وإن لم يكن معاقبًا عقوبة الكافرين؛ فليس هو مستحقًا لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله - عَزَّ وجَلَّ -.

فلا يجوز على التقديرين: أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله، ولكنه إن كان حال إفاقته كان فيها مؤمنًا بالله متقيًا؛ كان له من ولاية الله بحسب ذلك، وإن كان في حال إفاقته فيه كفر ونفاق، أو كان كافرًا أو منافقًا، ثم طرأ عليه الجنون؛ فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يُعَاقب عليه، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر ونفاق.

---

(١) قوله «طرأ عليه الجنون»: مثل الذي كبر ثم أصابه الجنون، وكان في صغره مؤمنًا تقيًا.

(٢) التولة: المحبة والميل إلى شيء معين، يتعبد بهذه الطريقة المنحرفة.

فصل

في أن أولياء الله لا يتميزون بالأمور المباحة الظاهرة عن باقي الناس

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات؛ فلا يتميزون بلباس[(١)] دون لباس إذا كان كلاهما مباحًا، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره إذا كان مباحًا، كما قيل: كم من صِدِيق في قباء[(٢)]، وكم من زِنديق في عباء[(٣)]. بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ[(٤)] إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور[(٥)]، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف،

---

(١) قوله «لا يتميزون بلباس»: مثل الصوف، أو الثياب الخشنة، أو الخرق حتى يصير شعاراً لهم، ومن المشهور خرقة الصوفية، ثوب مقطع مرقع، علامة التصوف والزهد.

(٢) القباء: الجبة، وهي من لبس الأغنياء.

(٣) العباء: الثياب الخشنة التي يعتاد لبسها الفقراء، فالأمر ليس بالملبس، فكم من مرتدٍ ملابس نظيفة وهو صِدِّيق، وكم من مرتدٍ لملابس خشنة هو زِنْدِيق.

(٤) قد يكون فقيراً ومن أولياء الله، أو غنيًا من أولياء الله، والعكس ومنهم أيضًا العلماء، والمجاهدون الزهاد، والعباد الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر.

(٥) ما يمنع الولاية أمران:

١ ـ الاعتقاد الفاسد.　　　　٢ ـ الفجور والمعاصي.

ـ فلا يُقال: إن هذا من علماء المسلمين، أو أئمتهم، أو أفاضلهم، وفيه بدعة ظاهرة مثل أن يكون من المعتزلة، أو الخوارج أو الجهمية، أو الرافضة، يسب أصحاب النبي ﷺ ويلعنهم، وكذلك لا يكون وليًا لله من يكون سلوكه فيه فجور، وفواحش، ومعاصٍ، مثل: شرب الخمر أو المخدرات أو يسرق أو يزني، فلا يُقال: إن هذا من أولياء الله.

ويوجدون في التجار والصناع والزراع[(١)]، وقد ذكر الله تعالى أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المزمل: ٢٠).

لفظ الصوفية ومعناه

وكان السلف يُسمون أهل الدين والعلم: القراء[(٢)]؛ فيدخل فيهم: العلماء والنساك[(٣)]، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء[(٤)]. واسم الصوفية: هو نسبة

---

(١) فالعمل في المهن المختلفة طالما كانت مباحة لا يمنع الولاية.

(٢) القراء: هم الحافظون لكتاب الله، وكان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه شيوخهم، وشبابهم.

(٣) النُّساك: المتعبدون.

(٤) الفقراء: يقصدون بها الفقير إلى الله، ولاشك أن الفقير إلى الله أنسب وأقرب من لفظ الصوفي، إذ هو لفظ مُبْتَدَع على أي وجه كان اشتقاقه من الصوف وهو الأظهر أو من كلمة (صوفيا) أي الحكمة باليونانية، وأما زعمهم أنه مشتق من الصفاء فهو غير صحيح؛ لأن النسب إليه (صفائيّ أو صفاويّ)، وكذا لا يصح أنَّه مشتق من الصفوة إذ النسب إليه (صفْويّ)، وكذا لا يصح الاشتقاق من أهل الصفة إذ النسب منها (صُفّيّ)، فالصحيح أنه مشتق من الصوف، إذ كان الصوفية قديمًا يلتزمون لبس الصوف حتى في شدة الحر لخشونته تأديبًا للنفس، وهذا من البدع إذ التزام زي معين ولباس معين ليس له فضيلة في الشرع حتى يصير شعارًا لطائفة معينة نوع تشريع، ولذا كان بدعة لا تجوز.

إلى لباس الصوف، هذا هو الصحيح. وقيل: إنه نسبة إلى صوفة القفا، وقيل أنه نسبة إلى: صوفة بن مر بن أدّ بن طانِجَة، قبيلة من العرب كانوا يُعرفون بالنساك، وقيل: إلى أهل الصفة، وقيل إلى: الصفاء، وقيل: إلى الصفوة، وقيل: إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى[(١)]، وهذه أقوال ضعيفة؛ فإنه لو كان كذلك لقيل: صفاء، أو صفائي، أو صفوي، أو صُفِّي، ولم يقل: صوفي وصار أيضًا اسم الفقراء؛ يعني به أهل السلوك، وهذا عرف حادث. وقد تنازع الناس أيهما أفضل: مُسمى الصوفي، أو مُسمى الفقير[(٢)]. وتنازعوا أيضًا أيهما أفضل: الغني الشاكر أو الفقير الصابر؟ وهذه مسألة فيها نزاع[(٣)] قديم

---

(١) ***فائدة: الصوفية مرت بمرحلتين:***

المرحلة الأولى ـ مرحلة الغلو في بعض العبادات من بعض الزهاد، والخروج عن طريقة السلف وهديهم، والتزام أوراد معينة، وعدد صلوات معينة، واختراع طرق في التعبد، ولم يكن عندهم في الجملة فساد اعتقادي.

المرحلة الثانية ـ وهي الأخطر، مرحلة الاختلاط مع الثقافات الدخيلة على الإسلام بعد ظهور الباطنية، ودخول الفلسفات الأجنبية على المجتمعات المسلمة كاليونانية والهندية، فظهرت الصوفية الفلسفية، وقالوا بوحدة الوجود، وكان هذا في المائة الثالثة والمائة الرابعة، والصحيح أن الكلمة ظهرت قبل هذا العهد.

(٢) لاشك أن مُسمى الفقير أفضل؛ لأنها وردت في الكتاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥). أما كلمة صوفي فلم ترد في كتاب ولا سنة.

(٣) النزاع هنا ليس في اللفظ كما في الصوفي والفقير، بل أي الحالين أفضل؟ أن يكون الإنسان غنيًا شاكرًا أم فقيرًا صابرًا؟ والصحيح أنه حسب أحوال القلب، ودرجات العبادة، وحقيقة الإيمان في القلب مع الغنى والفقر.

بين الجنيد، وبين أبي العباس بن عطاء، وقد رُوي عن أحمد بن حنبل فيها روايتان، والصواب في هذا كله ما قاله الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)(١).

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سُئل: أي الناس أفضل؟ قال: «أَتْقَاهُمْ»، قيل له: ليس عن هذا نسألك، فقال: «يُوسُفُ نَبِيَ الله ابْن يَعْقُوب نَبِيَ الله ابْن إِسْحَاق نَبِيِ الله ابْن إِبْرَاهِيم خَلِيل الله»(٢). فقيل له: ليس عن هذا نسألك، قال: «أَفَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ(٣) تَسْأَلُونَنِي؟ النَّاسُ مَعَادِن كَمَعَادِنِ الذَّهَب والفِضَة، خِيَارُهم فِي

---

(١) قوله ﴿أَتْقَاكُمْ﴾: دليل على أنه ليس التفضيل بكونه غنيًا أو فقيراً، بل بقدر التقوى، فربما يفوق الشكر الصبر، وأحيانًا العكس حسب درجة العبادة، وحال القلب معها، ثم كل مؤمن لابد له من صبر وشكر، وهناك تفاوت في المنزلة بين الأغنياء الشاكرين والفقراء الصابرين، والأفضل أن يفوض المرء أمره إلى الله ولا يختار لنفسه غِنىً ولا فَقرًا، فإن وجد ما يسر الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ له به؛ طعم وشرب وأنفق وجاهد، واستعمل المال في مرضاة الله، وإن لم يجد؛ صبر وعزم إن رزقه الله أن يتصدق وينفق وهما في الأجر سواء.

(٢) ولاشك أن هذه السلسلة من النسب لا يوجد مثلها، حتى النبي ﷺ لم يكن بهذا الفضل من جهة النسب، ولكنه ﷺ أفضل من جهة التقوى والمنزلة عند الله، وهو أتقى عباد الله لله، فهو ﷺ كريم النسب ولكن ليس كنسب يوسف عليه السلام.

(٣) «عَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ»: المراد أي القبائل أفضل، أو أفضل الناس في العرب.

الجَاهِلِيةِ خِيَارُهم فِي الإِسْلام؛ إِذَا فَقِهُوا»[(١)] [(١)]. فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم. وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «لا فَضْلٌ لِعَرَبِي عَلَي عَجَمِي، وَلا لِعَجَمِي عَلَى عَرَبِي، وَلا لأَسْوَد عَلَى أَبْيَض، وَلا لأَبْيَض عَلَى أَسْوَد إِلا بِالتَّقْوَى، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَم مِنْ تُرَاب»[(٢)].

وعنه أيضًا ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ تعالى أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[(٢)] الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرِهَا بِالآبَاء، النَّاسُ رَجُلانِ: مُؤمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ»[(٣)]. فمن كان من هذه الأصناف أتقى لله؛ فهو أكرم عند الله، وإذا استوى رجلان في التقوى؛ استويا في الدرجة. ولفظ الفقر في الشرع؛ يراد به الفقر من المال، ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ (التوبة: ٦٠). وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر: ١٥).

---

(١) قوله «إِذَا فَقِهُوا»: دليل على فضل الفقه والعلم مع كون الإنسان مسلمًا، وكانت فيه الصفات الطيبة، فإذا فقه هذا الخير في الجاهلية كان من خيار أهل الإسلام، وكانت قريش من أشرف القبائل في الجاهلية، وعندها صفات حميدة، مثل: القوة، والشهامة، والكرم. وهناك قبائل أخرى كانت مشهورة بقطع الطريق وأذى الناس.

(٢) عبيَّة: أي حمية الجاهلية.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٦٣٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٤١١)، والبزار كما في «المجمع»، قال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بنحوه ورجال البزار رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٤).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٤/ ٣٣١/ ٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ٥٢٤، ٣٦١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦/ ٧١٩).

بعض أصناف الفقراء الممدوحين

وقد مدح الله تعالى في القرآن صنفين من الفقراء: أهل الصدقات(١)، وأهل الفيء. فقال في الصنف الأول: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

وقال في الصنف الثاني وهم أفضل الصنفين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر: ٨).

وهذه صفة المهاجرين الذي هجرو السيئات، وجاهدوا أعداء الله باطنًا(٢) وظاهرًا(٣)؛ كما قال النبي ﷺ: «المُؤمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِم وَأَمْوَالِهِم، وَالمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِه، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَالمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ الله»(١)، (٤).

---

(١) أهل الصدقات: المستحقون لها الذين لا يسألون الناس.

(٢) باطنًا: جاهدوا شياطين الجن في أنفسهم بالعداوة والبغض.

(٣) ظاهرًا: قاتلوا شياطين الإنس بالسيف والسلاح والحجة والبيان.

(٤) وهذا دليل على أن جهاد النفس يُسمى جهادًا شرعًا، وليس فقط قتال الكفار كما هو عند الفقهاء في كتبهم.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (١٠٤)، والترمذي (٢٦٢٧)، وأحمد (٣/ ١٥٤)، وابن حبان (٢٦)، والحاكم (١/ ١١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٩).

وأما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[١]؛ فلا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله. وجهاد الكفار من أعظم الأعمال، لا؛ بل هو أفضل ما تطوع[١] به الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥).

وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التوبة: ١٩-٢٢).

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: كنت عند منبر النبي ﷺ، فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أُعَمِّر المسجد الحرام، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**الجهاد في سبيل الله أفضل مما ذكرتما**»، فقال عمر: «**لا ترفعوا**

---

(١) قوله «أفضل ما تطوع»: دليل على أن جهاد التطوع أفضل إذا خُيِّر بينه وبين حج التطوع، أو قيام الليل مثلاً، وقد يكون فرض عين.

---

(١) حديث منكر: أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٤٩٣)، وقال فيه الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ: «هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عليه . . .» اهـ.
ـ والحديث ضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» وقال: رواه البيهقي بسندٍ ضعيف عن جابر.

أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته»، فسأله، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ١٩)[(١)] [(١)].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أحبُّ إلى الله - عزَّ وجلَّ -؟ قال: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قلت: ثم أي؟ قال: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[(٢)]. قال: حدثني بهنَّ رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني[(٢)].

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه سُئِل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إِيمَانٌ بِاللهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»[(٣)]. وفي الصحيحين أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أخبرني بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله، فقال: «لا تَسْتَطِيعُهُ أو لا تُطِيقُهُ»، قال: فأخبرني به، قال: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَصُومَ وَلا تُفْطِرَ، وَتَقُومَ وَلا تَفْتُرَ؟»[(٤)].

---

(١) في هذه الآية: دليل على أن الجهاد من أفضل الأعمال.

(٢) الجهاد ذروة سنام هذا الدين: قال النبي ﷺ: **«رَأسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ»**[(٥)] رواه الترمذي؛ لأن الجهاد تطبيق عملي للإيمان وتكميل له، فكأنه قال: «كمن آمن بالله واليوم الآخر» الإيمان الكامل، «وجاهد في سبيل الله»، فأكمل إيمان هو إيمان المجاهد.

---

(١) **خبر صحيح**: رواه مسلم (١٨٧٩).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري برقم: (٢٦)، ومسلم (٨٣).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

(٥) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم: (٥١٣٦).

وفي السنن عن معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وكان النبي وصاه لما بعثه إلي اليمين، فقال: «يَا مُعَاذُ، اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[(١)]. وقال: «يَا مُعَاذُ، إِنِّي لأُحِبُّكَ فَلا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[(٢)]. وقال له ـ وهو رديفه ـ: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حَقُّه عَلَيهِم: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلوا ذَلِكَ؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حَقُّهم عَلَيهِ: أَلا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيئًا»[(٣)].

وقال أيضًا لمعاذ: «رَأسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»، وقال: «يَا مُعَاذُ، أَلا أُخْبِرُكَ بِأَبْوَابِ البِرِّ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، قال: ثم قرأ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة:١٦-١٧). ثم قال: «يَا مُعَاذُ، أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّه»؟، قُلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه فقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، فقلت: يا رسول الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم ـ أو قال: عَلَى مَنَاخِرِهِم ـ إِلا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِم»[(٤)] [(١)].

---

(١) ذكر الرسول ﷺ الأعمال الصالحة مرتبة في بيان فضائلها، ودل على أبواب الخير، فمن حصلها فهو ولي الله.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ٢٢٨، ٢٣٦)، وحسنه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترمذي».

(٢) صحيح: رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٤) صحيح: رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترمذي».

الصمت المحمود والصمت المذموم

وتفسير هذا ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ»(١).

فإن التكلم بالخير خيرٌ من السكوت عنه، والصمت عن الشر خير من التكلم به، فأما الصمت الدائم؛ فبدعةٌ منهيٌّ عنها، وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء، فذلك من البدع المذمومة أيضًا؛ كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائمًا في الشمس، فقال: «ما هذا؟» فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مُرُوْهُ فَلْيَجْلِسْ، وَلْيَسْتَظِلْ، وَلِيَتَكَلَّمْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»(٢).

وثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ في السر، فكأنهم تقالّوها فقالوا: وأينا مثل رسول الله ﷺ؟ فقال أحدهم: أما أنا؛ فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا؛ فأقوم ولا أنام، وقال آخر: أما أنا؛ فلا آكل اللحم، وقال الآخر: أما أنا؛ فلا أتزوج النساء، فقال النبي ﷺ: «مَا بَال رِجَالٍ يَقُولُ أحَدَهُم كَذَا وَكَذَا، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء .. فمن رغب عن سنتي؛ فليس مني»(٣). فقوله: «من رغب عن سنتي» أي: سلك غيرها ظانًا أن غيرها خير منها، فمن كان ذلك فهو بريء من الله ورسوله؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ (البقرة: ١٣٠). بل يجب على كل مؤمن أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدى محمد ﷺ؛ كما ثبت في الصحيح(٤) أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٩٤)، ومسلم (٤٧، ٤٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٧٠٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٤) صحيح: رواه مسلم في صحيحه برقم (٨٦٧)

فصل

في أن الولي ليس من شرط ولايته أن يكون معصومًا

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يُخْطِئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب أن بعض الأمور مما أمر الله به ويكون مما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله، وتكون من الشيطان لبسها عليه لينقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فقال الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٥-٢٨٦).

وقد ثبت في الصحيحين: أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء، وقال: «قد فعلت»؛ ففي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤). قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك شيء أشد منه، فقال النبي ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا» قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: «قَدْ فَعَلْتُ» ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: «قَدْ فَعَلْتُ» ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: «قَدْ فَعَلْتُ»، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا

وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، قال: «قَدْ فَعَلْتُ»[١]. وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (الأحزاب: ٥).

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا أنه قال: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِن أَخْطَأَ؛ فَلَهُ أَجْرٌ»[٢]. فلم يُؤَثِّم المجتهد المخطئ، بل جعل له أجرًا على اجتهاده، وجعل خطأه مغفورًا له، ولكن المجتهد المصيب له أجران، فهو أفضل منه.

ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله مَنْ هو ولي لله؛ إلا أن يكون نبيًا، بل ولا يجوز لولي أن يعتمد على ما يلقي الله في قلبه؛ إلا أن يكون موافقًا وعلى ما يقع له مما يراه إلهامًا ومحادثة وخطابًا من الحق، بل يجب عليه أن يُعرِض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ، فإن وافقه؛ قبله، وإن خالفه؛ لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو لقوله أم مخالف .. توقف فيه[١].

---

(١) ترجع أهمية هذا الفصل إلى أمرين:

أولاً - هو فرق أساسي بين أهل السنة وبين الصوفية والرافضة، ومن نحى نحوهما وقال بعصمة الأولياء، وهذا اعتقاد فاسد فلا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، وكل من دونه يخطئ ويصيب، فسيد الأولياء في هذه الأمة أبو بكر رضي الله عنه، قال له النبي ﷺ في الرؤيا التي أولها: أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا، وعمر رضي الله عنه وهو بالقطع ولي لله - عزَّ وجَلَّ - وهو المُحَدَّثُ الملهمُ وما وقع من أمره في قصة الحديبية مشهور، وعمل لذلك أعمالاً، فهذا دليل على أن الأولياء تجوز عليهم الذنوب والأخطاء، فإذا كان الخطأ بعد الاجتهاد والبحث عن الحق كان الخطأ مغفوراً، وكان =

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

. . . .

= صاحبه على الاجتهاد مأجورًا، وكذا من كان مقلدًا للمجتهد تقليدًا سائغًا لعدم معرفته بالحق، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٧). فإذا سأل من يثق فيه من أهل العلم والورع فأفتاه فاتبعه فقد بذل ما يستطيعه من الجهد فهو أيضًا إذا أخطأ مغفور له خطؤه مثاب على ما بذل من جهد.

ثانيـًا ـ هو إثبات الفرق بين أهل السنة، وبين أهل البدع في قضية الإلهام، والمحادثة والكشف وما يلقى في قلب أولياء الله الصالحين، فهناك من ينكره بالكلية وهذا منكر وفاسد. وهناك من يجعله دليلاً مستقلاً بل ويقدمه على الأدلة من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهذا من أعظم أسباب الانحراف والبدع التي وقعت في كثير ممن يكون في نفسه صالحًا، لكنه لما وقع في قلبه شيء لم يهتم بعرضه على ما جاء به الرسول ﷺ، بل ظن أن هذا دليلٌ قاطعٌ لا يحتمل خطـأً ولا ترددًا، كما يقول صاحب منازل السائرين عن الإلهام إنه: «نبأ يقع وحيا قاطعًا» أي أن الإلهام نبأ يقع في القلب وحيا قاطعًا لا يحتمل عنده ترددًا ولا خطـأً، وهذا أدى إلى انحراف فرق كثيرة، فأهل السنة يُثبتون هذه الأشياء: الكشف: بأن يُكشف للإنسان عن أمور غائبة عن غيره، والإلهام: كما جاء عن النبي ﷺ: **«إِنَّهُ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، وَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ»**[(١)].

فأهل السنة يثبتون هذه المحادثة وأنه يقع في قلبه أمور، وربما سمع بعض كلام الملائكة، ورأى بعضهم ولا مانع من ذلك، ولكن يجب النظر؛ فإنه نتيجة عدم العصمة يمكن أن يكون هناك خطأ أو التباسُ أحوالٍ إيمانية بأحوال شيطانية، وعمر رضي الله عنه ـ هو سيد الملهمين ـ وقع في نفسه أن ما كان في صلح الحديبية دَنِيَّة في الدين، مع أنه كان =

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

. . . .

= عزة في الدين، وكان ذلك من الشيطان، ولا يبعد أن يأمر الشيطان ولي الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، كما قال أبو بكر ﷺ في اليمين حين أقسم أن لا يأكل مع الأضياف عندما امتنعوا عن الأكل، فرجع عنها وقال: «الأولى من الشيطان»، فعلم أن اليمين التي أقسم من الشيطان ليؤدي إلى فساد العلاقة بينه وبين أضيافه، فإذا كان الأمر كذلك وهؤلاء هم أفضل الناس بعد الأنبياء، فهل يمكن أن يكون من دونهم في الولاية لا يأتيه الشيطان؟ بالقطع لا، لكنَّهم لهم فضيلة ومزية أنهم يَغْلِبُونَ الشيطان، ويرجعون سريعًا لما عندهم من العلم.

فأهل السنة يثبتون: (الإلهام والكشف والمخاطبة)، ولكنهم يستأنسون بها، ولا يَستدلون بها، فالصوفية يأتون بالأوراد الكثيرة (بل كل طريقة لها وردها) تلقوها من خلال الإلهام والكشف، فهي لا تصلح أن تكون دليلاً، بل إذا عُرِضت على الأدلة ظهر أنها بدعة، لا يجوز أن يُبنى عليها حكم شرعي باستحباب كذا وكذا، وأحيانًا يُلزمون السائر في الطريق بأشياء معينة لم ترد في كتاب ولا سنة، ولا قول صحابي ولا غيره.

أما أهل السنة: فيجعلونها أمورًا يُستأنس بها: (كالرؤيا، والمنامات، والكشف، والإلهام) تُعرضُ على الكتابِ والسنةِ، فإذا كانت مخالفة يجب أن تُرد، فهم لا يستدلون بها لاحتمال الخطأ فالاستئناس دليلٌ مُرجّحٌ أحيانًا، وليس دليلاً مستقلاً دون النظر إلى الكتاب والسنة.

فإن قيل: ما الخطأ في الأذكار التي يقولونها؟

الجواب: بعض هذه البدع في الأذكار من جهة تحديد أرقام معينة، وبعضها في أصل الورد نفسه تكون فيه بدعة، كالذكر باللفظ المبهم (هو هو)، أو باللفظ المفرد: (حي حي)، وغير ذلك من الأذكار البدعية.

موقف الناس من الولاية

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف: طرفان ووسط.

فمنهم مَن إذا اعتقد في الشخص أنَّه ولي الله، وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله.

ومنهم مَن إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهدًا مخطئًا.

وخيار الأمور أوسطها، وهو أن لا يُجعل معصومًا ولا مأثومًا إذا كان مجتهدًا مخطئًا؛ فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده(١).

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله، وأما إذا خالف قوله بعض الفقهاء ووافق قول آخرين؛ لم يكن لأحد أن يُلْزمه بقول المخالف، ويقول: هذا خالف الشرع(٢).

---

(١) ولاشك أن صدور أمور من الكفر مع القول بأنها أمور اجتهادية فيه نظر، بمعنى أنه إذا قيل إن هذا كفر، فهذا لمخالفته المقطوع به في الشريعة.

وبعد بيان القرآن وبيان الرسول ﷺ أصبحت الأمور الكبرى التي بُعث بها النبي من أصول الإسلام والإيمان والإحسان معلومة لكل من يطلبها، وغالبًا ما يكون هناك نوع من التفريط في البحث والسؤال في من خالفها.

فالأصل: أن من كان مجتهدًا حتى إذا كان خطؤه كفرًا، ولم يُقَصِر في بذل كل الجهد في معرفة الحق والصواب وخفي عليه، ولم يكن متبعًا للهوى فهو مأجور وخطؤه مغفور، لكن يندر جدًا أن لا يكون هناك تقصير في الاجتهاد والبحث فيمن وقع في أمور كفرية.

(٢) قد يكون المجتهد مُخطئًا فلا يَخرج عن ولاية الله، ويمكن بالأولى أن يكون خالف بعض الفقهاء ولم يخالف الشرع، ولابد في مخالفة الشرع أن يكون الأمر =

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «قدْ كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثُونَ، فإن يكن في أمَّتي أحدٌ؛ فعُمرُ منهم»(١)، وروى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «لَو لَم أُبعَثُ فيكُم؛ لَبُعَثَ فيكُم عُمَر»(٢)، وفي حديث آخر: «إنَّ اللهَ ضرب الحقَّ على لسانِ عُمَرَ وقلبِه»(٣)، وفيه: «لَو كَانَ نبيٌّ بعدي لكَانَ عُمَرُ»(٤)، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «ما كنا نبعد أنَّ السكينة تنطق على لسان عمر» ثبت هذا عنه من رواية الشعبي(٥) (١).

= من البينات التي جاءت من عند الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٥). فالخلاف المحرم هو خلاف البينات، فالذي خالف الشرع هو الذي خالف البينات، وأما الذي خالف أقوال بعض الفقهاء، وهو عند المجتهد الذي تابعه قد وافق الشرع فلا يصح أن يقال عن خلافه إنَّه محرم. فلا يقال: هذا خالف الشرع لكونه خالف أبا حنيفة أو مالكًا أو الشافعي أو أحمد، وإنما الخلاف خلاف البينات، وهي النصوص من الكتاب والسنة وكذا الإجماع القطعي والقياس الجلي.

(١) أي أن الله أنزل السكينة في قلبه، وجعلها تظهر على لسانه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

(٢) الحديث الذي قصده شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ هو: «لو كان بعدي نبي لكان عمر»، وهذا الحديث حسنه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ وسيأتي تخريجه. أما اللفظ المذكور فهو ضعيف جدًا.. أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٩٦٢)، والترمذي (٣٦٨٣)، وابن ماجه (١٠٨)، وأحمد (٥/ ١٤٥، ١٤٦)، والحاكم (٣/ ٨٦، ٨٧)، وقال فيه: «صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه بهذا السياق»، فتعقبه الذهبي بقوله: على شرط مسلم. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٧٣٦).

(٤) حسن: رواه الترمذي (٣٦٨٦)، والحاكم، وصححه وأخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، وحسنه الألباني

(٥) أثر صحيح: أخرجه الفسويُّ (١/ ٤٦١) في «تاريخه»، والبغوي في «شرح السنة» (٣٨٧٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» بنحوه (٧/ ٤٨٤).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «**ما كان عمر يقول لشيء: إني لأراه كذا؛ إلا أراه كما يقول**»[(١)]، وعن قيس عن طارق رضي الله عنه قال: «**كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك**»[(٢)]. وكان عمر يقول: «**اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون؛ فإنه تتجلى لهم أمورٌ صادقة**». وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلى للمطيعين، هي الأمور التي يكشفها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهم، فقد ثَبَتَ أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات.

ـ **وأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر وقد ثبت في الحديث الصحيح تعيين عمر بأنه محدث في هذه الأمة**[(٣)]**، فأي محدث ومخاطب فُرِضَ في أمة محمد ﷺ؛ فعمر أفضل منه، ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه، فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارةً يوافقه؛ فيكون ذلك من فضائل عمر؛ كما نزل القرآن بموافقته غير مرة**[(٤)]**، وتارةً يخالفه؛ فيرجع عمر عن ذلك؛ كما رجع يوم الحديبية، لما كان قد رأى محاربة المشركين، والحديث معروف في البخاري وغيره.**

---

(١) أثر صحيح: أخرجه الترمذي (٣٧٦٥).

(٢) أثر صحيح: أخرجه الفسوي (١/ ٤٥٦)، وابن عساكر (٥٢/ ٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٢)، والطبراني (٨/ ٣٨٤) في «الكبير» من كلام طارق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: سبق تخريجه (ص٩٢).

(٤) وفي هذا الصدد يروي أنس بن مالك رضي الله عنه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «وافقت ربي في ثلاث: فقلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت الآية: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة:١٢٥). وآية الحجاب. واجتماع نساء النبي ﷺ في الغيرة، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ (التحريم:٥)، فنزلت هذه الآية.

ـ والحديث المذكور صحيح: رواه البخاري (٤٠٢، ٤٤٨٣، ٤٧٩٠) وغيره.

ـ وقد ثبت أن عمر رضي الله عنه وافق ربه في أكثر من ثلاثة مواضع وما يقرب من خمسة عشر موضعًا.

فصل

فضل الصديق على المحدث

فإن النبي ﷺ كان قد اعتمر سنة ست من الهجرة، ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة، وهم الذين بايعوه تحت الشجرة، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل، وشرط لهم شروطًا فيها نوع غضاضة على المسلمين في الظاهر؛ فشق ذلك على كثير من المسلمين، وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما في ذلك من المصلحة، وكان عمر ممن كره ذلك حتى قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، ألسنا علي الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطى الدنيَّة في ديننا؟ فقال له النبي ﷺ: «إنِّي رسولُ الله، وهو ناصِري، ولسْتُ أَعْصَيه»، ثم قال: أفلم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أقلتُ لك: أنك تأتيه العام؟»، قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به»، فذهب عمرُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي ﷺ، ولم يكن أبو بكر سمع جواب النبي ﷺ، فكان أبو بكر رضي الله عنه أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك وقال: «**فعملت لذلك أعمالاً**»[(١)].

وكذلك لما مات النبي ﷺ؛ أنكر عمرُ موته أولاً، حتى قال أبو بكر: إنه مات، فرجع عمر عن ذلك[(٢)]، وكذلك قال في قتال مانعي الزكاة؛ قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ فإذا فَعلوا ذلك؛ عَصَموا منِّي دِمَاءَهم وأمْوالهم إلا بِحَقِّها**»، فقال له

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وغيره.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٤١، ١٢٤٢)، والنسائي (٤/ ١١)، وأحمد (٦/ ٢٢٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٦٥).

أبو بكر رضي الله عنه: «**ألم يقل: «إلا بحقها»؛ فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها**»، قال عمر: «**فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمتُ أنه الحق**»[(١)] [(١)].

ولهذا نظائر من تقدم أبي بكر على عمر، مع أن عمر رضي الله عنه مُحدَّث[(٢)]؛ فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المُحدَّث؛ لأن الصِّدِّيق يتلقي عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله، والمحدَّث يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم ﷺ[(٣)].

---

(١) هذا دليل على أن عمر رضي الله عنه كان يرجع عمَّا يقع في قلبه من أمور امتثالاً لما ورد في الشرع، وهذا هو الواجب.

(٢) والمحدث: هو الذي تحدثه الملائكة وتقذف في قلبه شيئًا، وهناك واعظ من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في قلب كل مؤمن، والمحدثون ربما يسمعون الخطاب مباشرة، أو يلقى في قلوبهم، ومرتبة التحديث أرفع من مرتبة عامة المؤمنين، وأرفع منها مرتبة الصديقين.

(٣) من هنا نعرف أن إثبات كرامة الإلهام والكشف والتحديث ليس معناه إثبات أنها من مصادر التشريع؛ لأنها قابلة للخطأ والصواب، فلابد أن تُعْرَض على الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، بل القياس الصحيح يقدم عليها؛ لأن القياس الصحيح مرده إلى الوحي، وغلبة الظن في صحته أقوى من غلبة الظن في صحة الإلهام أو الكشف، فهما يستأنس بهما ولا يستدل بهما.

أما الكشف فهو: أن يكشف الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ له عن أمور غابت عن غيره، كما وقع لعمر رضي الله عنه في قصة سارية، أن كشف له أنهم إذا لجأوا إلى الجبل نجاهم الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، والحديث حسنه غير واحد. =

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم (٢٠).

ولهـذا كـان عـمـر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُشَاوِرُ الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور (١)، وينازعونه في أشياء فيحتجّ عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسُّنَّة، ويقرهم على منازعته، ولا يقول لهم: أنا مُحَدَّث مُلْهَم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني، فأي من ادعى أو ادَّعَى له أصحابُه أنه ولي لله، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله، ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة؛ فهو وهم مخطئون، ولو قُدِّرَ هذا من أفضل الناس؛ فعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أفضل منه، وهو أمير المؤمنين، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقول هو وهم على الكتاب والسنة.

= وأعظم درجات الكشف: الكشف عن الحق، مثل انشراح صدر أبي بكر رضي الله عنه للقتال، فيكشف للولي عن الحق بأدلته الظاهرة حتى يقع في قلبه أن الأمر سيكون، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يجزم في بعض الوقائع مع التتار أن المسلمين سينتصرون في هذه الواقعة؛ لأن صفاتهم تغيرت فتوقع لهم النصر، وكان يقال له: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا، وإن كان الصواب أن الإنسان لابد أن يعلق الأمر على مشيئة الله؛ لأن الأمور تحتمل الخطأ والصواب، والكشف والإلهام من أنواع العلوم التي تقع في القلوب، مما يكرم الله به أولياءه المتبعين للكتاب والسنة، فإذا وجد من ليس كذلك شيئًا من ذلك فهو من الكشف الشيطاني لا الكشف الرحماني، ومن حيل الشياطين لا إلهام الحق.

(١) كان عمر رضي الله عنه يقرهم على مناظرته؛ عن شَقِيقٍ قالَ كُنتُ جَالِسًا مَعَ عَبدِ الله وأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، فقالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: لَو أنَّ رَجُلاً أجنَبَ فلم يَجِد المَاءَ شَهرًا، أَمَا كَانَ يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي، فَكَيفَ تَصنَعُونَ بِهَذِهِ الآيَةَ في سُورةِ المَائدَةِ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (المائدة: ٦). فقالَ عَبْدُ الله: لَو رُخِّصَ لَهُم في هَذَا لأوشكُوا إِذَا بَرَدَ عَلَيهِم المَاءُ أنْ يَتَيَمَّمُوا الصَّعِيدَ، قُلتُ: وَإِنَّما كَرِهتُم هَذَا لِذا، قال: نَعم، فقال =

فروق بين الأنبياء وغيرهم

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم؛ فإن «الأنبياء» ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ يجب عليهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، وتجب طاعتهم فيما

= أبو مُوسَى: أَلَم تَسمَعَ قَولَ عمَّار لعُمرَ: بَعثَني رسول الله ﷺ في حَاجة فأجنبت فلم أجد الماء، فَتمرَّغتُ في الصَّعيد كما تَمَرَّغُ الدَّابَّة، فذكرت ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فقال: «**إنَّمَا كَانَ يَكفِيكَ أن تَصنَعَ هَكَذَا**» فَضَرَبَ بكَفِّه ضربة عَلَى الأَرْضِ ثُمَّ نفضَهَا ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا ظهرَ كَفِّه بِشمَالِه أو ظهرَ شمَالِه بِكَفِّه ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ، فقال عبد الله: أفَلَم ترَ عُمرَ لم يقنع بقول عمَّار. وزاد يعلى عن الأعمش: عن شَقِيق: كُنتُ مع عبد الله وأبي مُوسَى، فقال أبُو مُوسَى: ألم تَسمَعْ قَولَ عمَّار لعُمرَ إنَّ رسول الله ﷺ بَعثني أنا وأنتَ فأجنبت فتَمعَّكت بالصَّعيد، فأتينا رسول الله ﷺ، فأَخْبَرناهُ فقال: «**إنَّمَا كَانَ يَكفِيكَ أن تَصنَعَ هَكَذَا**» ومَسَحَ وَجهَهُ وكَفَّيه وَاحِدَةً»(١) رواه البخاري، فعمر لم يتذكر هذه الواقعة، فترك عمَّاراً يحدث بها، ولكن حذره من الخطأ.

وهذا هو الفرق في الإلهام عند أهل السنة والصوفية، فالصوفية يقولون: الذي يكون بين يدي الشيخ يلزمه أن يكون كالميت بين يدي المغسل، ومن اعترض انطرد، أي أنه لا يوجد احتمال لمناقشة الشيخ، حتى إذا أتى المنكرات، ويقول لعله يوجد سر بينه وبين الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ فيكون ذلك منه، كالذي حدث للخضر مع موسى، وقد يصل هذا للكفر إذا استحل المحرم المعلوم من الدين بالضرورة أو رأى عدم وجوب المعلوم من الدين بالضرورة وجوبه كالصلوات الخمس مثلاً.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التيمم (٣٤٧)، ومسلم (٨٤٤).

يأمرون به بخلاف «الأولياء» فإنه لا تجب طاعتهم في كل ما يَأْمُرُون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردودًا، وإن كان صاحبه من أولياء الله، وكان مجتهدًا معذورًا فيما قاله، له أجر علي اجتهاده، ولكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئًا، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن:١٦)، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ (آل عمران:١٠٢)، قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، أي بحسب استطاعتكم؛ فإن الله تعالى لا يُكلف نفسًا إلا وسعها؛ كما قال تعالى ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة:٢٨٦)، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الأعراف:٤٢)، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (الأنعام:١٥٢)(١).

وقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمان بما جاءت به الرسل في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة:١٣٦)، وقال تعالى: ﴿ الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

---

(١) يرد المصنف على من يقول إن ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، ويقول هي مفسرة بها وليست منسوخة؛ لأن حق التقوى هي ما استطاعه الإنسان، والآيات دليل على المخطئ في الاجتهاد إذا استفرغ وسعه مغفور له خطؤه؛ لأن إصابة الحق حينئذ ليست في وسعه.

لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة: ١-٥)(١).

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧)(٢).

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة: هو ما اتفق عليه أولياء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم، بل إما أن يكون كافرًا، وإما أن يكون مفرطًا في

---

(١) هذا دليل على أن الله أمر بالإيمان بما أوتي النبيون لا الأولياء، فالأولياء يخطئون ويصيبون. قوله: ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾: على الأنبياء، وهناك من يرى أن الإلهام للأولياء نبأ يقع وحيًا قاطعًا لا يقبل أن يكون فيه تردد، فهذا يُلحقه بالوحي المنزل من عند الله، فتأتي البدع من أوسع أبوابها من خلال الإلهام أو الكشف المدعى.

(٢) والشاهد من الآية ﴿ وَالنَّبِيِّينَ ﴾؛ لأن أول بدعة في إثبات العصمة لغير الأنبياء كانت عند الرافضة، الذين يقولون بعصمة الأئمة الإثنى عشر، ومن خلالهم تسرب إلى مشايخ الصوفية وغيرهم.

الجهل، وهذا كثير في كلام المشايخ؛ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ: «إني ليقع في قلبي النكتة[(١)] من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة».

وقال أبو قاسم الجنيد ـ رحمه الله ـ: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا ولا يقتدى به».

وقال أبو عثمان النيسابوري ـ رحمه الله ـ: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور: ٥٤).

وقال أبو عمرو بن نجيد ـ رحمه الله ـ: «كل وجد[(٢)] لا يشهد له الكتاب والسنة؛ فهو باطل».

---

(١) النكتة: أي الفائدة. ولذلك عندما نعرض بعض المنازل التي يعدونها من منازل الفضل على الكتاب والسنة نجدها لا حقيقة لها ولا أصل، كالدهش والهيمان والسُكر، هذه المقامات المعدودة عندهم من مقدمات الفناء، ومرتبة الفناء لا يدل عليها شيء من كتاب أو سنة، وكذلك أفعال بعضهم؛ مثال: الذي فقأ عينه عندما نظر إلى امرأة لا تحل له عقوبة لنفسه، فهذا لم يرد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، وهذا إفساد لما وهبه الله إياه، وليس من حقه أن يفعل ذلك مع أن غرضه أن يلزم نفسه بغض البصر، فعلم تهذيب النفوس وأحوال القلوب لابد أن يعرض على الكتاب والسنة كسائر أنواع العلوم الشرعية.

(٢) الوجد: ما يجده السالك في قلبه من شعور بالرقة والمحبة، فهو يعرضه وغيره من أحوال الفناء على الكتاب والسنة وإذا خالفها كان باطلاً.

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله، ويُسَلم إليه كل ما يفعله، وإن خالف الكتاب والسنة[(١)] فيوافق ذلك الشخص ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء؛ فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده المفلحين وعباده الصالحين، ومن لم يُتابعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين، فَتَجُرُّه مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال، وآخرًا إلى الكفر والنفاق، ويكون له نصيب من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (الفرقان: ٢٧-٢٩).

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٦٦-٦٨).

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (البقرة: ١٦٥-١٦٧).

---

(١) أي قد يدخل عليه الغلط من ظنه من ليس وليًّا أنه ولي، ثم من ظنه أن أي ولي لله لابد أن يقبل منه كل ما يقول، فقد يكون الشخص وليًا لله ويصدر منه الخطأ أو البدعة، ويكون مغفورًا له أو مكفرًا عنه أو مرجوحًا بحسناته الكثيرة.

وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١).

وفي المسند، والترمذي وصححه عن عدي بن حاتم في تفسير هذه الآية لما سأل النبي ﷺ عنها فقال: ما عبدوهم؟! فقال النبي ﷺ: **«ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم؛ وكانت تلك عبادتهم إياهم»**[(١)].

ولهذا قيل في مثل هؤلاء: إنما حُرِموا الوصول بتضييع الأصول، فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بالله ورسوله ﷺ فلابد من الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به الرسول ﷺ، ولابد من الإيمان بأن محمدًا رسول الله ﷺ إلى جميعِ الخلقِ: إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، علمائهم وعبادهم، ملوكهم وسوقتهم، وأنه لا طريق إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطنًا وظاهرًا، حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ٨١-٨٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنّه»**[(٢)]، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق: لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبري في «جامع البيان»، وحسنه الشيخ الألباني في «غاية المرام» (٦).
(٢) **ضعيف**: أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٢٣٧)، بسند ضعيف.

يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٠-٦٥).

فصل

في وجوب متابعة الرسول ﷺ

وكل من خالف شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ مقلدًا في ذلك لمن يظن أنه ولي لله؛ فإنه بنى أمره على أنه ولي لله، وأن ولي الله لا يَخَالِف في شيء، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يُقْبَلْ منه ما خَالَفَ الكتابَ والسنةَ، فكيف إذا لم يكن كذلك؟!

عدم الاغترار بخوارق العادات

وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليًا لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التَّصَرُّفَات الخَارقة للعادة؛ مثل: أن يشيرَ إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا، أو يملأ إبريقًا من الهواء(١)، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو أن يختفي أحيانًا عن أعين الناس، أو أن

---

(١) يملأ إبريقًا من الهواء: أي يملأ إبريقًا ماء من الهواء، كما عند النصارى مما يخدعون به عوامهم، والبوذيين، والهندوس، وأعمال السحر في ذلك كثيرة.

بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاء فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سُرِقَ لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض، أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها وليٌّ لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء؛ لم يُغْترَّ بِه حتى يُنظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمرِه ونهيِه.

وكراماتُ أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها وليًا لله فقد يكون عدوًا لله؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي يدل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة.

ومثالُ ذلك: أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يُصلِّي الصلوات المكتوبة، بل يكون مُلابسًا للنجاسات، معاشرًا للكلاب يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل، ورائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية ولا يتنظف.

وقد قال النبي ﷺ: «**لا تَدْخُلُ الملائكةُ بيتًا فيهِ كَلْبٌ ولا جُنُبٌ**»[1]، وقال ﷺ عن هذه الأخلية: «**إنَّ هذه الحُشُوشَ مُحْتَضَرَةٌ**»[2]، أي تحضرها الشياطين، وقال ﷺ: «مَن

---

(١) **حديث ضعيف**: أخرجه أبو داود (٢٢٧، ٤١٥٢)، والنسائي (١/١٤١)، وأحمد (١/ ١٠، ٤/ ٢٨)، وضعفه الألباني وقال: قد صح الحديث دون قوله: «**ولا جنب**». والحديث في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي طلحة الأنصاري ﷺ دون قوله: «ولا جنب» فهي زيادة منكرة.

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٦)، وابن ماجه (٢٩٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٦٣).

أَكَلَ مِن هاتينِ الشَّجَرتينِ الخَبيثتَين[(١)] فلا يَقْرَبنَّ مَسْجِدَنَا ؛ فإنَّ الملائكَةَ تَتأذَّى مِمَّا يَتَأذَّى منه بَنُو آدمَ»[(١)] . وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يَقبلُ إلا طيِّبًا»[(٢)] . وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ نَظيفٌ يُحِبُّ النَّظافةَ»[(٣)] . وقال ﷺ : «خَمْسٌ مِنَ الفَواسِقِ يُقتلنَ في الحلِّ والحَرم: الحَيَّةُ والفَأرَةُ والغُرابُ والحِدأَةُ والكلبُ العَقُورِ»[(٤)] . وفي رواية: «الحيَّةُ والعَقْرَبُ» وأمر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بقتلِ الكلاب[(٥)] [(٢)]. وقال ﷺ: «مَنْ اقْتَنَى كَلبًا لا يُغْنِي عنه زَرْعًا ولا ضَرْعًا نَقصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيراطٌ»[(٦)] (رواه البخاري ومسلم).

وقال ﷺ: «لا تَصْحَبُ الملائكَةُ رُفقةً معَهم كَلْبٌ»[(٧)] ، وقال ﷺ: «إذا وَلَغَ الكَلْبُ في إِنَاءِ أَحَدِكُمْ؛ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مرَّاتٍ إحْدَاهنَّ بالتُّرَابِ»[(٨)] (الحديث صحيح).

---

(١) هما الثوم والبصل، وخبثهما ليس خبث تحريم، بل صرح النبي ﷺ بحلهما، ولكنه كرههما لأجل الرائحة الكريهة، وذلك قبل الصلاة، خصوصًا صلاة الجماعة، ويرخص لمن أكلهما في ترك الجماعة حتى لا يتأذى منه المسلمون والملائكة، وإن كان يفوته الثواب الجزيل.

(٢) وفي بعض النسخ (هذا الحديث نسخ بعد ذلك، ونهى عن قتل الكلاب إلا الأسود منها).

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٣٣٩/ ٨٥٤، ٨٥٥)، ومسلم (٣٩٤/ ٥٦٤)، وأخرجه الترمذي (١٨٠٦).
(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (١٠١٥).
(٣) **ضعيف:** أخرجه الترمذي (٢٧٩٩)، والحديث ضعفه الشيخ الألباني، وهو عند مسلم بلفظ: **«إن الله جميل يُحب الجمال»** (٩١).
(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري (٣٤/ ١٨٢٩)، ومسلم (٨٥٦/ ١١٩٨).
(٥) صحيح : أخرجه مسلم (٢٣٥/ ٢٨٠).
(٦) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٢٣٢٣)، ومسلم (١٥٧٤).
(٧) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢١١٣).
(٨) **متفق عليه:** رواه البخاري (١٧٢)، ومسلم (٢٧٩).

وقد قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون (١٥٦) الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (الأعراف: ١٥٦-١٥٧).

فإذا كان الشخص مباشرًا للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي تحبها الشياطين، أو يدعو غير الله فيتسغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحيةِ قبرِ الشيخِ، ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل أو المواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر، ولاسيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين، أو يَكرَه سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن؛ فهذه علامات أولياء الشيطان، لا علامات أولياء الرحمن.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن؛ فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله**»[(١)]. وقال رضي الله عنه: «**الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل**»[(٢)]، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «**لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله ـ عز وجل ـ**»[(٣)].

(١) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٥١-٥٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٣٢/ ٨٦٥٦، ٨٦٦٧)، وغيرهما بسند صحيح.

(٢) ضعيف: ورد عن ابن مسعود مرفوعًا، أخرجه أبو داود (٤٩٢٧)، وقال السيوطي: رواه ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود في كتاب ذم الملاهي (ص٣٨).

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (ص١٥٩) في «الزهد»، وابن المبارك (١١٣٣) في «الزهد» بسند ضعيف.

فإن كان الرجل خبيرًا بحقائق الإيمان الباطنة فارقًا بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد:٢٨)[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢)، فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المؤمن فإنَّه ينظرُ بنورِ الله»[(١)] (قال الترمذي: حديث حسن)، وقد تقدم الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره قال فيه: «وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ[(٢)]، عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلابُدَّ لَهُ مِنْهُ»[(٢)].

---

(١) قوله ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾: دليل على أن تحقيق الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام يجعل الله به فرقانًا ونورًا في قلب العبد يرى به حقائق الأمور ويميز بين الحق والباطل والسنة والبدعة، وطريق أولياء الرحمن وطريق أولياء الشيطان.

(٢) تردد الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يكون أبدًا عن جهل أو حيرة ـ تعالى الله عن ذلك ـ، وإنما معناه اجتماع إرادة شيء محبوب وإرادة شيء مكروه، فالمؤمن لا يصل إلى كرامة الله له إلا بالموت، فأن يكرمه الله ويثيبه أمر محبوب لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والموت يكرهه المؤمن فطريًا، والله يكره مساءة المؤمن، ولابد من الموت، فاجتماع إرادة المحبوب من وجه والمكروه من وجه سماه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ترددًا، فليس كتردد البشر الذي هو من الجهل والحيرة، والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١).

---

(١) ضعيف: ضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٨٢١).
(٢) تقدم تخريجه.

فإذا كان العبد منْ هؤلاء فرَّق بين حال أولياء الرحمن وحال أولياء الشيطان، كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزائف، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبئ الكذاب، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم، وبين مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وباباه الرومي، ونحوهم من الكذابين، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشياطين الضالِّين.

فصل
في أن الحقيقة(١) هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون

والحقيقة: حقيقة الدين - دين ربِّ العالمين - هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وإن كان لكل منهم شرعةً ومنهاجًا. فالشرعة: هي الشريعة قال الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:٤٨)، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (الجاثية:١٨-١٩).

---

(١) لفظ الحقيقة يستعمله الصوفية في الأمور الباطنة من أعمال القلوب وأحوالها وشهود الربوبية وتدبير الله للكون، ثم تحول عند متأخريهم وضلالهم إلى مفارقة الشريعة ومضادتها، فالشريعة أمور ظاهرة ينشغل بها العوام - لا دخل لهم هم بها - إذْ هم أهل الحقيقة، ومن عرف الحقيقة لم تلزمه الشريعة، فأراد شيخ الإسلام أن يبين أن الحقيقة - حقيقة الدين - هي ما جاء به الرسل من التوحيد والإيمان وشهود الربوبية والألوهية والتزام الشريعة، وإلا كانت ضلالاً من الشيطان لا حقيقة الدين.

والمنهاج: هو الطريق؛ قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (الجن:١٦-١٧)، فالشرعة بمنزلة شريعة النهر، والمنهاج: هو الطريق الذي يسلك فيه. والغاية: هي حقيقة الدين، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وهي حقيقة دين الإسلام؛ فإن دين الإسلام: وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين، لا يستسلم لغيره، فمن استسلم لغيره كان مشركًا والله ﴿ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ (النساء:٤٨)، ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠)[(١)].

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران:٨٥) عام في كل زمان ومكان، فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون[(٢)] كلهم دينهم الإسلام، الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له. قال الله تعالى: عن نوح عليه السلام: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس:٧١-٧٢).

---

(١) هذان النوعان أساس كل كفر، وهما أكثر أنواعه انتشاراً:

الأول ـ هو أن يَعْبُدَ الله، ولكن في نفس الوقت يشرك به، وخُصُوصًا في الدعاء وصرف العبادات لغيره، مثل شرك قوم نوح، ومشركي العرب.

الثاني ـ هو جحود دين الله ورده وعدم الخضوع والانقياد له والتكبر عليه، مثل شرك إبليس وفرعون، ومثله الشرك المنتشر في زماننا من فصل الدين عن الحياة ورد دين الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ.

(٢) الحواريون: أتباع المسيح عليه السلام، وليسوا من الأنبياء ولا المرسلين.

وقال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين (١٣١) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (البقرة: ١٣٠-١٣٢).

وقال تعالى: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ (يونس: ٨٤)، وقال السحرة: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾ (الأعراف: ١٢٦).

وقال يوسف عليه السلام: ﴿توفني مسلما وألحقني بالصالحين﴾ (يوسف: ١٠١).

وقالت بلقيس: ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ (النمل: ٤٤).

وقال تعالى: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار﴾ (المائدة: ٤٤).

وقال الحواريون: ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ (آل عمران: ٥٢).

فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد»[(١)] (١).

قال الله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (الشورى: ١٣)[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم (٥١) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون (٥٢) فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم

---

(١) دين الأنبياء: واحد، هو عبادة الله والاستسلام التام له، وهو الإسلام.

(٢) قوله ﴿أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾: دليل على أن الدين الذي فرضه الله على الأنبياء وشرعه لهم هو دين واحد، لا يجوز التفرق فيه وأن يجعل شيء من العبادة لله وشيء لغيره، فالدين كله لله.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥١-٥٣)[(١)]. وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم: ٣٠-٣٢).

فصل
في أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب؛ فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ

---

(١) قوله ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم ﴾: بدلاً من أن يُقيمُوا الدين كله، ويلتزموا بما جاءت به الرسل كله، تقطعوا أمرهم وأخذت كل طائفة قطعة، فكل منهم تمسك بشيء وترك غيره، وهذا الترك إضاعة لما تمسك به، فلا يكون متمسكًا بشيء.. مثل زعم النصارى تمسكهم بحب المسيح، لكنهم غلوا فيه ورفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه الإلهية، فصاروا غير متمسكين بما جاء به، وكذلك اليهود تمسكوا بالإيمان بموسى بزعمهم، وتركوا الإيمان بمن جاء بعده، فصاروا غير مؤمنين بموسى، وكذلك أهل البدع يزعمون التمسك ببعض النصوص ويتركون البعض الآخر، فهذا الذي حذر الله منه؛ لأنه يؤدي إلى التفرق في الدين، فإن حقيقة الدين هي أن يعبد الله وحده لا شريك له، وأن يستسلم له وحده على ما جاءت به الرسل، وأن يلتزم بشريعته ظاهراً وباطنًا، أما ما يقوله ضُلال أهل التصوف من أن أصحاب الحقيقة لا يلتزمون بشريعة، أو أن أصحاب الشريعة يتمسكون بها ظاهراً، فهذا خلاف دين الإسلام الذي جاءت به كل الرسل.

وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩)[١]، وفي الحديث: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحدٍ بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر»[١][٢].

فضل أصحاب الرسول ﷺ

وأفضل الأمم: أمَّةُ محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (فاطر: ٣٢).

---

(١) إن الأنبياء هم خاصة أولياء الله، وكل نبي ولي، وليس كل ولي نبيًّا، وخالف في ذلك غلاة الرافضة الذين يقولون بأن بعض الأولياء أفضل من الأنبياء، مثل ما قاله الخميني في كتابه: (إننا نعتقد معشر الشيعة الإمامية أن لأئمتنا أحوالاً مع الله، لا يبلغها ملك مقرب، ولا نبي مرسل)، وكذا غلاة الصوفية كما صرح به ابن عربي في قوله:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

فعندهم الولي في أعلى المقامات، ثم النبي، ثم الرسول، وهذا القول كفر بواح كما صرح بذلك ابن حجر وغيره من أهل العلم ـ رحمهم الله ـ.

(٢) والحديث فيه مقال، لكن معناه صحيح، فأفضل الأمة بعد النبي ﷺ هو أبو بكر الصديق، وهو أفضل أصحاب الأنبياء إلى قيام الساعة، إلا ما يكون من شأن عيسى عليه السلام، وهو معدود من الأمة، وهو نبي ورسول، والأنبياء أفضل من الأولياء باتفاق كما مضى.

---

(١) قال الشيخ الألباني: أخرجه جمع من المُحدثين، منهم: عبد بن حميد، والخطيب، وغيرهما، وقد حسنه بعضهم، انظر: «الضعيفة» (٣/ ٥٣٤).

وقال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح الذي في (المُسْنَد): «أنتُم تُوفونَ سَبعينَ أمَّةً أنتم خيرُها وأكرَمُها على الله»[١] (رواه أحمد)، وأفضل أمَّةُ محمد ﷺ هم القرن الأول، وقد ثبت عن النبي ﷺ، من غير وجه أنه قال: «خيرُ القرون القرن الذي بُعثتُ فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٢]، وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجه[١]. وفي الصحيحين أيضًا عنه ﷺ أنه قال: «لا تسبُّوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بِيدِهِ لو أنَّ

---

(١) وفي رواية أخرى: «خَيرُ النَّاسُ قَرْنِي» فهذا عام يشمل كل الناس، إذ خيرُ الأمم جملةً السابقة واللاحقة هم قرن النبي ﷺ وأصحابه، هذا مما لاشك فيه، وبالتالي هم أفضل مِن كل مَن يأتي بعدهم، فلا يبلغ أحد منزلتهم وهذا في الجملة، ولا يلزم من هذا أن كل صحابي أفضل من كل من يأتي بعده، فإنه كان منهم من قيل لهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات: ١٤)، فكان هناك مسلمون، وليسوا بمنافقين النفاق الأكبر على الصحيح من تفسير الآية، ومنهم من ارتكب الكبائر، ولكن كل فرد من السابقين الأولين أفضل من كل من يأتي بعدهم؛ لأن الله إنما مدح الذين جاؤوا من بعدهم باتباعهم لهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

فائدة: الصحابي هو: كل من لقي النبي ﷺ مؤمنًا، ومات على ذلك، ولو تخللت ذلك ردة (على الصحيح)، ويدخل في ذلك: كل من رآه النبي ﷺ مثل: محمد بن أبي بكر، ولد في حجة الوادع قبل موت النبي ﷺ ببضعة وثمانين يومًا، ومع ذلك هو معدود من الصحابة.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧، ٥/ ٣)، والحاكم (٤/ ٨٤) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٦٢٨٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[(١)] (رواه مسلم)، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة.

قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ (الحديد: ١٠)[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، والسابقون الأولون هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة، وفيه أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ١-٢)، فقالوا: يا رسول الله، أوفتحٌ هو؟! قال: «نعم»[(٢)].

وأفضل السابقين الأولين: الخلفاء الأربعة، وأفضلهم أبو بكر ثم عمر، هذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها، وقد دلَّت على ذلك دلائل بسطناها في (منهاج أهل السنة النبوية، في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية)[(٢)].

---

(١) وهذا دليل على أن من أسلم وقاتل قبل صلح الحديبية وهو الفتح المقصود في هذا الآية على الصحيح كما بينه شيخ الإسلام، والقول الثاني فيه أنه فتح مكة أفضل و﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

(٢) من أفضل ما كتب في الرد على الشيعة والمعتزلة هو كتاب (المنهاج) لشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيعة معتزلة في باقي العقائد، وهم قدرية فلذا جمع بينهما في الرد.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢/ ٧٦/ ٢٧٣٦)، وأحمد (٣/ ٤٢٠)، وغيرهما من حديث مجمع بن جارية، وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف أبي داود».

وبالجملة؛ اتفقت طوائف السنة والشيعة: على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيِّها واحد[(١)] من الخلفاء، ولا يكون أحد بعد الصحابة أفضل من الصحابة[(٢)].

وأفضل أولياء الله تعالى: أعظمهم معرفةً بما جاء به الرسول ﷺ، واتباعًا له؛ كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه، وأبو بكر الصديق أكمل معرفةً بما جاء به وعملاً به؛ فهو أفضل أولياء الله، إذ كانت أمة محمد ﷺ أفضل الأمم، وأفضلها أصحاب محمد ﷺ وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه.

وقد ظنت طائفة غالطة: أن خاتم الأولياء[(٣)] يكون أفضل الأولياء قياسًا على خاتم الأنبياء، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء، إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي[(٤)]، فإنه صنف مصنفًا غلط فيه في مواضع، ثم صار طائفة من المتأخرين

---

(١) يتفق أهل السنة على أنه أبو بكر الصديق، أما الشيعة فيقولون إنه علي، ولاشك في تقديم أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) هذا كله في الجملة كما سبق، أما في آحاد الصحابة وآحاد من بعدهم فقضية خلاف ذكره أبو عمر بن عبد البر وغيره مما يدل على صحة القول بأنه قد يوجد في المتأخرين من يسبق بعض المتقدمين، ويؤيده قول النبي ﷺ: «فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ أُمَّتِي سَابِقٌ»، وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة:١٣-١٤). والراجح أنهم من هذه الأمة، مع قول تعالى في الأبرار: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة:٣٩-٤٠)، فالسابقون من المتأخرين وإن كانوا قلة أفضل من الأبرار الأولين ـ والله أعلم ـ.

(٣) لا يوجد ما يُسمى بخاتم الأولياء عند السلف وأهل السنة، بل هو اصطلاح محدث وعقيدة باطلة.

(٤) الحكيم الترمذي هو صاحب كتاب (نوادر الأصول)، وقد طُعِنَ عليه في كثير من مؤلفاته، وليس هو أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي صاحب السنن ـ رحمه الله ـ.

يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته؛ كما زعم ذلك ابن عربي صاحب كتاب (الفتوحات) وكتاب (الفصوص)؛ فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه؛ كما يقال لمن قال: فخر عليهم السقف من تحتهم(١)، لا عقل ولا قرآن.

وذلك أن الأنبياء أسبق في الزمان من أولياء هذه الأمة، والأنبياء - عليهم أفضل الصلاة والسلام - أفضل من الأولياء، فكيف يكون الأنبياء كلهم والأولياء يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعي أنه خاتم الأولياء؟ وليس آخر الأولياء أفضلهم كما أنَّ آخر الأنبياء أفضلهم(٢).

فإن فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء ثبت بالنصوص الدالة على ذلك، كقوله ﷺ: «أنَا سيدُ ولدَ آدمَ ولا فخرَ»(١)، وقوله ﷺ: «آتِي بابَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ فأسْتَفْتِحُ، فيقولُ الخازنُ: مَنْ أنتَ؟ فأقولُ: محمدٌ، فيقولُ: بكَ أُمِرتُ أن لا أفتحُ لأحَدٍ قبلَكَ»(٢).

و(ليلة المعراج) رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم؛ فكان أحقهم بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، إلى غير ذلك من الدلائل، والأنبياء كل منهم يأتيه الوحي من الله، لاسيما ومحمد ﷺ لم يكن في

---

(١) كيف يخر السقف من تحتهم، والسقف فوقهم، فهذا لا عقل ولا قرآن.

(٢) إن أفضل الأولياء أولهم، فأول من أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وليس أفضلهم آخرهم الذين يأتون في آخر الزمان.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة».

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٧)، والبيهقي (١/ ٤٨٠) في «دلائل النبوة».

نبوته محتاجًا إلى غيره، فلم تحتج شريعته لا إلى نبي سابق، ولا إلى لاحق، بخلاف غيره؛ فإن المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة(١)، وشريعة التوراة جاء المسيح عليه السلام يكملها، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح، كالتوراة، والزبور، وتمام الأربع والعشرين نبوة(٢).

وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدَّثين بخلاف أمة محمد ﷺ فإن الله تعالى أغناهم به، فلم يحتاجوا معه لا إلى نبي ولا إلى محدَّث، بل جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرقه في غيره من الأنبياء، فكان ما فضله الله به ما أنزله إليه، وأرسله إليه، لا بتوسط بشر. وهذا بخلاف الأولياء؛ فإن كل من بلغه رسالة محمد ﷺ لا يكون وليًا لله إلا باتباع محمد ﷺ، فكل ما حصل له من الهدي ودين الحق هو بتوسط محمد ﷺ، وكذلك من بلغته رسالة رسول إليه لا يكون وليًا لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسله إليه، ومن ادعى أن الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد ﷺ فهذا كافر ملحد، وإذا قال: أنا محتاج إلي محمد ﷺ في علم الظاهر دون الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة؛ فهو شَرٌّ من اليهود والنصارى، الذين قالوا: إن محمدًا رسول الله ﷺ إلى الأُمِّيين دون أهل الكتاب؛ فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا كفارًا بذلكم.

---

(١) لم يكن هناك تشريعات للنصارى إلا بالأخذ من العهد القديم (التوراة).

(٢) «الأربع والعشرون نبوة»: هم الأنبياء المذكورون في القرآن، وآخرهم هو عيسى عليه السلام آخر الأربعة والعشرين، أما أمة محمد ﷺ فلا تحتاج إلى البحث عن الكتب السابقة، بل يكفي ما ثبت عن الرسول ﷺ كتابًا وسنة، ولا تحتاج كذلك إلى محدثين ملهمين، بل يوجدون فيها ولكن لا يكون الإلهام مصدرًا للتشريع كما سبق بيانه.

وكذلك هذا الذي يقول: إن محمداً بُعث بعلم الظاهر دون الباطن، آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر وهو أكفر من أولئك، لأن علم الباطن الذي هو: علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة(١).

فإذا ادَّعى المدعي أن محمداً ﷺ إنما علم هذه الأمور الظاهرة، دون حقائق الإيمان، وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة، فقد ادعى أن البعض الذي آمن به إنما جاء به الرسول دون البعض الآخر، وهذا شر ممن قال: أؤمن ببعض وأكفر ببعض، ولا يَدَّعِي أن هذا البعض الذي آمن به أدنى القسمين.

ضلالُ من يُفَضِّلُونَ الولاية على النبوةِ

وهؤلاء الملاحدة قد يدعون أن الولاية أفضل من النبوة، ويُلَبِّسُونَ على الناس؛ فيقولون: إن ولاية محمد أفضل من نبوته وينشدون:

مقامُ النبوةِ في برزخٍ فويقَ الرسول ودونَ الولي

ويقولون: نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته، وهذا من أعظم ضلالهم؛ فإن ولاية محمد ﷺ لم يماثله فيها أحدٌ، لا إبراهيم ولا موسى، فضلاً عن أن يُمَاثِلَهُ فيهِ هؤلاء الملاحدة.

---

(١) فعندما يدعي أحد أن الرسول ﷺ لم يبعث بهذا العلم، ولكن بعث بالعلم الأدنى فهو أكثر كفراً من اليهود والنصارى، فلقد كفر اليهود وهم لا يدعون أن الشريعة الإسلامية أدنى من شريعتهم، ولكن يقولون لا نريدها، ولن نؤمن بها، فكيف بمن قال: أنا لا أحتاج إلى الرسول ﷺ، فما جاء به هو الأدنى، والذي لم يأتِ به هو الأعلى قدراً.

وكل رسول نبي وكل نبي ولي، فالرسول نبي وولي، ورسالته متضمنة لنبوته، ونبوته متضمنة لولايته، فكيف تكون ولايته المُتَضمَّنَة في نبوته أفضل من نبوته الداخلة لولايته؟! وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع؛ فإنه حال إنباء الله إياه ممتنع أن يكون إلا وليًا لله، فلا تكون نبوة مجردة عن ولايته[١]، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلاً للرسول في ولايته لله تعالى، وهؤلاء قد يقولون كما يقول صاحب (الفصوص) ابن عربي: إنهم يأخذون من المعدن[٢] الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول، وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة الملاحدة المتفلسفة، ثم أخرجوها في قالب المكاشفة، وذلك أن المتفلسفة قالوا: إن الأفلاك قديمةً أزليةً لها علة وتتشبه بها، كما يقوله أرسطو وأتباعه أولها موجب بذاته[٣] كما يقوله متأخروهم كابن سينا وأمثاله، ولا يقولون: إن الرب خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ولا خلق الأشياء بمشيئته وقدرته، ولا يَعلمُ الجزئيات، بل إما أن ينكروا علمه مطلقًا كقول أرسطو، أو يقولوا: إنما يعلم من الأمور المتغيرة كلياتها، كما يقوله ابن سينا.

وحقيقة هذا القول: إنكار علمه بها فإنَّ كل موجود في الخارج فهو معين جزئي، والأفلاك (كل منها معين جزئي)، وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها، فمن لم يعلم إلا الكليات؛ لم يعلم شيئًا من الموجودات، والكليات إنما توجد كليات في الأذهان لا في الأعيان.

والكلام على هؤلاء مبسوط في موضع آخر في (درء تعارض العقل والنقل) وغيره.

---

(١) كيف أنبأه الله دون أن يكون وليًا؟ فلا يثبت أنه نبي دون أن يكون وليًا.

(٢) يقولون: إننا نأخذ من الأصل الذي يأخذ منه المَلَكُ، ما يبلِّغه للرسول.

(٣) «موجب بذاته»: هو واجب الوجود.

خرافات ابن سينا والفلاسفة

فإن كفر هؤلاء[١] أعظم من كفر اليهود والنصارى، بل ومشركي العرب فإن جميع هؤلاء يقولون: إن الله خلق السموات والأرض، وأنه يخلق المخلوقات بمشيئته وقدرته، وأرسطو ونحوه من متفلسفة اليونان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام، وهم لا يعرفون الملائكة ولا الأنبياء وليس في كتب أرسطو ذكر شيء من ذلك، وإنما غالب علوم القوم الأمور الطبيعية، وأما الأمور الإلهية فكلامهم فيها قليل كثير الخطأ.

واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالإلهيات منهم بكثير، ولكن متأخريهم كابن سينا أرادوا أن يُلَفِّقُوا بين كلام أولئك وبين ما جاءت به الرسل، فأخذوا شيئًا من بعض أصول الجهمية والمعتزلة، وَرَكَّبُوا منه ومن قول أولئك مذهبًا قد يعتزي إليه متفلسفة أهل الكتاب، وفيه من الفساد والتناقض ما قد نبهنا على بعضه في غير هذا الموضع.

وهؤلاء لما رأوا أمر الرسل كموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم أجمعين - قد أبهر العالم، واعترفوا[٢] بأن الناموس الذي بُعث به محمدٌ ﷺ أعظم ناموس طرق العالم، ووجدوا الأنبياء قد ذكروا الملائكة والجن أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين أقوال سلفهم اليونان الذين هم من أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأولئك قد أثبتوا عقولاً عشرة، يسمونها: المجردات والمفارقات، وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن، فسموا تلك المفارقات لمفارقتها المادة، ومجردات

---

(١) إن شر أطوار التصوف هو طور الصوفية المتفلسفة، ومن خلاله دخل الكفر والإلحاد، ومنهم ابن عربي وأحزابه.

(٢) هذا كلام ابن سينا، يقول: إن أعظم شريعة ونظام جاء إلى العالم هو ما جاء به محمد ﷺ.

لتجردها عنها، وأثبتوا للأفلاك، لكل فلك نفسًا وأكثرُهم جعلوها أعراضًا، وبعضهم جعلها جواهر وهذه المجردات التي أثبتوها ترجع عند التحقيق إلى أمور موجودة في الأذهان لا في الأعيان، كما أثبت أصحاب أفلاطون المُثُل الأفلاطونية المجردة، وأثبتوا هَيُولى[(١)] مجردة عن الصورة ومدة وخلاء مجردين[(٢)]، وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان.

فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبت أمر النبوات على أصولهم الفاسدة: زعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي: أن يكون له (قوة علمية) يُسمُّونها «القوة القدسية» ينال بها العلم بلا تعلم، وأن يكون له (قوة تخيلية) تخيل له ما يعقله في نفسه بحيث يرى في نفسه صورًا، أو يسمع في نفسه أصواتًا، كما يراه النائم ويسمعه ولا يكون لها وجود في الخارج، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله، وتلك الأصوات هي كلام الله تعالى، وأن يكون له (قوة فعالة) يؤثر بها في هَيُولَى العالم، وجعلوا معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وخوارق السحرة هي من قوى الأنفس، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم دون قلب العصا حية، ودون انشقاق القمر، ونحو ذلك، فإنهم ينكرون وجود هذا[(٣)].

---

(١) الهَيُولى: كلمة يونانية معناها مادة مجردة عن الصورة ـ أي ليس لها وصف ولا شكل بل مُدَّة زمنية ـ،

(٢) وخلاء مجردان: أي زمان ومكان مجردان من أي وجود، وهذا إنما يكون في العقل البشري فقط، فهو الذي يستطيع أن يتخيل أن هناك ما يُسمى زمانًا مجردًا ومكانًا مجردًا.

(٣) إن الأفلاك عندهم لا تتغير، والقمر من الأفلاك، فهم ينكرون انشقاقه ويثبتون معجزة تحول العصا إلى حيَّة؛ لأنها في العالم السفلي.

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع، وبيَّنا أن كلامهم هذا من أفسد الكلام، وأن هذا الذي جعلوه من خصائص النبي تَحصَّل ما هو أعظم منه لآحاد العامة ولأقل أتباع الأنبياء[(١)]، وأن الملائكة التي أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله وهم كثيرون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١)، وليسوا عشرة، وليسوا أعراضًا[(٢)]، لاسيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الأول هو: العقل الأول، وعنه صدر كل ما سواه فهو عندهم رب كل ما سوى الله، وكذلك كل عقل رب كل ما دونه، والعقل الفعال العاشر رب كل ما تحت فلك القمر[(٣)].

---

(١) عندما أثبت ابن سينا هذه القوى الثلاث قال: إن النبوة مكتسبة، وهذا أحد المواطن التي جعلت الغزالي يكفره، وعنده أن الفلاسفة والحكماء مثل الأنبياء تمامًا، أو هم أنبياء ولكن لم يصرح بهذا.

(٢) الأعراض: الصفات والأفعال؛ لأنها تعرض للذوات التي هي عندهم (الجواهر).

(٣) فَلَك القمر: هو آخر فلك من الأفلاك. فهم يعبدون الكواكب على أنها رمز الفيض الذي فاض من الوجود الأول، والأفلاك عندهم عشرة وآخرها هو العقل الفعال العاشر الذي هو رب كل ما تحت فلك القمر في اعتقادهم.

ـ يذكر المصنف كلام هؤلاء من المنتسبين إلى الإسلام لكي يكشف جذورهم، ولكي يعلم الناس أن هذا الكلام نابع من غير الإسلام، وأنه دين آخر في الحقيقة لم يأتِ به الرسل.

لأنه هناك من يطلق على ابن سينا هذا فيلسوف الإسلام ويعظمه ويعتبره الأستاذ الذي علم أوربا، كذلك ابن عربي عندهم هو الكبريت الأحمر، والشيخ الأكبر، ويطلقون عليه خاتم الأولياء، وكتاباه (فصوص الحكم)، و(الفتوحات المكية) من أعظم الكتب التاريخية التي لا نظير لها عندهم، وهو يقول فيه: إنه خاتم الأولياء، وإنه أعلى من الرسول والنبي.

وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل[1].

---

(١) وقد تأثر بهذا الفكر الفلسفي بعض من تكلم على النبوات وحقيقة الولاية كأبي حامد الغزالي، رغم أنه رد على الفلاسفة في تهافت الفلاسفة وكفرهم في قولهم: إن النبوة مكتسبة، ومع ذلك عندما تكلم على العلم اللادني وافقهم في حقيقة مذهبهم وفي استعارة المصطلحات الإسلامية للعقائد الفلسفية، فقال: إن (جبريل) هو العقل الكلي، و(اللوح المحفوظ) هو النفس الكلي، الذي هو أحد ما فاض عن الوجود المطلق في اعتقاد الفلاسفة، وجعل الوحي للأنبياء هو زوال الحجب بين العقل الجزئي وهو عقل النبي وبين العقل الكلي، وقال: إن العلم اللدني هو زوال الحجب بين النفس الجزئي وهو نفس الولي وبين النفس الكلي الذي جعله اللوح المحفوظ، وبالتالي صار ما في اللوح المحفوظ منقوشًا في نفس الولي، فكانت النتيجة أن صار الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وكل ما هو كائن إلى يوم القيامة منقوشًا في نفس الولي، وهذا عنده هو تفسير ما صدر عن الخضر عليه السلام.

ولذا تجد الصوفية المتفلسفة يعتقدون أن الأولياء يعلمون الغيب المطلق، ويكثرون الاحتجاج بقصة موسى والخضر، ويجعلون ذلك أصلاً في صحة مخالفتهم لظاهر الشرع لأنهم يعلمون الغيب، وهذا مناقض لنصوص القرآن والسنة وإجماع السلف. وقد نقل القاسمي في (محاسن التأويل) هذا الكلام في تفسير سورة الكهف دون أي تعليق، ولاشك أن هذا الكلام مما يعلم فساده قطعًا، وأنه لا دخل له بما جاءت به الأنبياء، فنظرية الفيض مخالفة تمامًا لعقيدة الرسل وأهل الإيمان في خلق الله للعالم، وتسمية الأوهام الفلسفية من العقل الكلي والنفس الكلي بالأسماء الإسلامية كجبريل والملائكة واللوح المحفوظ هو ترجيح لضلالات الفلاسفة لكن في قالب إسلامي، وهذا جناية خطيرة، وتعد للحق، وتجاوز للشرع، وكل ذلك ثمرة للانحراف عن الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة.

ـ فليس أحد من الملائكة مبدعًا لكل ما سوى الله(١)

---

(١) إن العقل الكلي الذي جعلوه في اعتقاد المؤمنين الملك الموكل بالوحي وهو جبريل عندهم مبدع لما تحته؛ فقد قالوا: «كل فيض فاض من واجب الوجود مبدع خالق لما تحته»، والخلق عندهم عبارة عن الفيض، وليس الإحداث من العدم، وعقيدة أن المادة لا تفنى ولا تستحدث ولا تخلق من عدم، هي من عقائد الفلاسفة المتقدمين، الذين قالوا: إن العالم قديم، وإنه غير مخلوق ـ فالعالم أزلي، وهو عندهم عبارة عن فيض فاض من واجب الوجود ـ هذا الفيض الذي يطلقون عليه أحيانًا خلق، وهو في الحقيقة ليس مخلوقًا من عدم عندهم، وإنما عبارة عن فيض فاض، فهذا معنى أنه مبدع لما تحته، أي أن العقل الكلي فاض منه عشرة عقول، ولذلك يقولون: إن مبدع العقول العشرة هو العقل الفعال أو الكلي، رب كل ما تحت القمر، لأنه فاض منه آخر فيض، وهو الهيولى: أي المادة التي كانت عندهم العناصر الأربعة: هواءً، وماءً، ونارًا، وترابًا.

وكانت هذه النظرية هي المقبولة لسنين طويلة، ورغم أنها هُدِمَت فلقد بقيت منها بقايا أثرت في العلوم التجريبية الأخيرة، وهي: أن المادة لا تفنى ولا تستحدث ولا تخلق من العدم، وحتى نظرية تحول الطاقة إلى مادة والمادة إلى الطاقة، وأن العالم كان في البداية طاقة (نظرية أينشتين) مردها إلى نفس التصور الأول، وأنه لابد أن تكون المادة غير مخلوقة أي غير مستحدثة.

أما عقيدة أهل الإسلام بل واليهود والنصارى أن هذا العالم كان عدمًا محضًا، وأن الله أوجده، وأنه كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وهذه عقيدة كل الملل المنتسبة إلى الرسل. ورغم أن عقائد الفلاسفة مخالفة لكل ما جاءت به الرسل من المعلوم بالاضطرار من الدين، ولكنها أثرت تأثيرًا خطيرًا، وحدث اختلاط عند كثير من الناس، فأصل كلام الفلاسفة كفر، مثل قولهم بقدم العالم وأن النبوة مكتسبة، والقول بعدم بعث الأجساد. =

ضعف الأحاديث الواردة في فضل العقل

وهؤلاء يزعمون أن العقل الأول هو العقل المذكور في حديث يُروى: «**إن أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، فقال له: أدبر، فأدبر، فقال: وعزَّتي ما خلقت خلقًا أكرم عليَّ منك، فبك آخذ وبك أعطي، ولك الثواب وعليك العقاب**»[(١)]، ويسمونه أيضًا: (القلم) لمَّا رأوا أنه قد رُوي: «**إنَّ أولَ ما خلق اللهُ القلمَ**»[(٢)] (الحديث رواه الترمذي).

والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة بالحديث، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستي وأبو الحسن الدارقطني وابن الجوزي وغيرهم، وليس في شيء من دواوين الحديث التي يُعتمد عليها، ومع هذا فلفظه لو كان ثابتًا فهو حُجَةٌ عليهم؛ فإن لفظة «**أول ما خلق الله تعالى العقل، قال له** - ويُروى - **لما خلق الله العقل قال له**» فمعنى الحديث أنه خاطبه في أول أوقات خلقه وليس معناه أنَّه أول المخلوقات و«أول» منصوب على الظرف، كما في اللفظ الآخر (لما) وتمام الحديث: «ما خلقت خلقًا أكرم عليَّ منك» فهذا يقتضي أنه خُلق قبله غيره، ثم قال: «فبك آخذ، وبك أعطي، وبك الثواب، وعليك العقاب» فذكر أربعة أنواع من الأعراض، وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل، فأين هذا من هذا؟!

= فعندهم الحياة هي مرحلة مررنـا بها، وبعد ذلك تتحول الأرواح إلى شيء آخر، ولا توجد عودة، وهذا في الحقيقة إنكار لليوم الآخر.

---

(١) **حديث موضوع**: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه «العقل» بإسناد فيه حفص بن عمر، ضعفه أبو حاتم وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وفي إسناده أيضًا الفضل بن عيسى الرقاشي؛ وهو منكر الحديث.

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٧٠٠)، وأحمد (٥/٣١٧)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني - رحمه الله - في «الصحيحة» (١٣٣).

حقيقة العقل

وسَبَبُ غلطهم أن لفظ «العقل» في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونان، فإن «العقل» في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً، كما في القرآن: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك: ١٠)، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤)، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الحج: ٤٦) (١)، ويراد بـ«العقل» الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها، وأما أولئك فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل (٢)، وليس هذا مطابقًا للغة الرسول ﷺ والقرآن، وعالم الخلق: عندهم ـ كما يذكره (أبو حامد) ـ عالم الأجسام، وأما العقول والنفوس فيسميها: عالم الأمر، وقد سمى العقل: عالم الجبروت، والنفوس: عالم الملكوت، والأجسام: عالم الملك، ويظن من لم يعرف لغة الرسل ومعنى الكتاب والسنة: أن ما في القرآن والسنة من ذكر الملك والملكوت والجبروت موافق لهذا، وليس الأمر كذلك.

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبيسًا كثيرًا، كإطلاق أن الفلك محدث ـ أي معلول ـ مع أنه قديم عندهم والمحدث لا يكون إلا مسبوقًا بالعدم ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الأزلي: محدثًا، والله قد أخبر أنه خالق كل شيء، وكل مخلوق فهو

---

(١) إن العقل بمعنى: التعقل والإدراك، ويوصف به أهل الإيمان دائمًا.

(٢) يقولون: إن هذا العقل كيان مستقل فاض من واجب الوجود، إن موضع العقل القلب، هذا عندنا في الشرع، أما عند الصوفية والفلاسفة فالعقل جوهر، وهو الذي فاض من العقل الفعال، ولا يلزم أن يكون جسمًا، ولاشك أن هذه المصطلحات الفلسفية التي استعملها أبو حامد الغزالي تدل على تأثره بالفلسفة، ورغم رده عليهم بقيت هذه البقية، خصوصًا عندما يتكلم في تهذيب النفوس، ولهذا مزجت الصوفية بالفلسفة عند الكثيرين في هذا الجانب خصوصًا.

محدث، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن، لكن ناظرهم بعض أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبر به الرسول ﷺ، ولا أحكموا فيها قضايا العقول، فلا للإسلام نصروا ولا لأعدائه كسروا، وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة، ونازعوهم في بعض المعقولات الصحيحة، فصار قصور هؤلاء في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك؛ كما قد بُسِطَ في غير هذا الموضع.

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون جبريل هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ﷺ، والخيال تابع للعقل، فجاء الملاحدة المتصوفة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم أولياء الله، وأن الولي أفضل من النبي، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة، كابن عربي صاحب (الفتوحات) و(الفصوص)، فقال: إنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلِكُ الذي يوحى به إلى الرسول، والمعدن عند هؤلاء هو العقل، والملك هو الخيال، والخيال تابع للعقل، وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال، والرسول يأخذ عن الخيال؛ فلهذا صار عند نفسه فوق النبي، ولو كان خاصة النبي ما ذكروه، لم يكن هو من جنسه فضلاً عن أن يكون فوقه، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين؟! والنبوة أمر وراء ذلك؛ فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية؛ فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ليسوا من صوفية أهل الكلام، فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة، كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والجُنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التُستَري، وأمثالهم[1].

---

(١) ربما وصف بعض هؤلاء المشايخ وبعض من كان من الزهاد، والعباد ممن هو على منهج أهل السنة والجماعة بكونه من الصوفية، وتكلمنا على كون هذا الاسم غير محمود مطلقًا، وأنه حادث، ولكنه وصف هؤلاء المشايخ بذلك لكونهم قد اشتهروا بملازمتهم لطريق الزهد، والعبرة بوجود المعتقد الصحيح، والسلوك الصحيح، =

وصف الملائكة في القرآن

والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاء، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٩).

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ (النجم: ٢٦)[(١)]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ

= والبعد عن البدع والضلالات، وإن أخذ على بعضهم بعض الأقوال أو الأفعال، فهذا مما لا يسلم منه أحد، وربما أنهم اجتهدوا فأخطؤوا، وخطؤهم مغفور بالنسبة إلى فضائلهم وعبادتهم، وعلى كل حال هم لم يبلغوا منزلة السلف المتقدمين من الصحابة والتابعين الملازمين للكتاب والسنة.

(١) إن اعتقاد الفلاسفة في الملائكة في الحقيقة تكذيب للرسل، فهم يقولون: إن الملك هو الخيال، وهذا يخالفُ الكتاب والسنة قطعًا.

وهذه الآيات دليل على أن الملائكة مخلوقات لها وجـود وأقوال وأفعال وقدرات، وأنهم ليسوا بنات الله كما يزعم المشركـون وغيرهم، بل هم عباد مكرمون عنده، ولهم منزلة كريمة، ولا يعملون عـملاً قبل أن يأمرهم الله به، وإذا أمروا عـملوا كل ما أمروا به، فهم لا يعصون الله ما أمرهم وأن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ محيط بعلم ما عندهم، وما بين أيديهم، وما خلفهم وأن الملائكة لا تشفع إلا لأهل الـتوحيد والإخلاص ممن رضي الله أن يشفع فيه عنده؛ وعنه ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا بها قلبه**»[(١)]، وهم مع ذلك في إشفـاق ووجل وخشيـة لله تعالى، وهم مـخلوقات =

---

(١) صحيح: رواه البخاريُّ في «العلم» (٩٩)، «الرقاق» (٦٥٧٠).

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (سبأ: ٢٢-٢٣)[(١)] ، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ١٩-٢٠)[(٢)] .

= نورانية كما بين الرسول ﷺ قال: «**خُلِقَتِ الملائِكَةُ مِنْ نورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم**»[(١)] .

(١) إن المشركين كانوا يدعون الأوثان على أنها ترمز للملائكة، فبين الله حقيقة الأمر فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: زعمتم أنهم آلهة تعبد من دونه ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ، فنفى الملك التام لذرة فما فوقها، ثم نفى المشاركة في هذه الذرة فما فوقها، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ ، ثم نفي المعاونة فقال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ، والظهير: المعين، فالملائكة لا تعاون الرب، بل هم يعملون بأمره وهو - عَزَّ وجَلَّ - الذي قواهم وأعطاهم الحول والقوة.

ثم قال: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ لم يبق إلا مقام الشفاعة، فبين - عَزَّ وجَلَّ - أنهم لا يشفعون إلا لمن أذن الله له، وذلك بعد الاستئذان، ويكون هو من أهل الإيمان والتوحيد، فأثبت الشفاعة الشرعية ونفى الشفاعة الشركية.

(٢) قوله ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ : دليل على أن الملائكة وغيرهم مملكون لله - عَزَّ وجَلَّ -، ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ : أي الملائكة، ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ : أي لا ينقطعون، فهم لا يكِلُّون ولا يَمِلُّون من العبادة، ﴿لا يَفْتُرُونَ﴾ : لا يصيبهم فتور، وهو ضعف في العمل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٦٨٧).

وقد أخبر أن الملائكة جاءت إبراهيم عليه السلام في صورة البشر، وأن المَلك تمثل لمريم بشرًا سويًا، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وفي صورة أعرابي، فيراهم الناس كذلك.

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ٢٠-٢١)[1]، وأن محمدًا ﷺ: ﴿رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (التكوير: ٢٣)[2]، ووصفه بأنه: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: ٥-١٨)[3].

---

(١) قوله ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾: دليل على أن للملائكة قوة وقدرة. ﴿مَكِينٍ﴾: ذو مكانة عند الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ. ﴿مُطَاعٍ﴾: في السماوات عند الله؛ لأنه أول من يرفع رأسه إذا سمع كلام الله، وتسجد الملائكة حين ذلك، فإذا رفع جبريل رأسه، رفعت الملائكة رؤوسها فهو مطاع من الملائكة. ﴿ثَمَّ﴾: هناك. ﴿أَمِينٍ﴾: مستأمن على أعظم رسالة وهي الرسالة إلى الرسل من البشر.

(٢) عندما رآه أول مرة عل صورته التي خلقه الله عليها بأجياد.

(٣) ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾: جبريل عليه السلام.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذو خلق حسن جميل، وقيل ذو قوة، والأول أقوى؛ لأن الآية التي قبلها ذكرت القوى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

﴿فَاسْتَوَىٰ﴾: علا وارتفع.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾: أي أنه بأعلى الأفق، ولقد رآه النبي ﷺ كما ذكر ذلك في سورة التكوير. =

. . . .

= ﴿ثُمَّ دَنَا﴾: بعد أن ارتفع دنا، قَرُبَ من النبي ﷺ.

﴿فَتَدَلَّى﴾: فنزل، فكان في قربٍ من النبي ﷺ قدر قوسين.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾: القاب ما بين منتصف القوس إلى طرفه، والعرب تقدر الشيء اليسير بقاب قوسين، و﴿أَوْ﴾ ليست للشك بل هي للإضراب، فالمعنى أنه اقترب منه قدر قوسين على تقديركم التقريبي، بل هو أدنى من ذلك في الحقيقة.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾: فأوحى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ من خلال جبريل إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى من القرآن.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾: ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رأى.

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾: رأى النبيُّ ﷺ جبريل على صفته التي خلقه الله عليها بفؤاده وبعين رأسه. ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾: أي تجادلونه على ما يرى، وهذا دليل على أن المعاينة أعلى درجات اليقين.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾: مرة أخرى.

﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾: عند السدرة التي في السماء السابعة، ينتهي إليها ما يصعد إليها من تحتها فيقبض هناك، وينتهي إليها ما ينزل إليها من فوقها فيقبض هناك.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾: أي الجنة التي تأوي إليها أرواح المؤمنين ثم أجسامهم بعد ذلك.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: يغطي هذه السدرة التي هي شجرة النبق، ﴿مَا يَغْشَى﴾: تعظيم لشأنه، قال النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: «**فَغَشِيَهَا أَلوَانٌ مَا أدري مَا هِيَ**»[1]. تغيرت ألوانها حتى لا يستطيع النبي ﷺ أن يصفها من حسنها، وقال: «**وَغَشِيَهَا فراشٌ مِنْ ذَهَبٍ**»: أي جاء عليها. =

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٤٩).

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**أنه لم يرَ جبريل في صورته التي خُلق عليها غير مرتين**»[1]، يعني المرة التي بالأفق الأعلى، والنزلة الأخرى عند سدرة المنتهى، ووصف جبريل عليه السلام في موضع آخر بأنه الروح الأمين[1]، ووصفه بأنه روح القدس، إلى غير ذلك من الصفات التي تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياء العقلاء، وأنه جوهر قائم بنفسه ليس خيالاً في نفس النبي ﷺ؛ كما زعم هؤلاء الملاحدة المتفلسفة، المدَّعون ولاية الله وأنهم أعلم من الأنبياء.

= ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾: دليل على أن المعراج كان بالروح والبدن؛ لأن البصر من صفات البدن، وهذا مدح للنبي ﷺ أنه ما زاغ بصره، فلم يضطرب من شدة هول ما يرى، ﴿وَمَا طَغَى﴾: ليتطلع إلى غير ما أذن له فيه.

■ وهذا كله دليل على أن جبريل نفس، له وجود، وليس مجرد خيال، بل نزل وتدلى واقترب من النبي ﷺ ونقل إليه الوحي، وهذا كله يخالف اعتقاد الفلاسفة.

(١) قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ (الشعراء: ١٩٣). قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ (النحل: ١٠٢).

﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: روح الطهر، أي الروح المقدسة: المطهرة المنزهة من العيوب، وقيل القدس: الله - عزَّ وجلَّ - بمعنى القدوس، فجبريل روح الله، والإضافة هنا تكون للتشريف، فجبريل ليس صفة لله فليس أقنومًا من أقانيم الإله كما يعتقد النصارى، ولا هو جزء من الإله، ولا أنه حياته كما أن روح الجسد تحل في جسده فهي جزء من أجزائه، إذ هو روح وجسد - تعالى الله عزَّ وجلَّ أن يشبهه شيء من خلقه أو يشبه هو عزَّ وجلَّ خلقه - بل جبريل روحه أي هو الروح المخلوقة المنسوبة إلى الله تشريفًا وتكريمًا، مثل: «بيت الله»، و«ناقة الله»، و«عبد الله».

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

إلحاد القائلين بوحدة الوجود

وغاية تحقيق هؤلاء: إنكار أصول الإيمان؛ فإن أصول الإيمان: أن يُؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وحقيقة أمرهم جحد الخالق؛ فإنهم جعلوا وجود المخلوقات هو وجود الخالق، وقالوا: الوجود واحد، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع؛ فإن الموجودات تشترك في مسمَّى الوجود، كما يشترك الناس في مسمى الإنسان، والحيوانات في مسمَّى الحيوان، ولكن هذا المشترك الكلي لا يكون مشتركًا كليًا إلا في الذهن، وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الإنسان ليست هي الحيوانية القائمة بالفرس[١]، ووجود السماوات ليس هو بعينه وجود الإنسان، فوجود الخالق ـ جلَّ جلاله ـ مباين لوجود مخلوقاته، وحقيقة قولهم: قول فرعون الذي عطل الصانع؛ فإنه لم يكن ينكر هذا الموجود والمشهود، لكنه زعم أنه موجود بنفسه، لا صانع له، وهؤلاء وافقوه في ذلك، لكنهم زعموا أنه هو الله، فكانوا أضل منه، وإن كان قوله هذا هو أظهر فسادًا منهم، ولهذا جعلوا عبَّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله، وقالوا: لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف والحكم ـ وإن جاز في العرف الناموسي ـ؛ قال: أنا ربكم الأعلى؛ أي: وإن كان الكل ربًا بنفسه، فأنا ربكم الأعلى منكم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم[٢]. قالوا: ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله أقروا

---

(١) إن هذه الحيوانية وصف مشترك كلي موجود في الكائنات الحية جميعها، كما أن الوجود أو الحياة هي صفة لكل حي، فالحياة صفة لا تقوم بمفردها، بل لابد أن تقوم بحي، فكذلك الوجود.

(٢) إن هذا الكلام لابن عربي في (فصوص الحكم)، وهو يبرر ويفسر قول فرعون ويقول: إنه كان على الحق.

له بذلك، وقالوا له: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (طه: ٧٢)، قالوا: فصح قول فرعون: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (النازعات: ٢٤)، وكان فرعون عين الحق[١].

ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر؛ فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة[٢]؛ فصاروا كافرين بالله[٣]، واليوم الآخر[٤]، وبملائكته[٥]، وكتبه[٦]، ورسله[٧]، مع دعواهم أنهم خلاصة الخاصة من أهل ولاية الله، وأنهم أفضل من الأنبياء، وأن الأنبياء

---

(١) فهم لم يجعلوا قول السحرة له أمر استهزاء أو استهانة أو احتقار له، بل جعلوه أمر إباحة له، كأن السحرة قالوا: أنت الأعلى في الدنيا فافعل ما شئت فهو من حقك، وعين الحق: أي عين الرب.

(٢) كما يقول ابن عربي في أشعاره:

ولم يبق إلا صادق الوعد	**وليس لوعد الحق عين تعاينه**
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه	**ولهم نعيم للجنان مباين**

- ثم يقال بعد ذلك: إن هؤلاء أعلى الناس في الولاية، وإننا لا نفقه كلامهم.

(٣) لأنهم يقولون: إن وجود الله هو عينه وجود الخلق، فلا خالق ولا مخلوق، ولا رب ولا عبد، بل الكل شيء واحد.

(٤) لأنهم يقولون: إن أهل النار يتنعمون في النار، وإن عذابهم عذوبة.

(٥) لأنهم يقولون: إن الملائكة هي خيالات يتخيلها الأنبياء.

(٦) لأنهم يقولون: إن كل كلام في الوجود كلامه، سواء علينا نثره ونظامه.

(٧) لأنهم يقولون: إن النبوة مكتسبة، وإن الأنبياء لهم قوة إدراك أدركوا بها المعاني من العقل الكلي، ثم تخيلوا المعاني في صورة حسية، فهي قوة التخيل، ثم قوة التعبير، فعبروا عن ما تخيلوه بما قالوه للناس.

إنما يعرفون الله من مشكاتهم. وليس هذا موضع بسط بيان إلحاد هؤلاء، ولكن لما كان الكلام في أولياء الله، والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وكان هؤلاء من أعظم الناس ادعاءً لولاية الله، وهم من أعظم الناس ولايةً للشيطان نبهنا على ذلك.

ولهذا عامة كلامهم هنا إنما هو في التخيلات الشيطانية، ويقولون ما قاله صاحب (الفتوحات): بأن أرض الحقيقة هي أرض الخيال. فيعترف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي خيال، والخيال هو محل تصرف الشيطان؛ فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هي عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (الزخرف: ٣٦-٣٩)[١]، وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾، إلى قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (النساء: ١١٦-١٢٠)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢٢)[٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٤٨).

---

(١) إن الاشتراك في مصائب الدنيا يهون منها، أما مصائب يوم القيامة فمهما اشتركوا فيها فلا يهون عليهم ولا ينفعهم.

(٢) ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾: بمغيثكم.

وقد روي عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أنه رأى جبريل يزع[(١)] الملائكة»[(٢)]، والشياطين إذا رأت ملائكة الله التي يؤيد بها عباده هربت منهم، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الأنفال: ١٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (الأحزاب: ٩)، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٤-١٢٥).

الاتصال بالأرواح الشيطانية

وهؤلاء تأتيهم أرواحٌ فتخاطبهم وتتمثل لهم، - وهي جن وشياطين - فَيَظُنُّونَهَا ملائكة؛ كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام[(١)]. وكان أول من ظهر

(١) وكثيراً ما تجد هذا عند اليهود والنصارى والمشركين، تظهر لهم تهيئات كثيرة، مثل: أن يدَّعوا ظهور المسيح أو العذراء على الكنيسة أو في مكان ما، ويرى أتباعهم هذا بالفعل، وقد يكون هذا من بعض حيلهم، كأن يفعلوا انعكاسات ضوئية ليظهروا الصور، وأحيانًا تكون شياطين تتمثل في هذه الصور، ويخدعون بهذا من كان على شاكلتهم، أو من كان ضالاً يعتقد الاعتقادات الكفرية ممن ينتسب إلى الإسلام وهو من المنافقين، أما أهل الإيمان فهم لا يستطيعون أن يخدعوهم ليروا ذلك.

(١) قال ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١١٦): «وأما قوله: «يزع الملائكة» فقال أهل اللغة: معنى «يزع»: يكف ويمنع؛ إلا أنه ها هنا بمعنى: يُعبيهم ويرتبهم للقتال ويَصُفُّهم، وفيه معنى الكف؛ لأنه يمنعهم عن الكلام».

(٢) ضعيف: رواه مالك في «الموطأ» (١/ ٤٤٢ - حـ ٤٢٥) بإسناد ضعيف؛ لأن طلحة بن عبيد الله بن كريز لم يدرك النبي ﷺ. قال البغوي: هذا حديث مرسلٌ. وقال الشيخ الألباني: ضعيف. انظر: «ضعيف الترغيب والترهيب» (٧٣٩).

من هؤلاء في الإسلام (المختار بن أبي عبيد الثقفي) الذي أخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلمٌ في صحيحه، عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون في ثقيف كذاب، ومبير»[(١)]، فكان الكذاب: المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان المبير[(١)]: الحجاج بن يوسف[(٢)]، وقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه يُنزَل إليه، فقالا: صدق، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[(٢)] (الشعراء: ٢٢١-٢٢٢).

وقال الآخر: وقيل له: إن المختار يزعم أن يُوحى إليه، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (الأنعام: ١٢١).

---

(١) «المبير»: المهلك.

(٢) إن عامة أهل العلم بالحديث يفسرون هذا الحديث على ذلك، بل نُقل الاتفاق على ذلك، وكان أول ظهور المختار حينما طالب بالانتقام من قتلة الحسين والانتصار لأهل البيت، وسلطه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على طائفة منهم بالفعل، وتمكن من قتلهم، فحدث له قبول بين الناس، وكان يريد بذلك الشهرة والرياسة، واجتمع له خلق كثير فادعى الأمور الخارقة، وكان يخدع أتباعه بذلك، إلى أن ادعى أن جبريل يأتيه، ولم يتسم بالنبوة صراحة، وإنما ادعى أنه ينزل عليه جبريل ويكلمه، وخدع طوائف من الشيعة بذلك إلى أن قتل في آخر عمره على زندقته.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٤٥)، والترمذي (٢٢٢٠).

(٢) ضعيف: رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٩٧/ ١٠٦١٣) عن عبد الله بن الزبير بسند ضعيف.

ومن هذه الأرواح الشيطانية: الروح الذي يزعم صاحب الفتوحات أن أُلقي إليه ذلك الكتاب[١]، ولهذا يذكر أنواعًا من الخلوات بطعامٍ معين وحالٍ معين[٢]، وهذه مما تفتح لأصحابها الاتصال بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء، وإنما هو من الأحوال الشيطانية، وأعرف من هؤلاء أعدادًا.

ومنهم من كان يُحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بِجُعْلٍ يُجعل له من الناس أو لعطاء يعطونه إذا دلَّهم على سرقاتهم، ونحو ذلك[٣].

---

(١) هذا دليل على أنه يوحى إليه من الشيطان، وأنه يتنزل عليه منه، يعني محيي الدين بن عربي في كتابه (الفتوحات الملكية).

(٢)يأمره أن يظل عددًا معينًا من الأيام لا يأكل إلا طعامًا معينًا أو يشرب نوعًا معينًا من الأشربة.

(٣) مثل الذين يفتحون المندل ليعرفوا مكان الشيء المسروق.

ـ وحدثني عدد من الأفراد أنهم كانوا عندما تواجههم أزمة مالية يقترضون من الجن على أن يردوا المبلغ مرة أخرى، وكان معهم امرأة معها جن، وكانوا بالفعل يجدون المال المطلوب، وعندما يردونه يضعونه في مكان فيختفي، وغالبًا تكون هذه الأموال مسروقة، ومثلما أن هناك إنسان مسلم سارق، فلا مانع من وجود جن مسلم سارق، ولا يلزم من أنه جن مسلم أن يكون صالحًا، فنحن نرى أحوال الإنس وما فيها من فساد، فبالأولى الجن المسلم يمكن أن يكونوا أكثر فسادًا؛ لأن الجهل يغلب عليهم، ونوع الجن فيه خفة وضعف عقل، ولذلك لم يكن منهم رسل، بل جعل الله الرسل في الإنس، ولم يجعلهم في الجن، لما فيهم من النقص بالنسبة للإنس، والله كرم بني آدم عليهم، فكون الشخص يستبيح ذلك ويقول هذا جن مسلم، ويجعله مفتاحًا لكل أنواع الشرور، كأن يستبيح أن يسأله عن كل أنواع المغيبات، أو يحضر له الأشياء المفقودة أو غير ذلك، فهذا كله من الضلال ولا يباح التعامل معه حتى لو كان جنًا مسلمًا.

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل ـ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ـ كما يُوجد في كلام صاحب (الفتوحات المكية) و(الفصوص) وأشباه ذلك يمدح الكفار، مثل قوم نوح وهود وعاد وفرعون وغيرهم[١]، وينتقص بالأنبياء، بنوح وإبراهيم وموسى وهارون وغيرهم، ويذم مشايخ المسلمين المحمودين عند المسلمين: كالجُنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم، ويمدح المذمومين عند المسلمين، كالحلاج[٢]، ونحوه؛ كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية.

فإن الجُنيد ـ قدَّس اللهُ روحه ـ[٣] كان من أئمة الهدى، فسُئِلَ عن التوحيد، فقال: «التوحيد إفراد الحدوث[٤] عن القدم»، فبين أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث، أي بين الخالق والمخلوق. وصاحب (الفصوص) أنكر هذا، وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية: يا جُنيد هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما؟

---

(١) كونه يمدح الكفرة المقطوع بكفرهم، وينتقص الأنبياء هذا من الخروج من الملة.

(٢) كان الحلاج يقول: ما في الجبة إلا الله (أي داخل جبته) لذلك قُتل على زندقته، فإذا وجدت الرجل يقدم هؤلاء ويعظمهم، مثل: الحلاج، وابن عربي . . فاعلم أنه من الصوفية الفلسفية الضالة المنحرفة.

(٣) قدس الله روحه: معناه طهَّر الله روحه، فالتقديس التطهير والتزكية.

(٤) الحدوث: هو صفة العباد، القدم: صفة للرب ـ جَلَّ وعَلا ـ على الاصطلاح الشائع عند المتكلمين، أما لغةً وشرعًا، فاستعمال لفظ (المحدث) أوسع من ذلك، فقد يطلق على ما هو قديم بالنوع حادث الأفراد، قال الله تعالى في كتابه: ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٢). وقال ابن عباس ﵄: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيءٍ وكتابكم الذي أنزل الله على نبيِّكم ﷺ أحدث الأخبار بالله؟!»[١] (رواه البخاري)، وقال في الترجمة: =

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٥٢٣) التوحيد.

فَخَطَّأَ الجنيد في قوله: «إفراد المحدث عن القدم» لأن قوله هو: إن وجود المحدث هو عين وجود القديم كما قال في فصوصه: «ومن أسمائه الحسنى: العلي، على مَن سواه؟ وما ثمَّ إلا هو، وعن ماذا؟ وما هو إلا هو، فعلُوُّه لنفسه، وهو عين الموجودات فالمسمى محدثات هي العلية لذاته وليست إلا هو[1] .... إلى أن قال: فهو عين ما بطن

= «وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين»، فأفعال الله كلها حادثة الأفراد قديمة النوع، لم يزل الله متصفًا بها، لكنه يفعلها حين يشاء، ليست مخلوقة بل صفة من صفاته، وإن وقعت في زمن معين، كما دلت عليه أدلة الكتاب والسنة وإجماع السلف، بل والعقلاء.

ـ وأما لفظ القديم فهو يستعمل أيضًا لغة وشرعًا في المخلوق وليس فقط للخالق أو غيرالمخلوق، قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس:٣٩)، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:٧٥-٧٦). ولا نزاع في خلق الآباء وخلق العرجون، فالقديم لغة ما تقدم على غيره، أما ما جرى عليه الاصطلاح من التقسيم إلي قديم وهو غير مخلوق وهو صفة الرب ـ جَلَّ وعَلا ـ ومحدث وهو المخلوق فهذا المعنى ـ وهو التفريق بين الخالق والمخلوق، أو القديم والمحدث ـ صحيح بالضرورة، ومعلوم بضرورة الشرع والعقل، وما احتج به ابن عربي من أنه لا يميز بينهما إلا غيرهما بمعنى من ليس بمحدث ولا قديم، وهذا مستحيل فهذا احتجاج باطل؛ لأن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وهو الأول سبحانه أعلم بنفسه وأعلم بعباده، فالعلم بالفرق بين الخالق والمخلوق جزء من علمه ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، والمخلوق العاقل بما جعل الله فيه من خاصة العقل والإدراك أيضًا كي يميز بين الخالق والمخلوق.

(١) يقول: هي علت على ذاته، وهما في الحقيقة شيء واحد.

وهو عين ما ظهر، وما ثم من يراه غيره[١]، وما ثَمَّ من ينطق عنه سواه، وهو المسمى أبو سعيد الخراز وغير ذلك من أسماء المحدثات[٢].

فيقال لهذا الملحد: ليس من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثًا غيرهما؛ فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره وليس هو ثالثًا، فالعبد يعرف أنه عبد، ويميز بين نفسه وبين خالقه، والخالق - جلَّ جلاله - يميز بين نفسه وبين مخلوقاته، ويعلم أنه ربهم، وأنهم عباده؛ كما نطق بذلك القرآن في غير موضع، والاستشهاد بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطنًا وظاهرًا.

وأما هؤلاء الملاحدة؛ فيزعمون ما كان يزعمه التلمساني منهم - وهو أَحْذَقُهُم في إلحادهم - لما قُرِئَ عليه الفصوص، فقيل له: إن القرآن يخالف قولكم؛ فقال: «القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا، فقيل له: فإذا كان الوجود واحدًا، فلم كانت الزوجة حلالاً والأخت حرامًا؟ فقال: الكل عندنا حلال، ولَكِنْ هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم».

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهرًا؛ فإن الوجود إذا كان واحدًا فمَن المحجوب ومن الحاجب؟! ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده: من قال لك: إن في الكون سوى الله فقد كذب، فقال له مريده: فمن هو الذي يكذب؟!

وقال لآخر: هذه مظاهر. فقال لهم: المظاهر غير الظاهر، أم هي هو؟ فإن كانت غيرها؛ فقد قلتم بالثنية، وإن كانت إياها، فلا فرق. وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر وبيَّنَّا حقيقة قول كل واحد منهم، وأن صاحب الفصوص يقول: المعدوم شيء ووجود الحق فاض عليه فيُفَرِقُ بين الوجود والثبوت.

---

(١) أي لا يوجد من يُرى إلا هو، فهو المرئي في كل الأشياء.

(٢) كان أبو سعيد هذا أحد معاصريهم، وكان ملحدًا.

والمعتزلة الذين قالوا: المعدوم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه؛ فإن أولئك قالوا: إنَّ الرب خلق لهذه الأشياء الثابتة في العدم وجودًا ليس هو وجود الرب. وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليها، فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق.

وصاحبه الصدر القونوي يفرق بين المطلق والمعين، لأنه كان أقرب إلى الفلسفة، فلم يقر بأن المعدوم شيء، لكن جعل الحق هو الوجود المطلق، وصنف (مفتاح غيب الجمع والوجود) وهذا القول أَدْخَلُ في تعطيل الخالق وعدَمِه؛ فإن المطلق بشرط الإطلاق ـ وهو الكلي العقلي ـ لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان، والمطلق لا بشرط ـ وهو الكلي الطبيعي ـ وإن قيل إنه موجود في الخارج فلا يوجد في الخارج إلا معينًا، وهو جزء من المعين عند من يقول بثبوته في الخارج، فيلزم: أن يكون وجود الرب إما منتفيًا في الخارج، وإما أن يكون جزءًا من وجود المخلوقات، وإما أن يكون عين وجود المخلوقات.

وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفسه؟ أم العدم يخلق الوجود؟ أو يكون بعض الشيء خالقًا لجميعه؟! وهؤلاء يفرون من لفظ الحلول لأنه يقتضي حالاً ومحلاً، ومن لفظ (الاتحاد)؛ لأنَّه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر، وعندهم الوجود واحد، ويقولون: النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه الله، ولو عمموا لما كفروا.

وكذلك يقولون في عباد الأصنام، إنما أخطؤوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض، فلو عبدوا الجميع؛ لما أخطؤوا عندهم، والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام(١).

---

(١) كقول ابن الفارض:

وإن خر للأصنام في البيد عاكف … فلا تعد بالإنكار للعصبية

وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ففيه ما يلزمهم دائمًا من التناقض؛ لأنه يقال لهم: فمن المخطئ؟ لكنهم يقولون: إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق، ويقولون: إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق، ويقولون ما قاله صاحب الفصوص: «فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب به جميع النعوت الوجودية، والنسب العدمية، سواء كانت[(١)] محمودة عرفًا أو عقلاً أو شرعًا، أو مذمومة عرفًا وعقلاً وشرعًا، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة»[(١)].

وهم مع هذا الكفر العظيم لا يندفع عنهم التناقض؛ فإنه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذاك، وهؤلاء يقولون ما كان يقوله التلمساني: إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل. ويقولون: من أراد التحقيق ـ يعني تحقيقهم ـ فليترك العقل والشرع[(٢)].

وقد قلتُ لمن خاطبته منهم: معلوم أنَّ كشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم، والأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته، لا بما يعرف الناس بعقولهم أنه ممتنع، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول[(٣)]، ويمتنع أن يكون في أخبار الرسول ما يناقض صريح المعقول، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان سواء كانا[(٢)] عقليين أو سمعيين، أو

---

(١) يقول: أن مُسمى الله يوصف به كل محمود، وكل مذموم.

(٢) فما وجه المناظرة والاحتجاج مع من يخالف الشرع والعقل؟

(٣) إن الأنبياء لم يخبروا بشيء مستحيل، ولكنهم أخبروا عن غيبيات لا نعلمها مثل: (الصراط والميزان، والجنة، والنار)، فهذه أشياء مجهولة بالنسبة لنا، فتحتار العقول في تصورها، وأما وجودها فليس بممتنع عقلاً.

---

(١) **الصحيح:** «سواء أكانت محمودة عرفًا أو عقلاً أو شرعًا ..»، والسبب أن (سواء) تأتي بعدها همزة التسوية، ويُعطف عليها بـ (أم)، كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:٦).

(٢) **الصحيح:** «سواء أكانا عقليين أم سمعيين ..».

كان أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا، فكيف بمن ادعى كشفًا يناقض صريح الشرع والعقل؟! وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب، لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج، وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين وتكون من تلبيسات الشياطين.

وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة، ويُقَدِّمون الأولياء على الأنبياء، ويذكرون أن النبوة لم تنقطع، كما يذكر عن ابن سبعين(١) ونحوه، ويجعلون المراتب ثلاثة، يقولون: العبد يشهد أولاً طاعة ومعصية، ثم طاعة بلا معصية، ثم لا طاعة ولا معصية. والشهود الأول هو: الشهود الصحيح، وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي، وأما الشهود الثاني: فيريدون به شهود القدر؛ كما كان بعض هؤلاء يقول: أنا كافر برب يُعصى، وهذا يزعم أن المعصية: مخالفة الإرادة التي هي المشيئة، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة. ويقول شاعرهم:

أصبحت منفعلاً لما تختاره ... مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه؛ فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء: ١٣-١٤)، وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية، والأمر الكوني والديني(٢).

---

(١) ابن سبعين من أوائل من قال بوحدة الوجود منتسبًا إلى الإسلام.

(٢) إن المعصية مخالفة أمر الله الشرعي، وليس مخالفة إرادة الله الكونية؛ فالأمر الشرعي في مثل قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٢). والأمر الكوني في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢). فلو كان الأمر الأول من نفس جنس الثاني لكان كل أحد ساعة وجود الصلاة يجد نفسه قائمًا يصلي كما يدق قلبه أو يجري الدم في عروقه، فلما لم يوجد ذلك علمنا أن الأمر الشرعي =

وكانت هذه المسألة قد اشتبهت على طائفة من الصوفية فبيَّنها الجنيد - رحمه الله - لهم، فمن اتبع الجنيد فيها كان على السداد ومن خالفه ضلَّ، فإنهم تكلموا في أن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته، وفي شهود هذا التوحيد، وهذا يسمونه الجمع الأول[1].

فبيَّن لهم الجُنيد: أنه لابد من شهود الفرق الثاني، وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها مشتركة في مشيئة الله تعالى وقدرته وخلقه فيجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه ويرضاه، وبين ما ينهى عنه ويكرهه ويسخطه ويفرق بين أوليائه وأعدائه، كما قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (القلم: ٣٥-٣٦)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (ص: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية: ٢١)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (غافر: ٥٨).

= متعلق بما يحبه الله ويشرعه، سواء أُوجِدَ أم لم يوجد، وأما الأمر الكوني فمتعلق بما يوجده الله سواءً أحبه أم كرهه، وكذا الفرق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، فلو سأل سائل فلماذا أوجد الله ما لا يحبه ولا يرضاه؟ فالجواب: ذلك لحكمة عظيمة، ومصالح أعظم من مفسدة وجودها، فهو - عَزَّ وجَلَّ - يرتب على وجودها من أنواع الخير الذي يحبه ما لا يوجد إلا بوجود ما يضادها من الشر والمعاصي، فله الحمد على كل حال.

(١) وهو شهود اجتماع الأشياء في كونها صادرة عن مشيئة الله وقدرته وجعله أولاً حسب منازل الطريق التي يسلكه العبد، فهو أولاً يشهد أن كل شيء بمشيئة الله، ثم هو ثانيًا يستحضر الفرق بين ما يحبه الله وما لا يحبه، والحقيقة أن هذا الترتيب ليس بلازم، بل لا يزال المؤمن مشاهدًا لعموم قدرة الله ومشيئته لكل الموجودات مع كونه مستحضراً الفرق بين المشروع وغير المشروع.

ولهذا كان مذهب (سلف الأمة وأئمتها): أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا ربَّ غيره، وهو مع ذلك أَمَرَ بالطاعة، ونهى عن المعصية، وهو لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، وإن كانت واقعة بمشيئته فهو لا يحبها ولا يرضاها، بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم.

وأما المرتبة الثالثة: أن لا يشهد طاعة ولا معصية فإنه يرى أن الوجود واحد، وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله؛ وهو في الحقيقة غاية الإلحاد في أسماء الله وآياته، وغاية العداوة لله؛ فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء.

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١)، ولا يتبرأ من الشرك والأوثان فيخرج عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (الممتحنة: ٤)، وقال الخليل عليه السلام لقومه المشركين: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: ٧٥-٧٧)، وقال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (المجادلة: ٢٢)[١].

---

(١) هذه الآيات البينات من أصرح الأدلة على وجوب التبرؤ من الشرك وأهله، وعلى ظهور العداوة والبغضاء بين المسلمين والكافرين، ولو كانت بينهم روابط القومية والوطنية والعائلية والقبلية أو غيرها، وهي تهدم دعوة (وحدة الأديان) التي يُروَّج لها في زماننا أعظم ترويج، ولأنهم يجدون في المنهج الصوفي الفلسفي بغيتهم فهم يسعون إلى نشره لمحاربة الحق به، وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع أهل الحق لهم بالمرصاد.

وهؤلاء قد صنف بعضهم كتبًا وقصائد على مذهبه، مثل قصيدة ابن الفارض المسماه بـ (نظم السلوك)، يقول فيها:

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلتِ
كلانا مصلٍّ واحد ساجدٌ إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

إلى أن يقول:

ومازلت إياها وإياي لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي صلت
إليَّ رسولاً كنتُ مني مرسلا ... وذاتي بآياتي عليَّ استدلَّت
فإن دُعيت كنتُ المجيبَ وإن أكن ... مناديْ أجابت من دعاني ولبَّت (١)

---

(١) «لها صلواتي»: أي للذات الإلهية صلاتي.

«بالمقام أقيمها»: مقام إبراهيم، وأشهد فيها أنها لي صلت: أي أنا أصلي لها وهي تصلي لي؛ لأن الاثنين شيء واحد في الحقيقة.

«كلانا مصل واحد ساجد»: كل منا حقيقة واحدة، فكل منا يسجد لحقيقته.

«بالجمع): يشهد الجمع أن الكون كله شيء واحد.

«ولم تكن صلاتي لغيري»: أي أنا كنت أصلي لنفسي.

يطلقون على ابن الفارض هذا اسم (سلطان العاشقين)، ويصورونه على أنه رجل في قمة العشق والحب لله، حتى إن بعضهم علق على هذه القصيدة وقال: حينما كنت أقرأ وأنا صغير كنت أقول من هذا العاشق الذي يحب امرأة لهذا الحد، ولم أكن أفهم ثم فهمت بعد ذلك أنه يتكلم عن الذات الإلهية، وأنه يحبها هذا الحب العظيم.

«وإن أكن منادى أجابت»: عندما أنادي أرد على نفسي، وقالت: لبيك فهي تجيبني، لأن نفسه في اعتقاده هي الذات الإلهية.

- ولاشك أن هذا الكلام كفر وردة عن أصل الدين.

إلى أمثال هذا الكلام، ولهذا كان هذا القائل عند الموت يُنشد ويقول:

إن كان منزلتي في الحب عندكمُ ... ما قد لقيتُ فقد ضيَّعْتُ أيامي
أمنيةٌ ظفرت نفسي بها زمنًا ... واليوم أحسَبُها أضغاثَ أحلامِ

فإنه كان يظن أنه هو الله، فلمَّا حضرت ملائكة الله لقبض روحه تبين له بطلان ما كان يظنه[(١)]، وقد قال الله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحديد: ١)، فجميع ما في السموات وما في الأرض يسبح لله، ليس هو الله، ثم قال تعالى: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٢-٣).

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللهمَّ ربَّ السمواتِ السَّبعِ وربَّ العرشِ العظيمِ ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، فالقَ الحبِّ والنَّوى، ومُنزلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ، أعوذُ بك من شرِّ كلِّ دابَّةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتها، أنتَ الأوَّلُ فليسَ قبلكَ شيءٌ، وأنتَ الآخرُ؛ فليسَ بعدكَ شيءٌ، وأنتَ الظَّاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ، وأنتَ الباطنُ فليسَ دونكَ شيءٌ، اقضِ عنِّي الدَّيْنَ وأغْنِنِي منَ الفقْرِ»[(١)]، ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد: ٤).

---

(١) لكي تستمر البدعة والضلالة يقول تلامذته: إنه لم يعاين الذات الإلهية بعينه في اليقظة حتى جاءه الموت فقال هذين البيتين، ما قد لقيت: لم أركم إلى اليوم، فقد ضيعت أيامي وأنه بعدما قالهما أشار لهم بأنه حصل له المطلوب، أي أنه لما عاتب ربه؛ رآه في اليقظة فمات بعدها؛ مع أن عتابه لربه وادعاءه عدم رؤيته إياه في اليقظة ثم رؤيته بعد ذلك يناقض مذهبه في الوحدة، فإنه طول عمره كان يراه في كل شيء على مذهبهم الباطل.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٣).

فذكر سبحانه أن السماوات والأرض ـ وفي موضع آخر ـ (وما بينهما) مخلوق له مسبح له، وأخبر سبحانه أنه يعلم كل شيء.

وأما قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ فلفظ (مع) لا يقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطًا بالآخر كقوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩)، وقوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ ﴾ (الأنفال: ٧٥)، ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة؛ فالعامة في هذه الآية، وفي آية المجادلة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة: ٧)، فافتتح الكلام بالعلم وختمه العلم.

ولهذا قال ابن عباس، والضحاك، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل: هو معهم بعلمه[(١)].

وأما «المعية الخاصة» ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨)، وقوله تعالى لموسى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طه: ٤٦)، وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠)، يعني النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه.

فهو مع موسى وهارون دون فرعون، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين.

فلو كان معنى المعية أنَّه بذاته في كل مكان، تناقض الخبر الخاص والخبر العام، بل المعنى: أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ (الزخرف: ٨٤) أي: هو إله من في السموات، وإله من في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ

(١) انظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (٩٠٨، ٩٠٩)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤٩)، و«تفسير القرآن العظيم» (٨/ ٥٢).

وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم:٢٧)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ (الأنعام:٣)، كما فسره أئمة العلم، كالإمام أحمد وغيره: أنه المعبود في السماوات والأرض(١).

وأجمع سلف الأمة وأئمتها أن الربَّ تعالى بائن من مخلوقاته يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله - عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام - من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يُوصف بصفات الكمال، دون صفات النقص، ويعلم أنه ليس كمثله شيء، ولا كقوله في شيء من صفات الكمال، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ (الإخلاص).

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿الصَّمَدُ﴾ العليم الذي كمل في علمه، العظيم الذي كمل في عظمته، القدير الكامل في قدرته، الحكيم الكامل في حكمته، السيد الكامل في سؤدده(١). وقال ابن مسعود رضي الله عنه(١)، وغيره: هو الذي لا جوف له(٢).

---

(١) أتي المصنف بالآيات المتشابهات التي يمكن أن يحتجوا بها على وحدة الوجود، وبين بردها إلى المحكمات تفسيرها الصحيح.

فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾: دليل على أنه المعبود في السماوات والأرض؛ لأن الإله هو المعبود، وليس أنه بذاته في الأرض. وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾: معناه هو المدعو الله، وهو الإله المعبود في السماوات والأرض.

(٢) وفسرت بأنه: الذي لا يأكل ولا يشرب، وبأنه الذي لم يلد ولم يولد، وبأنه الباقي بعد خلقه، وبأنه نور يتلألأ.

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «جامع البيان» (٣٠/ ٣٤٦)، وأبو الشيخ في «العَظَمَة» (١/ ٣٨٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٥٦، ٩٨) بسندٍ حسنٍ.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٦٦٥)، والطبري في «جامع البيان» (٣٠/ ٣٤٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٠) بسندٍ ضعيفٍ كلهم عن ابن عباس.

و(الأحد): الذي لا نظير له. فاسمه (الصمد) يتضمن اتصافه بصفات الكمال، ونفي النقائص عنه، واسمه (الأحد) يتضمن اتصافه أنه لا مثيل له وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة، وفي كونها تعدل ثلث القرآن.

فصل
في اشتباه الحقائق الأمرية الدينية بالحقائق الخلقية القدرية الكونية (١)

وكثير من الناس تشتبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية، بالحقائق الخلقية القدرية الكونية، فإن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٤).

فهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه، لا خالق غيره، ولا رب سواه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل ما في الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه.

---

(١) الحقيقة القدرية الكونية الخلقية: هي ما خلقه الله وقدر وجوده وكوَّنه بقوله: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾، سواء ما يحبه الله وما يكرهه، فليس كل ما خلق الله وكوَّنه وقدره يحبه ويرضاه ويشرعه، ولذا نؤمن بالقدر خيره وشره، أي الخير الذي قدر الله وجوده، والشر الذي خلق ووجد أيضًا بقدر الله وإيجاده.

أما الحقيقة الدينية فهي: الأمور التي شرعها الله، وأمر عباده أن يفعلوها بإرادتهم ونهاهم عن العصيان فيها؛ فما شرعه الله فهو يحبه، وما نهى عنه فهو يكرهه.

وهو سبحانه: أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية رسله، أمر بالتوحيد والإخلاص، ونهى عن الشرك بالله، فأعظم الحسنات التوحيد، وأعظم السيئات الشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨)، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولُ الله أيُّ الذَّنبِ أعظم عند الله؟ قال: «أن تجْعَلَ لله نداً وهو خلقك»، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «أن تَقْتُلَ ولدكَ مخافةَ أن يَطْعَمَ معكَ»، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «أن تُزاني بِحَليلةِ جارك»[(١)]، فأنزل اللهُ تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦٨-٧٠).

وأمر سبحانه: بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وأخبر أنه يحب المتقين، ويحب المحسنين، ويحب المقسطين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص، وهو يكره ما نهى عنه، كما قال تعالى في سورة «سبحان»: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (الإسراء: ٣٨).

وقد نَهَى عن الشرك، وعقوق الوالدين، وأمر بإيتاء ذي القربى، ونهى عن التبذير وعن التقتير، وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه، وأن يبسطها كل البسط، ونَهَى عن قتل النفس بغير الحق، وعن الزنا، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ... إلى أن قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (الإسراء: ٣٨)، وهو سبحانه: لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر[(١)].

---

(١) فهذا كله من أوضح الأدلة على أن الرضا ليس بمعنى الإرادة، فالله خلق الكفار، وهو لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

الحث على التوبة والاستغفار

والعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائمًا، قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١)، وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنَّه قال: «يا أيها النَّاس تُوبوا إلى اللهِ ربكم، فوالذي نفسي بيدهِ إنِّي لأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليومِ أكثَرَ من سبعين مرةً»[(١)].

وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إنَّه ليُغانُ على قلبِي وإنِّي لأستَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليه في اليومِ مائةَ مرَّةً»[(٢)].

وفي السنن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: «ربِّ اغْفِر لي وتُبْ عليَّ إنَّكَ أنتَ التَّوابُ الرَّحيم» مائة مرة، أو قال: أكثر من مائة مرة[(٣)].

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عبادَه أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار فكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاث ويقول: «اللهمَّ أنتَ السَّلامُ ومنكَ السَّلامُ تباركْتَ يا ذا الجلالِ والإكْرام»[(٤)] [(١)]، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه،

---

(١) إن حقيقة التوبة والاستغفار هي الفرار من الله إليه، إذ إن المعاصي وقعت بقدر الله، لكن الإنسان مأمور بأن يدفعها بقدر آخر هو التوبة، فأنت مأمور بأن تفر من القدر المكروه (وهو المعصية) إلى القدر المحبوب (وهو التوبة والطاعة)، وهذا =

---

(١) حديث صحيح: رواه البخاري (٦٣٠٧)، وأبو داود (١٥١٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥)، والترمذي (٣٢٥٩)، وابن ماجه (٣٨١٥)، والإمام أحمد (٢/ ٤٥، ٤/ ٢٦٠، ٥/ ٣٩٦، ٣٩٧).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢/ ٨٥، ١٥١٦)، والترمذي (٥/ ٤٩٤، ٣٤٣٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٣، ٣٨١٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٥٥٦).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٦٣) وغيره.

وقد قال تعالى: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران: ١٧)، فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار، وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المزمل: ٢٠)، وكذلك في الحجِّ، قال: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٩٨-١٩٩)[(١)].

بل أنزل - سبحانه وتعالى - في آخر الأمر لما غزا النبي ﷺ غزوة تبوك، وهي آخر غزواته: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٧-١١٩)[(٢)]، وهي من آخر ما نزل من القرآن.

= هو الإيمان بالقدر مع الالتزام بالشرع، فكل شيء وقع بقدر الله، ولكن ذلك لا يعني أن ترضى بما لا يرضاه الله من المعاصي، فليس كل القدر أمرت أن تستسلم له، بل القدر المكروه تفر منه إلى القدر المحبوب، بالإنابة والاستغفار، فندفع القدر بالقدر.

(١) فبعد أشرف العبادات الصلاة وقيام الليل والحج والوقوف بعرفة يأمرالله بعدها المؤمنين بالاستغفار.

(٢) فبعد الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام، تنزل الآية: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾، فهذا دليل على أن التوبة من أعلى المقامات، وهي الرجوع والفرار من الله إليه.

وقد قيل: إن آخر سورة نزلت ـ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر)[(١)]. فأمره تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يتأول القرآن[(١)]. وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، لا إله إلا أنت»[(٢)].

وفي الصحيحين: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي؟»، فقال: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِندِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[(٣)].

وفي السنن: عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت؟» فقال: «قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ رَبَّ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إلا أَنتَ أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفْسِي وَمِن شَرِّ الشَّيْطَانِ

---

(١) بعد الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والجهاد وتأسيس الإسلام أمر ﷺ بالاستغفار.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٩٤، ٨١٧، ٤٢٩٣)، ومسلم (٤٨٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٩٨، ٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٨)، ومسلم (٢٧٠٥).

وَشِرْكِهِ وَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ، قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ»(٤) (١).

فليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب، بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائمًا. قال الله تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢-٧٣). فالإنسان ظالمٌ جاهلٌ، وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة، وقد أخبر الله تعالى في كتابه بتوبة عباده المؤمنين والصالحين ومغفرته لهم.

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «وَلا أَنَا، إِلا أَن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»(٢).

وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾(٢) (الحاقة: ٢٤). فإن الرسول ﷺ نفى باء المقابلة والمعادلة، والقرآن أثبت باء السبب.

---

(١) فهو ﷺ يُعَلِّم أفضل أصحابه وأصحاب الأنبياء على الإطلاق الاستغفار في خاتمة أفضل عبادة وهي الصلاة، وفي صباحه ومسائه، وعند نومه.

(٢) أي بسبب الأعمال نِلْتُم الجنة برحمة الله، فالأعمال سبب لنيل الرحمة، والرحمة يدخل بها العبد الجنة، أما أن الأعمال تساوي الجنة فلا، ولا توجبها، فإذا وضعت حسنات الإنسان في مقابل نعم الله عليه، لما كان يستحق شيئًا، وإنما الأعمال سبب لنيل رحمة الله تعالى . . فتنبه لذلك.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٨٩)، والحاكم (١/ ٥١٣)، والدارمي (٢٢٩٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٥). وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٥٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وقول من قال: إذا أحب الله عبدًا لم تضره الذنوب، معناه: أنه إذا أحب عبدًا ألهمه التوبة والاستغفار، فلم يصر على الذنوب، ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال، مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، بل من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره.

احتجاج المذنبين بالقدر

وإنَّما عباده الممدوحون هم المذكورون في قوله: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣-١٣٥).

الرد على المذنبين في احتجاجهم بالقدر

ومن ظنَّ أن القدر حجة لأهل الذنوب؛ فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٤٨)(١).

قال الله تعالى - ردًا عليهم -: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ

---

(١) يقول المشركون: مادام الله تركنا نفعل هذا الشرك؛ فهو يرضاه، فكَذَّبوا بالشرع احتجاجًا بالقدر، وهذا هو الخلط بين القدر الكوني والأمر الشرعي.

فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] (الأنعام:١٤٨-١٤٩). ولو كان القدر حجة لأحد لم يعذب الله المكذبين للرسل، كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكات وقوم فرعون، ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين، ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعًا لهواه بغير هدًى من الله، ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم والعقاب؛ فعليه أن لا يذم أحدًا ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه، بل يستوي عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم؛ فلا يفرق بين من يفعل معه خيرًا ومن يفعل معه شرًا، وهذا ممتنع طبعًا وعقلاً وشرعًا.

---

(١) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أن الله هو الذي أمر بذلك شرعًا، ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ ظنكم الكاذب أن الله شرع ذلك ورضي به، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون وتقولون الباطل، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ بما أرسل به رسله وأنزل به كتبه وبيان ما شرعه لعباده، وما يحبه ويرضاه وما يكرهه وينهى عنه.

ثم قال: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فذكر الإيمان بعموم مشيئته، وأنه لو شاء لهداهم، ذكر ذلك لنؤمن به لا لنحتج به، فكلمة: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ كلمة حق أريد بها باطل، إذ لو شاء الله لهداهم أجمعين، ولو هداهم لما أشركوا، لكن لما أرادوا بذلك ترك الشرع واستباحة مخالفته، وإثبات رضا الله عن الشرك احتجاجًا بالقدر، كان مرادهم أبطل الباطل، والعبد لا يقبل إذا اعتدى عليه أحد أن يقول له: هذا قدر الله، فهذا أمر منافٍ للفطرة؛ لأن الإنسان يكره أن يُعتدى عليه، ويذم من يعتدي عليه.

والطفل الصغير إذا أعطيته حلوى وأضحكته سوف يضحك، وإذا آذيته يبكي، فقد فطر الله البشر على أن يفرق الإنسان بين من فعل معه خيرًا، ومن فعل معه شرًا، فلو كان القدر حجة لما كان هناك فرق بين ما يوجب اللذة وما يوجب الألم، وهذا باطل بالضرورة، ولذلك الاحتجاج بالقدر على الذنوب والمعاصي باطل عقلاً وطبعًا وشرعًا.

وقد قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٨)،.

وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (القلم:٣٥)،.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية:٢١).

وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٥).

وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة:٣٦)، أي: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «احتجَّ آدم وموسى؛ قال موسى: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، أخرجتنا ونفسك من الجنة[(١)]، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده، فبكم وجدت مكتوبًا عليَّ قبل أن أخلق: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾؟ قال: بأربعين سنة، قال: فلم تلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أُخلق بأربعين سنة؟ قال: فحجَّ آدمُ موسى»؛ أي غلبه بالحجة[(١)].

وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان: طائفة كذبت به لما ظنوا أنه يقتضي رفع الذم والعقاب عمن عصى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأجل القدر[(٢)].

---

(١) وفي رواية: «**خيبتنا وأخرجتنا ونفسك من الجنة**».

(٢) هؤلاء هم المعتزلة، كذبوا بالحديث وقالوا: إنه باطل مع أنه في الصحيحين ومتفق على صحته.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

وطائفة شر من هؤلاء يجعلونه حجة [١]، وقد يقولون: القدر حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه [٢]، أو الذين لا يرون أن لهم فعلاً.

ومن الناس من قال: إنما حَجَّه لأنه أبوه [٣]، أو لأنه كان قد تاب [٤]، أو لأن الذنب كان في شريعة، واللوم كان في أخرى [٥]، أو لأن هذا يكون في الدنيا دون الآخرة [٦]، وكل هذا باطل.

---

(١) وهم الجبرية، ومع أنهم أثبتوا الحديث، إلا أنهم شر من الذين كذبوا به؛ لأن الذين كذبوا به إنما أبطلوا حديثًا واحدًا، أما هؤلاء فسوف يبطلون الصلاة والزكاة وحرمة شرب الخمر والزنا، فيبطلون الشريعة بأكملها، لذلك هم شر منهم.

(٢) فبعضهم يقول: إن هذا الأمر خاص بالذين وصلوا لليقين، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩)، فاليقين ليس عندهم هو الموت، كما هو تفسير الآية، ولكنه شهود القدر، فمن يصل إلى هذه الحقيقة فقد سقط عنه التكليف بالشرع، أما الآخر الذي لم يصل فهو المحاسب المكلف، وهذا الكلام من الكفر؛ لأنه يجعل طائفة لا تلزمها الشريعة.

(٣) وهذه حجة ضعيفة؛ لأن الأب لا يكون دائمًا على حق.

(٤) وهذا هو القول الصواب، رغم أن المصنف لم يرجح هذا القول ونسبه إلى البطلان، فآدم عليه السلام احتج بالقدر؛ لأنه قد تاب من الذنب، والمصيبة هو لم يختزها، والذنب بعد التوبة بمنزلة المصيبة. ولكن لا يصح الاحتجاج بالقدر إلا بعد التوبة، فإذا تاب فقد فعل ما وجب عليه، وفر من القدر المكروه إلى القدر المحبوب.

(٥) أي أن الذنب كان في شريعة آدم، واللوم كان في شريعة موسى، وهذا كلام باطل.

(٦) أي أن الاحتجاج بالقدر يمكن في الآخرة، أما في الدنيا فلا.

ولكن وجه الحديث: أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة[١] التي لحقتهم

---

(١) هذا التأويل للحديث فيه نظر، فإن آدم عليه السلام قال لموسى: «**فبكم وجدت مكتوبًا عليَّ قبل أن أخلق؟**: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١). **قال: بأربعين سنة، قال: فلم تلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة**»[١]. هذا دليل على أن موسى عليه السلام كان يلومه على المعصية، وآدم عليه السلام احتج بأن المعصية كتبت عليه قبل خلقه بأربعين سنة.

- وفي رواية في صحيح البخاري أيضًا: «.. **أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك**»[٢].
- وفي رواية في الصحيحين أيضًا: «.. **ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض**»[٣].
- وفي رواية في الصحيحين: «**أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة**»[٤].
- وفي رواية: «**ونهاني عن الشجرة فعصيته**»[٥].

فموسى عليه السلام لامه على المعصية التي ترتبت عليها المصيبة، وإلا فلا يوجد شخص عاقل يلوم أحدًا على مصيبة ليس له يد فيها، هذا فضلاً عن الأنبياء، وموسى عليه السلام أخطأ في لومه لآدم، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «**فحج آدم موسى**»، وهذا فيه أمران: **الأول** ـ مصيبة وقعت. **الثاني** ـ أن هذه المصيبة كانت بسبب معصية.

ولا يمكن أن يلوم موسى عليه السلام آدم عليه السلام على مصيبة مجردة، فقول المصنف في هذا ضعيف جدًا، بل هو لامه من أجل ذنب ترتبت عليه المصيبة، إن آدم في الحقيقة تسبب في الإخراج، أما الإخراج المجرد نفسه فهو مصيبة محضة، وإلا فكان من الممكن أن يكون لها عقاب آخر بدون إخراج، لكن الله هو الذي كتب عليه الإخراج، وآدم عليه السلام لم يقل: فبكم وجدت مكتوبًا عليَّ أني أخرج من الجنة، أو أن أكون موجودًا في الأرض، بل قال: فبكم وجدت مكتوبًا عليَّ قبل أن أخلق: ﴿**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ**﴾، فهذا واضح جدًا.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥٩). (٢) **صحيح**: رواه البخاري (٤٧٣٨).
(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٦٩١٤). (٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٦٩١٥).
(٥) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (٥٠١).

من أجل أكله من الشجرة[١]، فقال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنبًا وتاب منه، فإن موسى عليه السلام يعلم أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وهو قد تاب منه أيضًا، ولو كان آدم عليه السلام يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣)[٢].

الحث على الصبر والاستغفار والرضا بالقضاء

والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلِّم، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب، قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ (غافر: ٥٥)، فأمره بالصبر على

(١) وقول شيخ الإسلام: «التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة» ينقض قوله: «لم يلم إلا على المصيبة».

(٢) يعتقد آدم عليه السلام رفع الملام عن الذنب الذي تاب منه لأنه بقدر، والذنب بعد التوبة بمنزلة المصيبة.

ولو قيل: إن موسى كان أعلم بربه من أن يلوم آدم على ذنب تاب منه، فنقول بالأولى كان موسى أعلم بأن المصيبة لا يمكن أن يلام عليها إلا إذا كانت مترتبة على ذنب.

فمتى يصح الاحتجاج بالقدر على الذنب؟

عندما يتوب العبد توبة مقبولة نصوحًا، وهذا ما حدث من كعب بن مالك، فقد وقع كعب بن مالك رضي الله عنه في معصية، وظل متذكرًا لهذا الذنب ونادمًا عليه، فيقول رضي الله عنه: «فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت! غير أنه لم يقدر لي ذلك»[١]، وهو يعزي نفسه بالقدر، وهو في الوقت نفسه مستحضر حقيقة التوبة، وهي الندم.. فالإنسان إذا تاب من الذنب يمكن له الاحتجاج بالقدر.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

المصائب والاستغفار من المعايب، وقد قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (التغابن: ١١)[(١)]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: **«هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»**[(١)]، فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل: المرض والفقر والذل صبروا لحكم الله، وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم؛ كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي فافتقر أولاده لذلك، فعليهم أن يصبروا لما أصابهم وإذا لاموا الأب لحظوظهم؛ ذُكِرَ لهم القدر.

والصبر واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، والرضا قد قيل أنه واجب، وقيل: إنه مستحب، وهو الصحيح، وأعلى من ذلك أن يشكر الله تعالى على المصيبة بما يرى من إنعام الله عليه بها؛ حيث جعلها سببًا لتكفير خطاياه، ورفع درجاته، وإنابته إلى الله، وتضرعه إليه، وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه له دون المخلوقين[(٢)].

---

(١) هذا دليل على أن المصائب هي التي يحتج فيها بالقدر.

(٢) فائدة: إذا لام الناس رجلاً بعد ما تاب، حق له أن يذكر لهم القدر، ولكن إذا كان لا يزال مصراً على المعاصي، ويحتج لهم بالقدر فإنه يكون مخطئًا، بل هو مذنبٌ ذنبًا أكبر إذا احتج بالقدر، وهو مصر على المعصية، لكن الصحيح أنه إذا تاب وبعد ذلك قال لهم: هذا قدر الله، فهو احتجاج صحيح.

ومن المقطوع به أن الله يقبل التوبة إذا استوفت شروطها، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (طه: ٨٢). أكد بإنَّ وباللام، وهذه متضمنة لمعنى القسم. =

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلى سعيد بن منصور موقوفًا على ابن مسعود (٦/ ٢٧٧)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٧٥)، و«القرطبي» (١٠/ ٦٨٦٥).

. . . .

= لكن كون التوبة يمكن أن لا تقبل فهذا لأنها ليست كاملة؛ لأنه مازال مقيمًا على الذنب، مثل الذي يندم على أنه يدخن، ولكنه لم يقلع عن التـدخين، فهذا لم تحدث منه توبة حقيـقية، فالتوبة لا تقبل لأنـها لم تستوفِ شروطها، نتـيجة لتقصيـر العبد، فحينئذ لا يحتج بالقدر . . ولكننا لا نستطيع أن نجزم أن إنسانًا معينًا قد تاب الله عليه أو لا؟ إلا بوحي؛ لأننا لا نعلم هل استوفت توبته الشروط أم لا.

فائدة: أخذ شخـص مال بالباطل، وقال: إنه تاب، ولم يسـدد المال، وهو قادر على سداده، ولكنه يحتج بالقدر:

إذا كان قادرًا على السداد فلا يصح الاحتجاج بالقدر، أما إذا كان غير قادر على السداد وهو نادم ويطـلب العفو ممن أكل مـالهم بالباطل حـتى يستطيع السـداد فهنا يحتج بالقدر.

فائدة: متى يحتج بالقدر في المصائب:

يحتج بـالقدر في نوعين من المصـائب: المصائب التي ليس للإنسـان دخل فيـها، والمصائب التي له يد فيها، أو تسبب فيها بدرجة ما ولكن بعد توبته.

فإن قيل: قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ (طه:١١٥). فقد كان الأمر نسيانًا، فلم عد ذنبًا؟

والجواب: لأن نسيـان الأنبياء يعـد معصـية في حقـهم، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فائـدة: في مقام الصـبر لا زالت النفس تكره ما أصابها، أما عند الرضـا فلشهود حكمة الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في قدره فإن العبد لا يشـعر بألم المكروه، فيزول الألم بشهود الخير، والحكمـة، والفضل. =

وأما أهل البغي والضلال؛ فتجدهم يحتجون بالقدر إذا أذنبوا واتبعوا أهواءهم، ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذ أنعم الله عليهم بها[(١)]، كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري[(٢)]، أيّ مذهب وافق هواك تمذهبت به!

وأهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة؛ شهدوا إنعام الله عليهم بها، وأنه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين، وجعلهم يقيمون الصلاة، وألهمهم التقوى، وأنه لا حول ولا قوة إلا به؛ فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى[(٣)]، وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها.

= فائدة: الرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا؛ واجب بلاشك، وكذا الرضا بحكم الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ الشرعي، فلابد أن يرضى الإنسان به، أما الرضا المستحب؛ فهو الرضا بالمصائب وهذا قيل: إنَّه واجب، وقيل: إنَّه مستحب وهو الصحيح.

فائدة: الشكر ليس بمجرد تحريك اللسان، وإنما هو بحمد الله على المصائب؛ لأنه يرى فيها نعمة، ويرى في المحنة منحة، فيشكر الله على المنحة، وقد زال عنه شهود ألم المحنة.

(١) كما قال ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عن قوم فرعون: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ (الأعراف: ١٣١).

(٢) عند الطاعة يقول: أنا الذي فعلتها، وعند المعصية يقول: قد كتبت علي.

(٣) العُجب: الإعجاب بالنفس، المن: المن على غيرهم بالطاعة، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الحجرات: ١٧). فضلاً عن أن يَمُن على الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بأن يرى أن له فضلاً على الدين، الأذى: إيذاء من تحته من الخلق.

ففي صحيح البخاري: عن شداد بن أوس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيِّدُ الاستغفار أن يقول العبدُ: اللهمَّ أنتَ ربِّي لا إله إلا أنتَ، خلقْتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بك مِنْ شَرِّ ما صنعتُ، أَبُوءُ لك بِنعمتِكَ عليَّ، وأَبوءُ بِذنبِي؛ فاغْفِر لي؛ فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ. مَن قالها إذا أصبح موقنًا بها فمات من يومِه دخلَ الجنَّةَ، ومن قالها إذا أمسى موقنًا بها فمات من ليلته دخل الجنَّةَ»(١).

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذرٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربِّه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عِبَادِي إنِّي حرمتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَينَكُم مُحرَّمًا؛ فَلا تَظَالموا، يَا عِبَادِي إِنَّكُم تُخْطِئونَ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا(١) وَلا أُبَالِي؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أغْفِر لَكُم. يَا عِبادي كُلُّكُم جَائعٌ إلا مَنْ أطْعَمتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أطْعِمْكُم. يَا عِبَادِي كُلُّكُم عَارٍ إلا مَنْ كَسَوتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُم. يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أهْدِكُم. يَا عِبَادِي لَو أنَّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإنْسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أتْقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَو أنَّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإنْسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيئًا. يَا عِبَادِي لَو أنَّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإنْسَكُم وَجِنَّكُم اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَألُونِي فَأعْطَيتُ كُلَّ إنسَانٍ مَسْألته مِنهُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِندِي؛ إلا كَمَا يَنقص البحْرُ إذَا دَخَلَ فِيه المِخْيطُ غَمسَةً وَاحِدَةً. يَا عِبَادِي إنَّمَا هِي أعْمَالُكُم أُحْصِيهَا لَكُم ثُمَّ أُوَفيكُم إيَاهَا؛ فَمَن وَجَدَ خَيْرًا؛ فَلْيَحمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيرَ ذَلِكَ؛ فَلا يَلومَنَّ إلا نَفْسَه»(٢). فأمر - سبحانه وتعالى - بحمده على ما يجده الإنسان من خير؛ وأنه إذا وجد شرًا فلا يلومنَّ إلا نفسه.

---

(١) فهذا يفيد شهود الخطيئة بالليل والنهار، واستغفار الذنوب فمن وجد خيراً فهو من الله فليحمد الله عليه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٦، ٦٣٢٣).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

الحقيقة الكونية القدرية والحقيقة الدينية الأمرية

وكثير من الناس يتكلم بلسان الحقيقة[(١)]، ولا يفرِّق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته، وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبته، ولا يفرق بين من يقوم بالحقيقة الدينية[(٢)] موافقًا لما أمر الله به على ألسن رسله وبين من يقوم بوجده وذوقه غير معتبر ذلك بالكتاب والسُّنة[(٣)]، كما أن لفظ الشريعة يتكلم به كثير من الناس ولا يفرِّق بين الشرع المنزَّل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسُّنة الذي بعث الله به رسوله ـ فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق خروج عنه، ولا يخرج عنه إلا كافر ـ وبين الشرع الذي هو حكم الحاكم، فإن الحاكم تارةً يصيب، وتارةً يخطئ، هذا إذا كان عالمًا عادلاً، وإلا ففي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «القُضاةُ ثلاثة: قاضيانِ في النَّار، وقاضٍ في الجنَّةِ؛ رجلٌ عَلِمَ الحقَّ وقضى به فهو في الجنَّةِ، ورجلٌ قضى للناس على جهْلٍ؛ فهو في النَّارِ، ورجل عَلِمَ الحقَّ فقضى بخلافِهِ؛ فهو في النَّارِ»[(١)].

---

(١) قوله «كثير من الناس يتكلم بلسان الحقيقة»: يقصد الصوفية المبتدعين.

(٢) الذي يقوم بالحقيقة الدينية، هو الذي يعمل بالشرع.

(٣) يقوم بالوجد: أي يعتمد في عمله على ما يجده في نفسه وما يتذوقه من الأعمال، دون رجوع إلى الكتاب والسنة.

فمثلاً يقول: أنا أجد راحة إلى هذا الأمر، وذقت حلاوته، فهذا غير معتبر بالكتاب والسنة، كمن يزور الأضرحة ويتمسح بها ويصلي عندها معتمداً على راحته وذوقه.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «إرواء الغليل» (٢٦١٤).

وأفضل القضاة العالمين العادلين سيِّد ولد آدم: محمد ﷺ وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «**إنَّكم تَخْتَصِمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكُم أن يكون أَلحَنَ بِحُجَّتِهِ من بعضٍ، وإنَّما أَقضي بنحوِ ممَّا أسمعُ؛ فمَن قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئًا، فلا يأخُذْه؛ فإنَّما أقطعُ له قطعةً مِنَ النَّارِ**»[(١)].

فقد أخبر سيِّد الخلق أنه إذا قضى بشيء مما سمعه وكان في الباطن بخلاف ذلك؛ لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قُضِيَ له به، وأنه إنما يقطع له قطعة من النار.

وهذا متفق عليه بين العلماء في الأملاك المطلقة، إذا حكم الحاكم بما ظنه حجة شرعية كالبينة والإقرار، وكان الباطن بخلاف الظاهر لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قُضى له به باتفاق العلماء، وإن حكم في العقود والفروج بمثل ذلك فأكثر العلماء يقولون: إنَّ الأمر كذلك، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وفرق أبوحنيفة بين النوعين[(١)].

---

(١) اتفق أبو حنيفة مع قول الجمهور في الأملاك المطلقة، مثل أن يدعي رجل مال آخر بالباطل ويأتي بشهود زور، فلو حكم به له لم يجز له أخذه بالاتفاق، أما إذا جاءت امرأة بشهود أن زوجها يؤذيها مثلاً وهي كاذبة فطلقها القاضي للضرر، فقال أبوحنيفة طلقت باطنًا، أما رأي الجمهور: فإنها طلقت ظاهرًا فقط، أما في الباطن فهي مازالت زوجته، فإذا عاملها أي معاملة فهي زوجته. كذلك إذا أُكره رجل على أن يطلق زوجته، يقول أبو حنيفة: إنها طالق، ويقول الجمهور: إن هذا الرجل لم يطلق، وإن هذا الإكراه غير معتبر، والصحيح: قول الجمهور.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

فلفظ الشرع والشريعة إذا أُريد به الكتاب والسُّنَّة لم يكن لأحد لا من أولياء الله ولا غيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقًا إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطنًا وظاهرًا [لم يتابعه باطنًا وظاهرًا] فهو كافر.

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر، كان غالطًا من وجهين:

أحدهما ـ أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثًا إلى الخضر عليه السلام، ولا كان يجب على الخضر عليه السلام اتباعه فإن موسى عليه السلام كان مبعوثًا إلى بني إسرائيل، وأما محمد ﷺ؛ فرسالته عامة لجميع الثقلين: الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر؛ كإبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ وجب عليهم اتباعه، فكيف بالخضر سواء كان[1] نبيًّا أو وليًّا؟! ولهذا قال الخضر لموسى: «**إنِّي على علم من علم الله، علَّمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علَّمكه الله لا أعلمه**»[2]، وليس لأحد من الثقلين الذين بَلَغَتْهُم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا.

الثاني ـ أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفًا لشريعة موسى عليه السلام بل كان موافقًا لها؛ لكن موسى عليه السلام لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك، فلما بينها له وافقه على ذلك، فإنَّه خرق السفينة ورقعها لمصلحة أهلها خوفًا من الظالم أن يأخذها إحسان إليهم، وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيرًا[1]. ومن كان تكفيره لأبويه

---

(١) قوله «وقتل الصائل جائز وإن كان صغيرًا»: هذا الكلام فيه نظر من وجوه:

أولاً ـ أن هذا ليس بصائل، وليس في الكتاب والسنة أنه قد صدر منه اعتداء، وهو دون البلوغ، ولم يَصُل بعد، ولا يجوز قتل الصائل قبل أن يصير صائلاً. =

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) الصحيح: «سواء أكان نبيًّا أو وليًّا ..»، انظر تعليق (ص١٤٣).

لا يندفع إلا بقتله جاز قتله؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما لنجدة الحروري ـ لما سأله عن قتل الغلمان ـ: «**إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام؛ فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم**»[1]، وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع؛ فهذا من صالح الأعمال، فلم يكن في ذلك شيء يخالف شرع الله تعالى.

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم؛ فقد يكون ظالمًا، وقد يكون عدلاً، وقد يكون صوابًا، وقد يكون خطأً[(1)]، وقد يُراد بالشرع أقوال أئمة الفقه؛ كأبي حنيفة، والثوري، ومالك بن أنس، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وداود، وغيرهم[(2)]، فهؤلاء أقوالهم يُحْتَجُ لها بالكتاب والسُّنة، وإذا قلَّد المقلِّد لأحدهم حيث

= ثانيـًا ـ قول ابن عباس لنجدة الحروري، إنما هو تعجيز له، يقول له: إن كنت تعلم الغيب، وأنهم حين يشبون يضرون آباءهم، ويكفرون بأية طريقة كانت، إذًا فاقتلهم.

فهذا الأمر غيبي محض، وهو مخالف لشريعة موسى عليه السلام، ولكنه جائز في شريعة الخضر، والذي يؤكد في قصة الخضر أنه كان على شريعة، قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ (الكهف: ٨٢). وكان في زمن يجوز فيه تعدد الشرائع، أما في زماننا منذ بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة فلا يوجد تعدد للشرائع، فالذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم واجب الاتباع على كل الثقلين الإنس والجن.

(١) يعني فلا يكون استجازة الخروج عليه كفرًا؛ لأن من خرج عليه يتأول أنه ظلم أو أخطأ حكم الشرع المنزل، فلابد من التفرقة.

(٢) هؤلاء الأئمة قد يطلق على مذاهبهم أنها الشرع مجازًا، لكون إصابتهم أكثر من خطئهم ولموافقتهم الشرع في معظم أقوالهم، ولأن قصدهم موافقة الشرع، وما =

---

(١) **اثر صحيح**: رواه مسلم (١٨١٢)، وغيره.

يسوغ ذلك؛ كان جائزًا[1]، وليس اتباع أحدهم واجبًا على جميع الأمة؛ كاتباع

= أخطؤوا فيه فهم متأولون، لكن لا يجوز أن تجعل أقوالهم بمنزلة الكتاب والسنة، بل هي تحتاج إلى أدلة الكتاب والسنة لإثباتها، وما خالف الأدلة منها كان مردودًا كائنًا من كان قائله، فكل يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول ﷺ، فالذين يجعلون الشريعة هي مجموع آراء الفقهاء يجوزون أن ينتقي من أقوالهم بلا دليل بل بمجرد التشهي أو للتسهيل على المستفتين أو لما يتوهمه مصلحة دون ترجيح بالدليل حتى إنهم يجعلون الأقوال المتناقضة كلها من الشريعة، فهؤلاء مخالفون لاتفاق السلف في لزوم اتباع الكتاب والسنة، وعدم مصادمتهما بآراء الرجال، وقد نقل ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ الإجماع على عدم جواز تتبع رخص المذاهب، فالعالم فرضه الاجتهاد، والعامي فرضه سؤال أهل الذكر عن الذكر المنزل، لا عن الشرع المبدل ولا المؤول. وطالب العلم المميز له منزلة الاتباع، فهو يتبع من أقوال العلماء ما وافق ما علمه من الدليل، وذلك فيما جمع أدلته من مسائل.

(١) إنما يسوغ التقليد للمقلد فيما لم يعلم مخالفته للسنة، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «أجمع العلماء على أن من استبانت له السنة فليس له أن يدعها لقول أحد من الناس»، وهذا على عمومه في كل أحد: عالم أو مقلد أو متبع، وكذلك لا يجوز تقليد المفضول عنده، إذا علم أن الأفضل علمًا وورعًا قد خالفه، ولا قدرة له على الترجيح بالدليل؛ فإن المقلد يسعه أن يسأل أي عالم وافقه فاضلاً كان أو مفضولاً عنده، لكن إذا اختلفوا عليه فأفتاه أحدهما مثلاً بالحل والآخر بالحرمة، لم يكن له أن يختار بالتشهي، بل عليه أن يقلد الأوثق في نفسه علمًا وورعًا، ولا يسعه تقليد المفضول في تلك الحال.

الرسول ﷺ[١]، ولا يحرم تقليد أحدهم؛ كما يحرم اتباع من يتكلم بلا علم[٢]. وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة، أو تأويل النصوص بخلاف مراد الله منها ونحو ذلك؛ فهذا من نوع التبديل، فيجب الفرق بين الشَّرع المُنزَّل، والشَّرع المؤوَّل، والشَّرعُ المبدَّل[٣]، كما يفرق بين الحقيقة الكونية، والحقيقة

---

(١) وهذا رد على من يقول بوجوب التمذهب، وأنه لا يسع الناس أن يخرجوا عن مذاهب الأئمة الأربعة، بل يلزم كل مكلف عندهم أن يتبع واحداً منهم، وهذا من التحكم الباطل الذي لم يقل به أحد من المجتهدين، وإنما هو قول المقلدين الذين لا عبرة بأقوالهم، إذ يستحيل أن يجدوا دليلاً من الكتاب أو السنة أو الإجماع على تعيين هؤلاء الأربعة أو أحد منهم.

(٢) فالتمذهب جائز بشرط عدم التعصب المذموم، وبشرط اتباع الحق إذا ظهر له، وليس بمحرم كما ذهب إليه بعض المعاصرين، فهؤلاء الأئمة من أهل الذكر، وقد أمر الله بسؤالهم، فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء:٧). ولا يلزم المكلف أن يسأل أحدهم تارة وغيره أخرى، بل يسعه أن يسأل نفس العالم عن كل مسألة تحدث له مادام عالمًا مجتهداً، فالتمذهب بشروطه جائز، ليس بلازم ولا محرم.

(٣) **الشرع المبدل:** هو ما خالف أدلة الكتاب والسنة والإجماع والقياس الجلي، وإن نسبه قائله إلى الشرع.

الشرع المؤول: هو ما أخطأ فيه عالم بسبب التأويل، مثل الأئمة الذين ذكر أسماءهم فيما أخطؤوا فيه.

الشرع المنزل: هو الكتاب والسنة، وهو الذي لا يجوز لأحد أن يخرج عنه، وإن اعتقد أحد جواز ذلك كان كافراً.

الدينية الأمرية، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسُّنة، وبين ما يكتفي فيها بذوق صاحبها ووجده[١].

فصل

في أن الله ذكر في كتابه الفرق بين الإرادة والأمر وغيرهما

وقد بيَّن الله تعالى في كتابه الفرق بين الإرادة[٢] والأمر والقضاء، والإذن والتحريم، والبعث والإرسال، والكلام والجعل، بين الكوني الذي خلقه وقدَّره وقضاه، وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يرضاه ولا يثيب أصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأحبه ورضيه وأحبَّ فاعليه وأثابهم وأكرمهم، وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين، وهذا من أعظم الفروق التي يُفرَّق بها بين أولياء الله وأعدائه، فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك؛ كان من أوليائه، ومن كان عمله ما يبغضه الربُّ ويكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه[٣].

---

(١) إن الحقيقة الدينية الشرعية لابد أن يكون عليها دليل، فأي قول أو طريقة أو حال أو عمل لابد أن يستدل عليه بالكتاب والسنة، أما أن يستدل عليه بالذوق والوجد فهذا لا يجوز.

(٢) وردت الإرادة في الكتاب والسنة على نوعين: إرادة كونية وإرادة شرعية، وكذلك الأمر: أمر كوني وأمر شرعي، والإذن: إذن كوني وإذن شرعي، والقضاء: قضاء كوني وقضاء شرعي، والجعل: جعل كوني وجعل شرعي. والإرادة الكونية هي: إرادة التكوين والخلق والإيجاد، أما الإرادة الشرعية فهي: الأمر الشرعي الذي أمر به الله وأحبه وأثاب عليه.

(٣) إن تفريق الإنسان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان يكون بناءً على الطاعة والمعصية؛ لأن كثيراً من الناس يعتقد في شخص معين أنه من أولياء الله حتى إذا =

الإرادة الكونية والإرادة الدينية

فالإرادة الكونية: هي مشيئته لما خلقه، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته[١].

والإرادة الدينية: هي المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعًا ودينًا. وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى في الأولى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)[٢].

= كان مخالفًا لرسله، بل حتى إذا كان كافرًا، وإذا أتى بالفواحش والمنكرات، فهم يظنون أن جريان بعض الخوارق للعادات هو دليل على الولاية، وليس الأمر كذلك.

فمن يطع الإرادة الشرعية الدينية وينفذها ومات على ذلك فهذا هو الولي، وأما من يخالفها ومات على ذلك فهذا هو العدو.

(١) المخلوقات خيرها وشرها داخلة تحت مشيئة الله وأوجدها الله بقدرته، ولذلك نقول في الإيمان بالقدر: نؤمن بالقدر خيره وشره، فالله قدر وجود الخير وقدر وجود الشر، ولا نقول: إن الشر خارج عن قضاء الله وقدره، إن الشر واقع بقضاء الله، وهو مخلوق من مخلوقاته مثل إبليس فهو أحد مخلوقات الله، وهو يعترف بهذه الحقيقة ويقول: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢). ولكن إبليس شر، وهو مصدر الوسوسة بفعل الشر في الناس، وهذا هو تقدير الله، ولكنه لا يحب إبليس ولا أفعاله ولا يحب من يستجيب إلى وسوسته، فمحبته سبحانه ليست شاملة لجميع المخلوقات، بل للخير فقط؛ لأن الله يحب الإيمان والعمل الصالح والمتقين ويحب المحسنين.

(٢) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ (الأنعام: ١٢٥): يقول تعالى: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان، =

. . . .

= وقال في قــوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥): الحرج هو الذي لا يتــسع لشيء من الهدي، ولا يخــلص إليه شيء مما ينفعــه من الإيمان ولا ينفذ إليه، وقــد سأل عمــر بن الخطاب ﷺ رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة، فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. وذكر ابــن عباس في قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ قال: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه.

فالإرادة فــي الآية هي إرادة الله الكونية في هداية من شــاء، فيـشرح الله صــدره للإسلام حتى يحـبه ويرضاه ويلتزم به، فالشــرح فعل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وهو أن يخلق الهداية في قلب عبده المؤمن، والإسلام هو شرعه الذي أراده من العباد، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ فــهذه إرادته الكونيــة في إضلال من شــاء فيـضيق الله صــدره حتى لا يجـد الإسلام إليــه مدخلاً كأنه كلف بالمســتحيل كالصــعود في السماء، وقــد بيَّن الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في الآية لماذا فـعل بهم ذلك، فقــال: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام١٢٥). فإنهم لــما كفروا بالحق أول مــا جاءهم ولم يؤمنوا بــه جعل الله الظنون النجســة في قلوبهم حتى غطتها وعلتــها، ولذا قال: ﴿عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾، فإن الرجس في قلوبهم، لكنه لما زاد صار عليها، وهذا الجعل منه سبحانه جعل كوني قدري بعدله وحكمته.

وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ (هود: ٣٤)[(١)].

---

(١) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي: إغواءكم ودماركم، ففي هذه الآية دليل على أن الله يريد إغواء أناس وإضلالهم وليس هذا ظلمًا منه ـ عزَّ وجلَّ ـ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦)؛ وذلك لأن إرادة الإغواء وقعت فيهم من خلال عملهم وقدرتهم وإرادتهم، فإن الله أعطاهم عقولاً وقوة وسمعًا وبصرًا وإرادة وقدرة، وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبلغهم الحق فأعرضوا عنه بإرادتهم المخلوقة وقدرتهم التي خلقها الله فيهم ولم يُكرههم ـ عزَّ وجلَّ ـ على أفعالهم، فلله الحجة البالغة، وهو يتصرف في ملكه بالحكمة والعدل، ولو زالت إرادة إنسان أو قدرته أو عقله أو لم يبلغه خبر رسله لما عذبه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

يبقى أن يسأل سائل: فلماذا أراد الله إضلال قوم وإغواءهم وهُدى غيرهم؟

فالجواب: أن ذلك بعلمه وحكمته وفضله ورحمته، فهو أعلم بالظالمين وأعلم بالشاكرين وأعلم حيث يجعل رسالته، وما وضع الأشياء إلا في مواضعها التي تناسبها، ولا يصح في الفطر السليمة وضع البذر الطيب في الأرض الخبيثة التي لا تنبت، بل يكون ذلك سفهًا وعبثًا، والناس دائرون بين العدل والفضل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فمن اهتدى فبفضله ومن ضل فبعدله، لا يخرج أبدًا إلى الظلم، فالحد الأدنى من العطاء هو العدل، مع وجود قدرة وإرادة وعقل وبلوغ شرع ثم الفضل الله أعلم بمواقعه.

فائدة: هل يمكننا أن نقول: إن العبد إذا أراد الهداية أرادها الله له؟

الجواب: قد قال الله تعالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (التكوير: ٢٨-٢٩). ولم يقل: وما يشاء الله إلا أن تشاؤوا، فمشيئة الله =

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد: ١١)[(١)].

وقال في الثانية[(٢)]: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وقال في آية الطهارة: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة: ٦)[(٣)].

= قطعًا سابقة على مشيئة العبد، وليست تابعة لها، ولكن العبد إذا اهتدى زاده الله هدى، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (محمد: ١٧)، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

(١) هذه الآية دليل صريح على أن هناك قومًا يريد الله بهم سوءًا، وهذا يبطل كلام القدرية النفاة من المعتزلة ومن وافقهم من أن الله لا يريد إلا الخير، نعم الله لا يريد شرعًا إلا الخير، فالله لا يأمرنا إلا بالخير، ولا ينهانا إلا عن الشر، والشرور التي حدثت فبإرادته سبحانه الكونيةَ، وهي شرور نسبية، أي: بالنسبة إلى من فعلها ورضي بها، ثم يرتب الله عليها من أنواع الخير ما لا يحصيه غيره.

(٢) هذه الإرادة الشرعية، ولو كانت هذه الإرادة من جنس الإرادة الأولى الكونية ما وجد عسر في الدنيا، فتكون الدنيا كلها يسرًا، ولا يضيق شيءٌ على الإنسان، لكن معنى الآية: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ أي: في الشريعة، وهذا في الصيام، وهو حكم شرعي، فهذا الأمر متعلق بالشريعة.

(٣) ﴿ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾: إرادة شرعية.

ولما ذكر الله تعالى ما أحلَّه وما حرَّمه من النكاح قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٦-٢٨)[(١)].

وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي ﷺ وما نهاهنَّ عنه قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، والمعنى: أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس ويطهركم، فمن أطاع أمره كان مطهرًا قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه.

الأمر الكوني والأمر الديني

وأما الأمر فقال تعالى في الأمر الكوني: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل: ٤٠)[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (القمر: ٥٠)[(٣)]،

---

(١) ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾: هذه إرادة شرعية، فلو كانت من جنس قوله تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾ (يس: ٨٢)، لتاب الناس جميعًا، ولما وجد إنسان مذنب أبدًا أو مات وهو مصر على ذنب، بل لن يفعل أحدٌ الذنوب أصلاً؛ لأن الله يقول: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾، فلو كانت إرادة هداية الخلق إرادة كونية لما تخلف هذا الأمر.

(٢) سُمي الأمر الكوني من معنى التكوين الذي دلت عليه كلمة: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل: ٤٠).

(٣) إنَّ الله لا يقول للشيء: «كن» مرتين، بل مرة واحدة، فيقع الأمر كما قال: ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾، أما البشر فقد يحتاج الشخص أن يقول الأمر أكثر من مرة وقد يغيره، وقوله: ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ هذا تشبيه لتقريب الصورة، ولكنه أسرع من لمح البصر.

وقال تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ (يونس: ٢٤)[١].

وأما الأمر الديني؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).

الإذن الكوني والإذن الديني

وأما الإذن؛ فقال في الكوني ـ لما ذكر السحر ـ: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٠٢)[٢] أي: بمشيئته وقدرته، وإلا فالسحر لم يبحه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وقال في الإذن الديني: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى: ٢١)[٣].

---

(١) قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ (يونس: ٢٤)، فهذا أمر كوني من الله بإهلاك القرى الظالمة، وللتفريق بين النوعين من أوامره، تدبر في الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣)، وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (الحج: ٧٨)، وبين النوع الآخر نحو قوله للمنافقين: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة: ٤٦)، فالأمر الشرعي كان: ﴿وَجَاهِدُوا﴾ والكوني: ﴿اقْعُدُوا﴾، وكذا قوله لإبليس: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ (الأعراف: ١٨)، فهذا ليس أمر تشريع، بل أمر قدري كوني.

(٢) حرَّم الله السحر ونهى عنه شرعًا، ولكن أذن في وجوده وحصول الضرر به كونًا.

(٣) هذا الشرك الذي وقع في التشريع كان بإذن الله الكوني، كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١١٢)، ولم يكن بإذنه الشرعي، =

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦)، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤)[١]، وقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٥)[٢].

القضاء الكوني والقضاء الديني

وأما القضاء فقال في الكوني: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ١٢)، وقال سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (مريم: ٣٥)، وقال في الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣) أي: أنه أمر، وليس المراد به قدر ذلك، فإنه قد عُبِدَ غيره، كما أخبر في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، وقول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٧٥-٧٧)، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ

= قال تعالى: ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى: ٢١) أي: شرعًا، بإذنه أي: بإذن الله الشرعي؛ فأنت لا تستأذن بشراً كي تؤمن أو تدعو إلى الله، بل الله هو الذي أذن شرعًا، أما الذي يدعي أنه لابد أن يُستأذَن في طاعة الله والإيمان به، إذن فهو فرعون أو مثله، يريد أن يستأذنه الناس قبل الإيمان، ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (طه: ٧١).

(١) ﴿لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: اجتمع فيه الإذنان إذن الله الشرعي، وإذنه الكوني.

(٢) عندما أمر الرسول ﷺ أن يقطع نخل بني النضير ليرغمهم على الاستسلام، قالوا: كيف يأمر محمد بالفساد، فأخبر الله أنه أذن له في ذلك، فهو مأمور به شرعًا وهذا إذن الله الشرعي، فليس القطع في هذه الحالة فسادًا، بل هو صلاح، لما يترتب عليه من الخير.

أبدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة: ٤)، وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥﴾ (الكافرون: ١-٥)[1]، وهذه كلمة تقتضي براءته من دينهم ولا تقتضي رضاه بذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٤١).

---

(١) هذا دليل على أن هناك من يعبد غير الله، لأن ابن عربي في تفسير قوله. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فسرها بالقضاء الكوني، فكل من عبد شيئًا فقد عبد الله، فالقرآن أثبت أنهم يعبدون غير الله، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: هذا دليل على براءته التامة منهم، وأنهم كفار لذلك، ويستحيل أن يكون الاثنان واحدًا، فعقيدة وحدة الأديان، أو المساواة بين المعبودات، وأن الأديان كلها جوهرها واحد كما يقولون، عقيدة كفرية لأنها تسوي بين من يعبد الله، ومن يعبد غيره، تسوي بين من يعبد بوذا، أو يقول: أن المسيح هو الله، وبين من يقول: لا إله إلا الله، وهم يظنون أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ معناه أنتم على حق، ونحن على حق، ويظل كل شخص كما هو، ولكنهم إذا تأملوا أولها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فأطلق عليهم اسم (الكافرون)، ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، فهذا معناه البراءة التامة، إن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ليس معناها تصحيح دينهم كما نصحح ديننا أو أن اليهود والنصارى والمسلمين جميعهم متماثلون، والبعض يدخل أهل الملل الكافرة الأخرى، بل معناها أن الدينين لا يجتمعان أبدًا، إن اعتقاد وحدة الأديان هو اختراع يهودي لتدمير كل الأديان، عدا دينهم الذين يتمسكون به، وإلا فهم ينظرون إلى الأمم كلها على أنهم عبد العبيد لهم، فهم يعملون على نشر هذه الملة الكافرة لكي يفسدوا دين أهل الإسلام.

ومَن ظن من الملاحدة أن هذا رضى منه بدين الكفار؛ فهو من أكذب الناس وأكفرهم، كمن ظن أن قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بمعنى: قدرَّ، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع، وجعل عُبَّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله؛ فإن هذا من أعظم الناس كفرًا بالكتب كلها.

البعث الكوني والبعث الديني

وأما لفظ البعث؛ فقال تعالى في البعث الكوني: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ (الإسراء: ٥)(١).

---

(١) هذه الآية في البعث الكوني لا الشرعي، لأن بختنصر الذي دمر بيت المقدس أول مرة، كان كافرًا، سلطه الله على بني إسرائيل رغم كفره لإفسادهم في الأرض، كما هو معلوم من التاريخ، وليس قوله تعالى: ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ على معنى المدح لهم، بل على المعنى العام للعبودية، فهم من خلق الله، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (الإسراء: ٧) أي: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميرًا، ولو كانوا مؤمنين لما دمروا المسجد ولما خربوه، وهو داخل في ضمن ما علوا عليه ودمروه تدميرًا، كما ذكر أهل السير، وتدمير المسجد الأقصى، وهو مسجد بني على التوحيد، وهو ثاني مسجد في الأرض بعد المسجد الحرام، كما ثبت في الحديث الصحيح: عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «**المَسْجِدُ الحَرَامُ**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المَسْجِدُ الأَقْصَى**»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «**أَرْبَعُونَ سَنَةً**»(١).

فتدميره عمل محرم، ولكن كان عقابًا من الله لبني إسرائيل على إفسادهم وبغيهم، كأخذ اليهود لفلسطين في زماننا هذا، فهم كفار مشركون سلطهم الله على المسلمين عقابًا لهم على تقصيرهم وتضييع دينهم، وقد ظن بعض المعاصرين أن الآيات =

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (١١٨٩).

وقال في البعث الديني: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)[(١)].

الإرسال الكوني والإرسال الديني

وأما لفظ الإرسال؛ فقال في الإرسال الكوني: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (مريم: ٨٣)[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (الفرقان: ٤٨).

= مقصود بها المسلمون، وليس كذلك فإن المسلمين حين دخلوا المسجد في عهد عمر رضي الله عنه لم يتبروا ما علوا تتبيراً، ولا دمروا البلد، وحين دخلوا بيت المقدس في عهد صلاح الدين كذلك طهروا المسجد وبنوه أحسن بناء، وإذا دخل المسلمون بيت المقدس، وهم داخلوه إن شاء الله ومطهروه من دنس اليهود، فلن يتبروا ولن يدمروا بل سوف يعظمون حرمات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، معنى: جاسوا: أي: ترددوا في دياركم في كل نواحيها، وفي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ (الإسراء:٨) دليل على أن البلايا التي تصيب الأمم المسلمة المقصرة تكون رحمة لها وتخفيفًا عليها، وأما الكافرون إذا أصابتهم البلايا فهي عذاب من الله عليهم في الدنيا مع ما ادخر الله لهم من عذاب الآخرة.

(١) قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ دليل على أن هذا البعث بعث شرعي، أي: أرسل الله الرسل بشرعه، وأمرهم أن يبلغوه للناس، ليعمل الناس به، فمنهم من يؤمن ويهديه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ومنهم من يكفر، وحقت عليه الضلالة.

(٢) ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وإرسال الشياطين ليس كإرسال الرسل، بل إن الله أرسل الشياطين على الكافرين، أي: أطلقهم كي يفسدوهم، ولكي يحركوهم إلى المعاصي، فهذا إرسال كوني.

وقال في الديني: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (الأحزاب: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (نوح: ١)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ (المزمل: ١٥)، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٥).

الجعل الكوني والديني

وأما لفظ الجعل؛ فقال في الكوني: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ (القصص: ٤١)[(١)].

وقال في الديني: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ ﴾ (المائدة: ١٠٣)[(٢)].

التحريم الكوني والتحريم الديني

وأما لفظ التحريم: فقال في الكوني: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ (القصص: ١٢)[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ (المائدة: ٢٦).

وقال في الديني: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (المائدة: ٣)، وقال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾ (النساء: ٢٣).

---

(١) قوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ هذا عن فرعون وملئه، فهذا الجعل جعل كوني قدري، لم يشرع الله الدعوة إلى النار لا بالقول ولا بالاقتداء.

(٢) ما جعل من بحيرة ولا سائبة، أي: ما شرع.

(٣) لم يخاطب الله موسى شرعًا بتحريم المراضع وهو طفل بل كان دون التكليف، فالتحريم هنا تحريم قدري كوني بامتناعه من قبول ثدي أي امرأة غير أمه.

الكلمات الكونية والكلمات الدينية

وأما لفظ الكلمات؛ فقال في الكلمات الكونية: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ (التحريم: ١٢)[(١)].

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أعوذ بكلماتِ اللهِ التامَّةِ كلِّها من شرِّ غضبه وعقابه، وشرِّ عباده، ومن شرِّ همزات الشياطين وأن يحضرون»[(١)]، وقال ﷺ: «مَن نزَلَ مَنزلاً؛ فقال: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شرِّ ما خلقَ؛ لم يضُرَّه شيءٌ حتَّى يرتحلَ من مَنزِله ذلك»[(٢)]، وكان يقول: «أعوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر[(٢)]، ومِن شرِّ ما ذرأ وبرأ، ومِن شرِّ ما ينزل مِن السماء وما يعرج فيها، ومِن شرِّ ما ذرأ في الأرض، ومِن شرِّ ما يخرج منها ومن شرِّ فتَنِ اللَّيلِ والنَّهَارِ، ومِن شرِّ كل طارِق، إلا طارِقًا يطرق بخير يا رحمن»[(٣)]، وكلمات الله التامات التي لا يتجاوزهم برٌّ ولا فاجرٌ: هي التي كوَّن بها الكائنات، فلا يخرج برٌّ ولا فاجرٌ عن تكوينه ومشيئته وقدرته، وأما كلماته الدينية وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه؛ فأطاعها الأبرار وعصاها الفجار.

---

(١) ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾: هذه الآية تحتمل أن يكون المراد بها: الكلمات الشرعية.

(٢) أولياء الله لا يجاوزون كلماته الشرعية، أما الكفار فيجاوزنها ويخالفونها، أما الكلمات الكونية، فلا يجاوزهن بر ولا فاجر، ولا يوجد من يستطيع الخروج عليها، ولكن هناك من خرج على شرع الله، والفسق هو الخروج عن الشرع.

---

(١) الذي في الصحيح الحديث الذي بعده وأما هذا اللفظ فقد أخرجه أبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، والإمام أحمد (٢/ ١٨١)، وحسنه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٠١).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٠٨)، والترمذي (٣٤٣٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٨٣٨) عن خالد بن الوليد، والحديث بنحوه صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤) مع اختلاف ألفاظه.

وأولياء الله المتقون: هم المطيعون لكلماته الدينية، وجعله الديني، وإذنه الديني، وإرادته الدينية. وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجرٌ؛ فإنه يدخل تحتها جميع الخلق، حتى إبليس وجنوده، وجميع الكفار، وسائر من يدخل النار، فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم؛ فقد افترقوا في الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب.

وأولياؤه المتقون هم الذين فعلوا المأمور وتركوا المحظور وصبروا على المقدور، فأحبهم وأحبوه، ورضي عنهم ورضوا عنه.

وأعداؤه أولياء الشيطان وإن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم ويمقتهم ويغضب عليهم ويلعنهم ويعاديهم، وبَسْطُ هذه الجمل له موضع آخر، وإنما كتبتُ هنا تنبيهًا على مجامع الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وجمع الفرق بينهما اعتبارهم بموافقة رسول الله ﷺ فإنه هو الذي فرَّق الله به بين أوليائه السعداء وأعدائه الأشقياء، وبين أوليائه أهل الجنة، وأعدائه أهل النار، وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد، وبين أعدائه أهل الغي والفساد والضلال، وأعدائه حزب الشياطين وأوليائه الذين كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢).

وقال في أعدائه: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (الأنعام: ١٢١)، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢)، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٧)، وقال تعالى: ﴿ فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسول كريم (٤٠) وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون (٤١) ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون (٤٢) تنزيل من رب العالمين (٤٣) ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧) وإنه لتذكرة للمتقين (٤٨) وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩) وإنه لحسرة على الكافرين (٥٠) وإنه لحق اليقين (٥١) فسبح باسم ربك العظيم ﴾ (الحاقة: ٣٨-٥٢)، وقال تعالى: ﴿ فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ إلى قوله: ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ (الطور: ٢٩-٣٤)[1].

فنزَّه سبحانه وتعالى نبيَّنا محمدًا ﷺ عمن تقترن به الشياطين من الكهان والشعراء والمجانين، وبيَّن أن الذي جاءه بالقرآن مَلَكٌ كريم اصطفاه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ (الحج: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين (١٩٢) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥)، وقال تعالى: ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ (البقرة: ٩٧)، وقال تعالى: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٨) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٩٩) إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٠٠) وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا

---

(١) هذه صفات أولياء الشيطان، فهم يجادلون بالباطل، وهم أعداء الرسل، يشير بعضهم على بعض بالمزخرف الباطل، ليغر بعضهم بعضًا، هم الأفاكون، الآثمون، الذين يكذبون، وكذا الغاوون المتبعون للشعر الباطل، المكذبون لرسل الله، ومنهم كذلك السحرة والكهان، وكل من يكذب بالقرآن.

يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٩٨-١٠٢)، فسماه الروح الأمين، وسماه روح القدس.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (التكوير: ١٥-١٩)، يعني: الكواكب التي تكون في السماء، خانسة؛ أي مختفية قبل طلوعها، فإذا ظهرت؛ رآها الناس جارية في السماء، فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذي يحجبها، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أي: إذا أدبر وأقبل الصبح، ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي: أقبل، ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هو جبريل عليه السلام، ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (التكوير: ٢٠-٢١) أي: مطاع في السماء ثم أمين، ثم قال: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير: ٢٢) أي: صاحبكم الذي منَّ الله عليكم به، إذ بعث إليكم رسولاً من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٨-٩)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أي: رأى جبريل عليه السلام، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ ﴾ (التكوير: ٢٣-٢٤) أي: بمتهم[(١)]، وفي القراءة الأخرى: ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ أي: ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بُجعْلٍ، كما يفعل من يكتم العلم إلا بعوض، ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ (التكوير: ٢٥)، فنزه جبريل عليه السلام عن أن يكون شيطانًا، كما نزَّه محمدًا ﷺ عن أن يكون شاعرًا أو كاهنًا.

فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بيَّن لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم الله بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم محجة في الدين، أو لحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك.

---

(١) هذا على قراءة: ﴿ بِظَنِينٍ ﴾ والظنين: المتهم.

مطلب
في أن كرامات أولياء الله إنما حصلت باتباع الرسول ﷺ

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ مثل: انشقاق القمر[(١)]، وتسبيح الحصى في كفه[(٢)]، وإتيان الشجرة إليه[(٣)]، وحنين الجذع إليه[(٤)]، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس[(٥)]، وإخباره بما كان وما يكون[(٦)]، وإتيانه بالكتاب العزيز.

ومثل: تكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما أشبع في الخندق العسكر من قدر الطعام، وهو لم ينقص[(٧)]، وروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص[(٨)]، وحديث أم سُليم المشهور بمثل ذلك[(٩)]، ولما همُّوا بنحر الظهور فجمع الأزواد ودعا الله تعالى فما بقى في القوم إلا من ملأ وعاءه، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفًا[(١٠)]، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة[(١١)]، ورده لعين قتادة حين سالت على خده، فرجعت أحسن عينيه[(١٢)]، ولما

---

(١) متفق عليه: القصة رواها البخاري (٣٦٣٦)،(٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٠-٢٨٠٣) من طرق متعددة.

(٢) ضعيف: ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: «فيه محمد بن أبي حميد وهو ضعيف»، وكتاب «علامات النبوة بتسبيح الحصى» ثم قال: «رواه البزار بإسنادين ورجاله أحدهما ثقات».

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٣٠١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٩٥، ٣٥٨٣).

(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٦، ٤٧١٠)، ومسلم (١٥٦) (١٧٠).

(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٢١٦/ ٢٨٩١).

(٧) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٠١)، ومسلم (٢٠٣٩).

(٨) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٤/ ٤٤٨) (٣٥٧١)، ومسلم (٦٨٢).

(٩) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٦/ ٥٣٨١)، ومسلم (١٦١٢/ ٢٠٤٠).

(١٠) أخرجه مسلم (٧٠٦) (٥٥/ ٢٧).

(١١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٨١/ ٣٥٧٦)، ومسلم (١٤٨٣/ ١٨٥٦).

(١٢) ضعيف: أخرجه أبي يعلى في «مسنده»، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد: «فيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف» (٨/ ٢٩٧).

أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف، فوقع وانكسرت رجله فمسحها بيده الكريمة فبرأت(١)، وأطعم من سواد بطن مائة وثلاثين رجلاً كلاً منهم حز له قطعة، وجعل منها قطعتين، فأكلوا منها جميعهم، ثم فضل فضلة(٢)، وقضى دَيْنَ عبد الله (أبي جابر) لليهودي وهو ثلاثون وسقًا(٣)، قال جابر: فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذي كان له فأبى؛ فجدَّ وجعل يُبادر، فمشى فيها رسول الله ﷺ ثم قال لجابر: «جدّ له»، فوفاه الثلاثين وسقًا وفضل سبعة عشر وسقًا، ومثل هذا كثير، قد جمعت نحو ألف معجزة(١).

مطلب
في ذكر طرف من كرامات الصحابة والتابعين

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدًا مثل: ما كان أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج، وهي الملائكة تتنزل تستمع لقراءته(٤)، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين(٥)،

---

(١) راجع كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) للمؤلف، في بيان معجزاته ﷺ، وهذه المعجزات ثابتة بالتواتر والنقل الصحيح الثابت، وهي معجزات حسية مشهودة، بالإضافة إلى المعجزة الكبرى والعظمى الباقية الخالدة القرآن العظيم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣٩)، وفيها: أن عبد الله بن عتيك هو الذي انكسرت رجله لا محمد بن مسلمة.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦١٨).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢١٢٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (١٨٩٥)، وأحمد (٣/ ٨١)، وابن حبان (١٧١٦)، والحاكم (١/ ٥٥٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٢٤). والمذكور في القصة هو أنه ﷺ كان يقرأ سورة البقرة لا الكهف.

(٥) انظر: «الإصابة» (٣/ ٢٧).

وكان سلمان الفارسي وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبَّحت الصحفة وسبح ما فيها، وعباد بن بشير وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط، فلما افترقا افترق الضوء معهما، رواه البخاري وغيره[١].

وقصة الصِّدِّيق في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا رأى من أسفلها أكثر منها، فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله ﷺ فجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها[٢].

وخبيب بن عدي كان أسيرًا عند المشركين بمكة (شرفها الله تعالى)، وكان يؤتى بعنب يأكله، وليس بمكة عنبة[٣]، وعامر بن فهيرة قُتِلَ شهيدًا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قُتل رُفِعَ فرآه عامر بن الطفيل وقد رُفِعَ، قال عروة: فيرون أن الملائكة رفعته[٤].

وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر، وكانت صائمة، سمعت حسًا على رأسها فرفعته، فإذا دلو برشاء أبيض معلق، فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها[٥].

وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسدَ أنه مولى رسول الله ﷺ فمشى معه الأسدُ حتى أوصله إلى مقصدة[٦].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٨٠٥).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦١٨، ٢٣٨٥)، ومسلم (٢٠٥٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) أخرجه البخاري (٤٠٩٣)، وعند ابن إسحاق في «السيرة» (٣/ ١٦٧).
(٥) انظر «الطبقات الكبرى» (٨/ ٢٥٩).
(٦) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/ ٦٠٦)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

والبراء بن مالك[١] : كان إذا أقسم على الله تعالى أبرَّ قسمه[٢]، وكان الحرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء أقسم على ربك، فيقول: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، فينهزم العدو، فلما كان يوم القادسية قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وجعلتني أول شهيد، فمنحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيدًا.

وخالد بن الوليد: حاصر حصنًا[٣] منيعًا، فقالوا: لا نسلِّم حتى تشرب السمَّ، فشربه فلم يضره.

وسعد بن أبي وقاص: كان مستجاب الدعوة[٤]، ما دعا قط إلا استجيب له، وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما أرسل جيشًا أمَّر عليهم رجلاً يسمى: سارية، فبينما عمرُ يخطبُ فجعل يصيح: يا سارية الجبلَ، يا سارية الجبلَ الجبلَ، فقدم رسول الجيش فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين، لقينا عدونا فهزمونا، فإذا بصائح: يا سارية الجبلَ، يا ساريةَ الجبلَ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله[٥].

ولما عُذبت الزنيرة على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام، وذهب بصرها، قال المشركون: ما أصاب بصرَها إلا اللات والعزى، قالت: كلا والله، فردَّ اللهُ عليها بصرها[٦].

---

(١) فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: **«كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك»** رواه الترمذي (٣٨٥٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٤٤٩).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٦٩٢/ ٣٨٥٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٩).

(٣) أخرجه الطبراني (٣٨٠٨، ٣٨٠٩)، وقال الهيثمي بعدما ذكر قصة خالد: رواه أبو يعلى والطبراني بنحو، وأحد رجالها رجال الصحيح وهو مرسل، ورجالهما ثقات إلا أن أبا السفر وأبا بُردة لما يسمعا من خالد». انظر «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٥٠)، قال: سليم الهلالي: وهو صحيح.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٥/٦٤٩/ ٣٧٥٢)، والحاكم (٣/ ٤٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٥٠). ولقد دعا له النبي ﷺ كما أخرجه الترمذي عن سعد أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهمَّ استجب لسعد إذ دعاك»**.

(٥) صحيح: أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣٧٠)، وابن عساكر (٧/٦/١ و١٣/٦٣/٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١١٠).

(٦) انظر «الإصابة» (٤/ ٣١١).

ودعا سعيد بن زيد على أروي بنت الحكم فأُعمي بصرها لما كذبت عليه، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعمّ بصرها، واقتلها في أرضها، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت[(١)].

وكان العلاء بن الحضرمي عامل رسول الله ﷺ على البحرين، وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حليم يا عليُّ يا عظيم فيُستجاب له، ودعا الله تعالى بأن يسقوا ويتوضؤا لمَّا عَدِمُوا الماء، ولا يبقى لما بعدهم، فتوضأ ودعا فأُجيب، ودعا الله تعالى لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم، فمروا كلهم هو والعسكر بخيولهم على الماء وما ابتلت سروج خيولهم، ودعا الله تعالى أن لا يروا جسده إذا مات؛ فلم يجدوه في اللحد[(٢)].

وجرى مثل ذلك في البحر لأبي مسلم الخولاني الذي أُلقي في النار، فإنه مشي هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمى بالخشب من مدها، فالتفت إلى أصحابه فقال: هل تفقدون من متاعكم شيئًا حتى أدعو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة، فقال: اتبعني، فأتبعه فوجدها قد علقت بشيء فأخذها، وطلبه الأسود العنسي لما ادَّعى النبوة، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، فأمر بنار فأُلقى فيها فوجدوه قائمًا يصلي فيها، وقد صارت عليه بردًا وسلامًا، وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد ﷺ من فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الله[(٣)]، ووضعت له جاريته السمَّ في طعامه فأكله فلم يضره وخببت عليه امرأة زوجته فدعا عليها؛ فعميت، فجاءت وتابت، فدعا لها الله تعالى لها فردَّ عليها بصرها[(٤)].

---

(١) خبر صحيح: أخرجه مسلم (١٦١٠)، وأحمد (١/ ١٨٩).
(٢) انظر «التاريخ» لابن الأثير (٢/ ٢٤٩)، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٣٣٧).
(٣) انظر «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ٤٢٦، ٤٢٧).
(٤) انظر «صفة الصفوة» (٤/ ٤٢٩).

وكان عامر بن عبد القيس يأخذُ عطاءه ألفي درهم في كمه، وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد، ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها، ومر بقافلة قد حبسهم الأسد، فجاءه حتى مس بثيابه فم الأسد، ثم وضع رجله على عنقه، وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن، وإني أستحي من الله أن أخاف شيئًا غيره، ومرت القافلة، ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء، فكان يؤتى بالماء له بخار، ودعا ربَّه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة؛ فلم يقدر عليه الشيطان[(١)].

وتغيب الحسن البصري عن الحجاج، فدخلوا عليه ست مرات، فدعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلم يروه، ودعا على بعض الخوارج، كان يؤذيهم فخر ميتًا.

وصلة بن أشيم: مات فرسه وهو في الغزو، فقال: اللهمَّ لا تجعل لمخلوق عليَّ منة، ودعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فأحياه له، فلما وصل إلى بيته قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية، فأخذ سرجه فمات الفرس، وجاع مرة بالأهواز فدعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واستطعمه، فوقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير، فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانًا، وجاءه الأسد وهو يصلي في غيطه[(١)] بالليل، فلمَّا سلم قال له: اطلب الرزق من غير هذا الموضع، فولى الأسد وله زئير[(٢)].

وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يَسْمعُ الأذان من قبر النبي ﷺ في أوقات الصلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبق فيه غيره[(٣)].

---

(١) غيطة: مجموعة شجر.

---

(١) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/١١٦، ١١٩، ١٢٠).
(٢) انظر «صفة الصفوة» (٤/١٥٢).
(٣) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٥/١٥٦-١٥٧).

ورجل من النخع كان له حمار فمات في الطريق، فقال أصحابه: هلمَّ نتوزع متاعك على رحالنا، فقال لهم: أمهلوني هنيهة، ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى؛ فأحيا له حماره، فحمل عليه متاعه.

ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانًا لم تكن معه قبل، ووجدوا له قبرًا محفورًا فيه لحد في صخرة، فدفنوه فيه، وكفنوه في تلك الأثواب[١].

وكان عمرو بن عتبة بن فرقد يُصلي يومًا في شدة الحر فأظلته غمامة، وكان السبع يحيمه وهو يرعى ركابَ أصحابه؛ لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم[٢].

وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة، فأضاء لهما طرف السوط[٣].

ولما مات الأحنف بن قيس، وقعت قلنسوة رجل في قبره؛ فأهوي ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مدَّ البصر[٤].

وكان إبراهيم التيمي يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئًا، وخرج يمتار لأهله طعامًا فلم يقدر عليه فمر بسلة حمراء فأخذ منها فرجع إلى أهله ففتحوها، فإذا هي حنطة حمراء، وكان إذا زرع منه تخرج السنبلة من أصلها إلي فرعها حبًا متراكبًا.

وكان عتبة الغلام سأل ربه ثلاث خصال: صوتًا حسنًا، ودمعًا غزيرًا، وطعامًا من غير تكلف، فكان إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعه جارية دهره، وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه؟!.

---

(١) انظر «صفة الصفوة» (٣/ ٣٧).
(٢) انظر «صفة الصفوة» (٣/ ٤٧).
(٣) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ١٦٧، ١٦٨).
(٤) لم أقف عليه.

وكان عبد الواحد بن زياد أصابه الفالج[(١)]، فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء، فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ثم تعود بعده[(١)].

وهذا باب واسع، وقد بُسِطَ الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع، وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه في هذا الزمان فكثير.

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج؛ أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه متسغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته[(٢)]، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة، بخلاف من تجري على يديه الخوارق لهداية الخلق أو لحاجتهم، فهؤلاء أعظم درجة.

---

(١) **الفالج:** الشلل النصفي.

(٢) المقصود بالكرامة هنا: خوراق العادات، ولا تدل هذه على ارتفاع المنزلة عمن لم تأته هذه الخوارق، فلا يلزم لكون الرجل من أولياء الله، أن تأتيه الخوارق، فقد لا تأتيه الخوارق، وهو من أعظم أولياء الله، وممن لاشك في ولايتهم الأئمة الكبار ممن أجمعت الأمة على الثناء عليهم: كمالك، والشافعي، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبي حنيفة، ومن المعلوم أن أكثرهم لم تكن هناك خوارق عادات تجري على أيديهم، لا لنقص الولاية، بل لاستغنائهم عن ذلك، ومن الصحابة من بشر بالجنة ولم تأتِه خوارق، فأعظم الكرامة الهداية إلى الصراط المستقيم والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، وأعلى الكشف الكشف عن الحق، وأفضل الإلهام إلهام الرشد.

---

(١) انظر «صفة الصفوة» (٣/ ٢٣١).

أهل الأحوال الشيطانية

هذا بخلاف الأحوال الشيطانية؛ مثل حال عبد الله بن صياد [١] الذي ظهر في

(١) الذي ثبت في صحيح مسلم أن اسمه صافي بن صياد، روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ فمررنا بصبيان فيهم ابن صياد ففر الصبيان وجلس ابن صياد، فكأن رسول الله ﷺ كره ذلك، فقال له النبي ﷺ: **«تَرِبَتْ يَدَاكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ»**، فقال: لا بل تشهد أني رسول الله، فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله حتى أقتله، فقال رسول الله ﷺ: **«إِنْ يَكُن الذي تَرَى فلنْ تَسْتَطيعَ قتله»** [١]، أي: لو كان الدجال لما استطعت قتله، وفي الرواية الأخرى، فقال رسول الله ﷺ: **«قدْ خَبَأْتُ لكَ خَبيئًا»**، فقال: الدُخُّ، فقال رسول الله ﷺ: **«اخسَأ فلنْ تَعدُو قدْرَكَ»** أي: قدر الكهان والمنجمين وقرناء الشياطين، وروى عن أبي سعيد، قال: لقيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر في بعض طرق المدينة، فقال رسول الله ﷺ: **«أتشهد أنِّي رسول الله؟»**، فقال هو: أتشهد أني رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ: **«آمنت بالله وملائكته وكتبه، ما ترى»**، قال: أرى عرشًا على الماء، فقال رسول الله ﷺ: **«ترى عرش إبليس على البحر، وما ترى؟»**، قال: أرى صادقين وكاذبًا أو كاذبين وصادقًا، فقال رسول الله ﷺ: **«لبس عليه دعوه»** [٢].

وروي أيضًا عن أبي سعيد الخدري قال: صحبت ابن صائد إلى مكة، فقال لي: أما قد لقيت من الناس يزعمون أني الدجال، ألست سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنه لا يولد له»**، قال: فقد ولد لي، أو ليس سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل المدينة ولا مكة؟»**، قلت: بلى، قال: فقد ولدت بالمدينة، وها أنا ذا أريد مكة، =

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٥٢٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٥٣٠).

زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال[(١)]، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال[(٢)]، لكنه كان من جنس الكهان، وقال له النبي ﷺ: «قد خبأتُ لكَ خبئًا»، قال: الدخ الدخ، وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدْرَكَ»[(١)]؛ يعني: إنما أنت من إخوان الكهان.

= ثم قال لي آخر قوله: أما والله إني لأعلم مولده ومكانه وأين هو، قال: فلبسني، وفي رواية: ألم يقل نبي الله ﷺ: «إنه يهودي»[(٢)]، وقد أسلمت، وفي رواية: والله إني لأعلم الآن حيث هو وأعرف أباه وأمه، قال: وقيل له: أيسرك أنك ذاك الرجل، قال: لو عرض علي ما كرهت، وهذا دليل على نفاقه إذ يرضى أن يكون الدجال، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه، قال للرسول ﷺ: أشهد أنك رسول الأميين.

(١) كان عمر رضي الله عنه يقسم أن ابن صياد هو الدجال.

(٢) يعني بذلك حديث تميم الداري، وأن النبي ﷺ صدق فيما أخبره أن الدجال موجود في إحدى الجزر في البحر جهة المشرق، وهذا يتنافى مع كونه ابن صياد، وكان ابن صياد دجالاً من الدجالين، ولكن ليس هو المسيح الدجال، وإن كان قد أخبر أنه يعرف الدجال وأمه وأباه ويعرف مولده ومخرجه وأين هو الآن، وكان يأتيه صادق، وكاذب، كما يقول، فقال النبي ﷺ: «لُبس عليه» يأتيه قرين من الجن، أو قرناء واحد يصدق كثيرًا، وواحد يكذب كثيرًا، فقال ﷺ: «لُبس عليه»، وقال: أرى عرشًا على الماء، يظن أنه عرش الرحمن، فقال: «يرى عرش إبليس على الماء أي على البحر»، وعرش الرحمن ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الماء، (وكان عرشه على الماء)، ولكن هذا تلبيس على ابن صياد، لأنه لا يدري الحقائق، فيظن أن ما يراه من تلبيسات =

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٠). (٢) صحيح: رواه مسلم (٧٥٣٣).

والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشيطان يخبره بكثير من المغيبات مما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب؛ كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تنزل في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قد قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[(١)].

وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ في نفرٍ من الأنصار إذ رُمِي بنجم فاستنار، فقال النبي ﷺ: «ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟»، قالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يُولد عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «فإنَّه لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إذا قضى أمرًا سبَّح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء، ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربُّنا؟، فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، وتخطف الشياطين السمع؛ فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون»[(٢)].

= الشياطين أنها أحوال رحمانية، كما ظن بعض أهل الضلال أنه رأى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وإنما رأى الشيطان.

ربما تحدث النبي ﷺ بشيء من ذلك لبعض أصحابه، فلم يلتقط الجني إلا (الدخ) فألقاها إلى ابن صياد، فلم يعرف ما خبأه له النبي ﷺ، إلا ما سمعه من القرين، وهو الدخ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٨٨)، ومسلم بنحوه (٢٢٢٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

وفي رواية: قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكنها غلظت حين بعث الله النبيَّ ﷺ(١) (١).

والأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره؛ فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذَّاب، كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات، ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان، وادَّعى النبوة، وكانت الشياطين تخرج رجله من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا نقرها بيده، وكان يرى الناس بجبل قاسيون رجالاً ركبانًا على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جنًا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه فطعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله فسمِّ واطعنه، فقتله.

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردهم، مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكلَّه النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة

---

(١) قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ (الجن: ٨-٩)، فلما بعث النبي ﷺ زيدت حراسة السماء، حراسة منعت سماع الجن، حماية للوحي لكي لا يصل منه شيء إلى أحد الكهان، وكانت الشياطين تسترق السمع ليخبروا ببعض هذه المغيبات.

---

(١) انظر «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٢٣٧، ٢٣٨).

وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟»، فيقول زعم أن لا يعود، فيقول: «إنه سيعود»، فلما كان في المرة الثالثة قال له: دعني حتَّى أعلمك ما ينفعك، إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال: «صدقك وهو كذوب»[(١)]، وأخبر أنه شيطان.

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها؛ مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أو يحضر سماع المُكاء والتصدية[(١)]، فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه بكلام لا يعلم به وربما لا يفقهه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة، كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسي الذي حصل له الحال لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، ولبسه وتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال، ولهذا قد يضرب المصروع ضربًا كثيرًا قد يقتل مثله الإنسي أو يمرضه لو كان هو المضروب، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي، ويخبر إذا أفاق أنه ما شعر به؛ لأن الضرب كان على الجنِّ الذي التبسه[(٢)]

---

(١) التصفيق والتصفير.

(٢) اعتقاد أهل السنة إمكان صرع الجني للإنسي كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وإنكار ذلك بدعة من قول المعتزلة، ولكن لابد من التنبه إلى الفرق بين الأمراض النفسية وبين صرع الجني، فإن أكثر الناس يغلطون في ذلك، حتى جعل بعضهم أكثر الناس قد لبسهم الجن، ونسبوا كل الأعراض والأمراض إليهم، كفعل أهل الجاهلية، فتنبه . .

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠) ـ مُعلقًا ـ، ووصله النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٥٨، ٩٥٩)، و«فضائل القرآن» (٤٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٢٤)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٩٥)، وغيرهم بسند صحيح.

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في الموضع[١]، ومنهم من يطير به الجني إلى مكة أو إلى بيت المقدس وغيرهما[٢].

---

(١) مثل من يأتيه الجن بمال، وفي الغالب يكون مالاً مسروقًا، ومن هذه الأحوال الشيطانية ما أخبرني به بعض أخواننا أنه طار أحد النعوش في إحدى الجنازات حتى أوقع من يحملونه على الأرض، وعندما قرأ عليه أحدهم آية الكرسي ساروا بالنعش إلى المقابر بدون اضطراب، وقيل: كان يراد أن تكون لهذه الجنازة ضريح ومقام.

(٢) هذا من المباحات، أن يذهب الرجل إلى مكة بل هو مستحب، وكذلك الذهاب إلى بيت المقدس، والإتيان بأطعمة وأشربة، ولكن المصنف عدها من الأحوال الشيطانية، فهذا دليل على أن مقصده في الكلام على الاستعانة بالجني أنه إذا فعل شيئًا من غير طلب، وكان أمرًا مباحًا جاز لنا أن ننتفع به، وليس لنا أن نطلب من الجني أن يفعل شيئًا، ولا أن نستخبره عن أشياء حتى إذا أخبرنا بأشياء قبلناها ونحن لا نعرف صدقه من كذبه، وقد يكون حاله الفسق، والفجور فضلاً عن الكفر والنفاق، فيكون كذابًا، فلابد أن نتبين أولاً، وخصوصًا لمن يكلم الجن على لسان المصروع، فقد يتهم بعض الأشخاص زورًا بأنه يأتي السحرة والكهان فيظلمه.

والجني سواء أكان مسلمًا أم كافرًا، لا تجوز الاستعانة به ولا سؤاله، فالمباحات لا فرق فيها بين المسلم والكافر، وذلك أن بعض المخدوعين أو المخادعين، يدّعون أن معهم جنًا مسلمًا، يستعينون به ويستخبرونه فيعاونهم ويخبرهم، وادعاء إسلامه لا يغير من الأمر شيئًا، وإنما يذكرون ذلك تلبيسًا على الجهال، فإن الاستعانة بالمخلوق الغائب لا تجوز، قال النبي ﷺ: **«إذا سألتَ فاسألْ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستَعنْ باللهِ»**[١]، والجن غيب بالنسبة لنا، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ**﴾ (الأعراف:٢٧)، =

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٧٩٥٧)، وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ.

= ورؤية البعض في أحوال خاصة لا تغير الأصل، والذي يتكلم عن لسان المصروع قد يكون من الجن، وقد يكون المصروع نفسه، إذ بعض الأمراض النفسانية تشتبه بالمس والصرع، والتنويم المغناطيسي هذا يستحضر الجن، وليس من فرق بين هذه الاستعانة وبين قول المشركين إذ نزلوا واديًا: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، والتي نزل فيها قول الله تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا** ﴾ (الجن:٦)، وقد كان أحدهم يرى أدلة حضور الجن في الوادي من نقل متاعه ونحو ذلك مما يرعبونهم به.

فليس وجود دليل يظن به حضور الجن بمبيح لنا الاستعاذة بهم في أمور مباحة بزعمهم، ولاشك أن إرادة عدم الأذى من نقل المتاع وقلب الأمور ونحو ذلك من المباح، وكذلك الدلالة على مكان الضالة والشيء المسروق فهو حق لصاحبه، وقد عد العلماء ذلك داخلاً في عموم قول النبي ﷺ: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا، فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»[1]، فقالوا في العراف: هو الذي يدل على مكان الضالة والشيء المسروق بمقدمات وأمور يدعيها وقد يصدق أحيانًا، ولكن ذلك لا يجوز تصديقه، فكيف نترك هذه الأدلة الواضحة لكلام محتمل لشيخ الإسلام، فهم منه جواز الاستعاذة بالجن في الأمور المباحة، ومقتضى كلامه استحبابه في المستحبات، وقد أوضح شيخ الإسلام مقصده بهذا الكلام في هذا الموضع، وعد ذلك من الأحوال الشيطانية، فبين لنا أن مقصده الانتفاع بما يخبر به الجن، إذا كان عندنا ما نعرف به صدقه من كذبه، أو أن ننتفع بما فعلوه من غير استعانة ولا استعاذة ولا استخبار على وجه التصديق لخبره، كان الرسول ﷺ يسأل ابن صياد من يأتيه ويستخبره، لا ليعرف منه الغيب، ولكن ليعرف حقيقة ابن صياد نفسه، ويعلم صدقه من كذبه ومن يأتيه. =

(١) صحيح: صححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (٥٩٣٩).

ومنهم من تحمله عشية عرفة، ثم تعيده من ليلته، ولا يحج حجًا شرعيًا، بل يذهب بثيابه ولا يحرم إذا جاء الميقات ولا يلبي، ولا يبيت، ولا يقف بمزدلفة، ولا يطوف بالبيت، ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمي بالجمرات، بل يقف بعرفة بثيابه، ثم يرجع من ليلته، وهذا ليس بحج مشروع باتفاق المسلمين، بل هو كمن يأتي الجمعة ويصلي بغير وضوء أو إلى غير القبلة.

ومن هؤلاء المحمولين من حُمِلَ مرة إلى عرفات ورجع، فرأى في النوم ملائكة يكتبون الحجاج، فقال: ألا تكتبوني؟ فقالوا: لست من الحجاج؛ يعني: لم تحج حجًا شرعيًا.

الفروق بين الكرامات والأحوال الشيطانية

وبين كرامات الأولياء وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة، منها: أن كرامات أولياء الله تعالى سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية يكون سببها ما نهى الله عنه ورسوله، ويستعان بها على ما نهى الله عنه ورسوله(١).

= فالذي عنده قدرة وعلم ومعرفة، يستطيع أن يسأل هذا الجني على لسان المصروع، أو حتى إذا تمثل له في صورة، يسأله امتحانًا له، ولا طلبًا لإخبار غيبيات كما يفعل كثيرٌ من الناس، ولو صرح شيخ الإسلام بما يدعونه لكان اتباع الدليل مقدمًا على كلامه ـ رحمه الله ـ، فكل يؤخذ من قوله، ويترك إلا رسول الله ﷺ، وقد يحتجون بآثار ضعيفة عن الصحابة وغيرهم، لا تثبت عنهم، فلا حجة فيها، وهذا الباب من ذرائع الشرك والبدع، إن لم يكن منها بالفعل، ويجب سده وإغلاقه، حتى لا يختلط إخوان الكهان بمن يدعى الالتزام والله وحده المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) لذلك يعرف الإنسان من حاله، إذا كان تقيًا ملتزمًا بالكتاب والسنة، وعلى طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أم على خلاف ذلك، فإذا وجدناه عاصيًا يضيع الصلوات، أو يرتكب المحرمات فلنعلم أن أحواله شيطانية.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣)، فالقول على الله بغير علم، والشرك، والظلم، والفواحش، قد حرمها الله تعالى ورسوله؛ فلا تكون سببًا لكرامة الله تعالى، ولا يستعان بالكرامات عليها.

وإنما كانت تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء لا تحصَّل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك؛ كالاستعانة بالمخلوقات، إذاكانت مما يُستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش؛ فهي من الأحوال الشيطانية، لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المُكاء والتصدية[(١)] يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار، فإذاحضر رجل من أولياء الله؛ طرد شيطانه فيسقط؛ كما جرى هذا لغير واحد[(٢)].

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إمَّا حي أو ميت، سواء كان ذلك المخلوق مسلمًا أو نصرانيًا أو مشركًا،ن فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ويقضي بعض حاجات ذلك المستغيث؛ فيظن أنه ذلك الشخص، أو هو مَلك تصور على صورته، وإنما هو شيطان أضله لمَّا أشرك بالله؛ كما كانت الشياطين تدخل في الأصنام وتكلم المشركين، ومن هؤلاء من يُتصور له الشيطان ويقول له: أنا الخضر[(٣)]، وربما أخبره ببعض الأمور، وأعانه على بعض مطالبه؛ كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهودوالنصارى.

---

(١) المكاء: الصفير، التصدية: التصفيق، مثل حضرات الذكر الصوفية المبتدعة.

(٢) إذا وجد رجل صالح يقرأ آية الكرسي مثلاً، فالشيطان يهرب عند سماعها.

(٣) يُجمع أهل البدع علي حياة الخضر ووجوده بيننا، وأنه يلتقي بهم في الموالد الكبرى مثل البدوي والدسوقي، وأن هذا معلوم عندهم بالقطع واليقين، والكشف، وهذا الكشف كشف شيطاني، فهم قد رأوا شيطانًا قال لهم: أنا الخضر، وإلا فهم =

---

(١) الصحيح: «سواء أكان ذلك المخلوق مسلمًا أم نصرانيًا أم مشركًا ...»، انظر تعليق (ص١٤٣).

وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب يموت لأحدهم الميت، فيأتيه الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت، ويقضي الديون ويرد الودائع ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل إلى زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار؛ كما تصنع كفار الهند، فيظنون أنه عاش بعد موته.

ومن هؤلاء شيخ كان بمصر، أوصى خادمه فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحدًا يغسلني، فأنا أجيء وأغسِّل نفسي، فلما مات رأىٰ خادمه شخصًا في صورته، فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله أي غسل الميت غاب، وكان ذلك شيطانًا، وكان قد أضل الميت، وقال: إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضًا في صورته؛ ليغوي الأحياء، كم أغوى الميت قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشًا في الهواء وفوقه نور، أو قائل ويقول: أنا ربك، فإن كان من أهل المعرفة؛ علم أنه شيطان فزجره، واستعاذ بالله منه؛ فيزول ذلك. ومنهم من يرى أشخاصًا في اليقظة، يدعي أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين، ويكون من الشياطين، وقد جرى هذا لغير واحد منهم.

= لم يروا الخضر قبل ذلك كي يتعرفوا عليه ويعلموا أن هذا هو صاحب موسى عليه السلام، والتعلق بالخضر خصوصًا لأجل ما في قصته مع موسى عليه السلام مما قد يتوهم فيه مخالفة ظاهر الشرع لعلمه بالأحوال الباطنة، ومعلوم أن الخضر كان على شريعة غير شريعة موسى، ولم يكن موسى رسولاً إليه، فلا يصح الاستدلال بها على الخروج عن شرع محمد صلى الله عليه وسلم لمن له العلم بالأحوال العلوية، بل من ادعى جواز الخروج عن شرع الله لأي أحد كائنًا من كان فهو كافر. ثم الصحيح أن الخضر قد مات كما دل الحديث الصحيح عند مسلم وغيره: **«أرأيتم ليلتكم هذه فإنَّ على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»**(١).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٦)، ومسلم (٦٦٤٢).

وهؤلاء منهم من يرى ذلك عند قبر من يزوره، فيرى القبر قد انشق وخرج إليه صورة يعتقده الميت، وإنما هو جني تصور في تلك الصورة، ومنهم من يرى فارسًا قد خرج من القبر، ودخل في القبر ـ وكان ذلك شيطانًا ـ وسئل مَنْ؟ قال: إنه رأى شيئًا بعين رأسه ـ وهو صادق ـ فما رأى إلا جنيًا.

ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر؛ إما الصديق رضي الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته وثوبه، فيصبح وعلى رأسه طاقية، وشعره محلوق أو مقصوص، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصوه.

وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة، وهم درجات والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وعلى مذهبهم، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ، فإن كان الإنسي كافرًا أو فاسقًا أو جاهلاً؛ دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر، مثل: الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم، ومثل: أن يكتب أسماء الله تعالى أو بعض كلامه بالنجاسة[(١)]، أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسي، أو غيرهن، ويكتبها بنجاسة، فيغورون له الماء وينقلونه بسبب ما تضلهم به من الكفر، وقد يأتونه بمن يهواه من امرأة أو صبي في الهواء مرفوعًا ملجأً إلى عنده، إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها. والإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت[(٢)]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٥١) ...الآية، والجبت:

---

(١) وكذلك من يكتب القرآن بالمني، ويطلق عليه السحر السفلي.

(٢) الإيمان بهذه الأمور ليس معناه مجرد التصديق بوجودها، بل معناه الرضا بها والعمل بها واعتبارها حقًا أو ولاية أو قربة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

السِّحْر، والطاغوت: الشياطين والأصنام، وإن كان الرجل مطيعًا لله ورسوله ظاهرًا وباطنًا؛ لم يمكنهم إلا الدخول معه في ذلك أو مسالمته(١).

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله؛ كان عُمَّار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية، وكان أهل الشرك والبدع الذين يعظمون القبور ومشاهد الموتى؛ فيدعون الميت(٢)، أو يدعون به(٣)، أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب أقرب إلى الأحوال الشيطانية؛ فإنه ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لعنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ»(١).

وثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال: «إن مِن أمَنِّ(٤) الناس عليَّ في صحبته وذات يده أبو بكر، ولو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً

---

(١) يعني إما أن تنقاد الشياطين له فيدخلوا معه في طاعة الله ويسلموا معه لله رب العالمين، أو أن يسالموه فلا يؤذوه ولا يضروه؛ لأن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن آذوه حاربهم الله وانتقم منهم، فلا يجدون بدًا من مسالمته والبعد عنه.

(٢) يدعون الميت من دون الله، كمن يقول للميت أغثني يا سيدي فلان واشف مريضي واقض حاجتي، ومثل من يطلب منهم المدد، وهذا هو الشرك الأكبر.

(٣) يدعون به أي: يتوسلون به في دعائهم لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، إما على سبيل الإقسام به على الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، والقسم بالمخلوق شرك، وإما على سبيل التوسل المبتدع وهو ذريعة إلى الشرك، فهو شرك أصغر.

(٤) «إن من أمَنِّ» أي: أكثرهم مِنَّةً وفضلاً، والمن لله ورسوله ﷺ، وإنما قاله النبي ﷺ لبيان فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (١٢١٢).

لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت، إلا خوخة أبي بكر[(١)]، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنِّي أنهاكم عن ذلك»[(١)] [(٢)].

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه ذُكِرَ له في مرضه كنيسة بأرض الحبشة وذكروا من حسنها وتصاوير فيها، فقال: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيها تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»[(٢)].

وفي المسند وصحيح أبي حاتم عنه ﷺ قال: «إنَّ من شِرارِ الناسِ من تُدركهم السَّاعةُ وهم أحياءٌ، والذين يتخذوا القبورَ مساجدَ»[(٣)]، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا تجلسوا على القبورِ، ولا تُصلُّوا إليها»[(٤)]، وفي الموطأ عنه ﷺ أنه قال: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»[(٥)].

---

(١) الخوخة: الباب من البيت إلى المسجد، وفي هذا إشارة إلى استخلاف أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) هذا الحديث رد فيه النبي ﷺ على الرافضة الذين يطعنون في أبي بكر، وعلى الجهمية الذين ينفون صفات الله تعالى ومنها: المحبة واتخاذ بعض خلقه خليلاً، والخلة شدة المحبة، وفيه رد أيضًا على الصوفية المعظمين للقبور المغالين في الصالحين.

---

(١) صحيح: أخرج البخاري (٣٦٥٤) بعضه، ومسلم (٥٣٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٧٣)، ومسلم (٥٢٨).

(٣) صحيح: رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٢١٩٢)، وابن حبان (٣٤٠، ٣٤١)، وابن أبي شيبة (٤/ ١٤٠)، والإمام أحمد (١/ ٤٣٥)، وقال شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (ص١٥٨): إسناده جيد، وقال الهيثمي (٢/ ٢٧): إسناده حسن.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٢).

(٥) صحيح لغيره: أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٧٢)، والحميدي (١٠٢٥)، وللمزيد انظر: «تحذير الساجد» للشيخ الألباني (ص١٨).

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ حيثما كنتم؛ فإنَّ صلاتَكم تبلغني»[(١)]، وقال ﷺ: «ما مِن رجل مسلمٍ يُصلِّي إلا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتَّى أردَّ عليه السَّلام»[(٢)] [(١)]. وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ وكلَّ بقبري ملائكةً يبلغونني عن أمتي السَّلام»[(٣)] [(٢)].

وقال ﷺ: «أكثروا عليَّ من الصلاةِ يوم الجمعة وليلة الجمعة فإنَّ صلاتَكم معروضةً عليَّ»، قالوا: يا رسول الله، كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمتَ؟! أي: يقولون: قد بليت، فقال: «إنَّ اللهَ حرَّم على الأرضِ أن تأكلَ لحومَ الأنبياء»[(٤)].

وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (نوح: ٢٣).

---

(١) هذا الحديث دليل على مشروعية السلام عليه ﷺ في أي مكان بصيغة الخطاب، كما نقول في التشهد: «**السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»[(٥)].

(٢) هذا الحديث دليل على مشروعية السلام عليه ﷺ عند قبره خصوصًا، كما كان يفعله ابن عمر رضي الله عنه عند العودة من السفر، وكما استحبه كل أهل العلم للقادم إلى المدينة، وليس لكل من يمر بقبره كل صلاة، فلم يكن يفعله الصحابة رضي الله عنهم، بل يصلي ويسلم على النبي ﷺ عند دخوله المسجد (مسجده وكل مسجد غيره).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وصححه الشيخ الألباني - رحمه الله - في «صحيح أبي داود».

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣١١٦).

(٣) صحيح: بلفظ: «إنَّ لله ملائكةً سَياحِين في الأرض، يُبلِّغوني من أُمَّتي السَّلام». أخرجه النسائي (٣/ ٤٣)، وأحمد (١/ ٣٨٧، ٤٤١، ٤٥٢)، وابن حبان (٩١٤)، والحاكم (٢/ ٤٢١)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني - رحمه الله - في «صحيح سنن النسائي» (١٢٨٢).

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (١٠٤٧، ١٥٣١)، والنسائي (٣/ ٩١)، وابن ماجه (١٠٨٥، ١٦٣٦)، وصححه الألباني - رحمه الله - في «الصحيحة» (١٥٢٧).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٠٢)، ومسلم (٩٢٩).

قال ابن عباس وغيره من السلف: «هؤلاء كانوا قومًا صالحين من قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان»[١].

فنهى النبيُّ ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ، والشيطان يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب، فيكون في الصلاة حينئذ مشابهةً لصلاة المشركين؛ فسد هذا الباب، والشيطان يضل بني آدم بحسب قدرته، فمن عَبَدَ الشمس والقمر والكواكب ودعاها؛ كما يفعل أهل الكواكب؛ فإنه ينزل عليه الشيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور، ويسمون ذلك روحانية الكواكب، وهو شيطان.

والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده؛ فإنه يضره أضعاف ما ينفعه، وعاقبة من أطاعه إلى الشر، إلا أن يتوب الله عليه.

وكذلك عُبَّادُ الأصنام قد تخاطبهم الشياطين، وكذلك من استغاث بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا به، أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد يروون حديثًا وهو كذب باتفاق أهل المعرفة: «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**»[٢]، وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك[١].

---

(١) فهو حديث موضوع سنداً باطل وزور معنى، فلا يشرع التوسل بأهل القبور لا بدعائهم ولا الاستغاثة بهم، فهذا الشرك الأكبر، ولا بالدعاء بهم، فهذا الشرك الأصغر، إذا لم يصرف لهم عبادة من دون الله، أو معه سبحانه، وكذا الدعاء عند قبره، فهو بدعة ضلالة وذريعة للشرك وكذب على شرع الله.

---

(١) الأثر عن ابن عباس، انظر: «صحيح البخاري» (٤٩٢٠).

(٢) حديث كذب كما ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ.

ويوجد لأهل الشرك وأهل البدع المتشبهين بهم، من عبَّاد الأصنام والنصارى والضلال من المسلمين، أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات، وهي من الشياطين، مثل: أن يضعوا سراويل عند القبور فيجدونه قد انعقد، أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه، يفعل الشيطان هذا ليضلهم(١).

وإذا قُرئت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا؛ فإن التوحيد يطرد الشيطان، ولهذا حُمِلَ بعضُهم في الهواء فقال: لا إله إلا الله؛ فسقط، ومثل: أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت وإنما هو شيطان، وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع(٢).

---

(١) فليس وقوع بعض خوارق العادات عند قبور هؤلاء دليلاً على ولايتهم، ولا دليلاً على صحة ما يفعله الضُلال عند قبورهم، بل هذا من أحوال أولياء الشيطان، وإنما تعرف صحة الأقوال والأفعال بأدلة الكتاب والسنة.

(٢) وقد أخبرني بعض أخواننا عن رجل له الآن مقام معروف ومولد مقصود، وقد كان في حياته ممن يتجر في المخدرات، وكان بعد موته قد أتى لمحافظ الإسكندرية مرات في المنام يطلب منه فتح القبر، وفي المرة التي عزموا فيها على فتح القبر ذهب أبناؤه وأهله وحشوا كفنه بالقطن حتى يرى الناس كأن جثته لم تتغير، فلما فتحوا القبر خرج لهم الميت وضحك ثم دخل، فاتخذوا قبره وثنا يعبد، وقد كان في حياته من أهل الفساد والفجور، ورجل آخر له الآن مقام ومولد يسمونه أبا الإخلاص، كان في حياته مسجلاً عند الشرطة في جرائم المخدرات والنصب والآداب ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ.

ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعها الله ورسوله، صارت الشياطين كثيرًا ما تأوي إلى المغارات والجبال[(١)]، مثل: مغارة الدم التي بجبل قاسيون، وجبل لبنان الذي بساحل الشام، وجبل الفتح الذي بصعيد مصر، وجبال الروم وخراسان، وجبال الجزيرة، وجبل اللكام، وجبل الأحيش، وجبل سولان قرب أردبيل، وجبل شهنك عند تبريز، (وجبل ماستكوه عند نقشوان، وجبل نهاوند)، وغير ذلك من الجبال التي يظن بعض الناس أن بها رجالاً من الإنس صالحين، ويسمونهم رجال الغيب، وإنما هناك رجال من الجن فالجن رجال كما أن الإنس رجال، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (الجن: ٦).

ومن هؤلاء من يظهر بصورة رجل شعراني[(٢)] جلده يشبه جلد الماعز، فيظن من لا يعرفه أنه إنسي، وإنما هو جني، ويقال بكل جبل من هذه الجبال الأربعون الأبدال، وهؤلاء الذين يظنون أنهم الأبدال[(٣)] هم جن بهذه الجبال، كما يعرف ذلك بطرق متعددة.

---

(١) الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع، فلا يشرع للإنسان أن ينقطع في مغارة أو في بادية صحراء، وإن كان النبي ﷺ كان يأوى إلى غار حراء، فهذا قبل نزول الوحي عليه، وأما بعد نزوله فكان لا يعتكف إلا في مسجده، فصار الاعتكاف في المغارات بعد بناء المساجد بدعة.

(٢) شعراني: كثير الشعر.

(٣) لفظة الأبدال لفظة صحيحة، وردت عن السلف، يعنون التابعين، وكان يعد بعضهم من الإبدال، وهي تعني أن الله جعل في أمة محمد ﷺ طائفة ظاهرة على الحق، لا يضرها من خالفها، أو خذلها حتى تقوم الساعة، فإذا مات بعضهم، فإن الله يأتي بغيرهم بدلاً منهم، فتظل الطائفة موجودة، ومن يظن أو يرجى له أنه منهم، من الطائفة الظاهرة الذين هم بدل من سبقهم فلابد أن يكون من أهل الحق على طريق الكتاب والسنة، وعلى منهج أهل السنة والجماعة، وهؤلاء الأبدال لم يذكر فيه عدد =

وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه(١) وذكْرِ ما نعرفه من ذلك، فإنا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه في هذا المختصر الذي كتب لمن يسأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك.

الخوارق في نظر الناس

والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام: قسم يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صدق بها مجملاً، وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس، لكونه عنده ليس من الأولياء.

ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان وليًا لله، وكلا الأمرين خطأ، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين، وأنهم من أولياء الله، وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة(٢).

والصواب القول الثالث، وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، بل كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١).

= محدد، ولا يعرف أن في الأرض أربعين من الأبدال، بل الذي يظهر أنهم كل من يقوم على نشر الحق، والقيام به في الأرض، فإذا مات بعضهم أبدل الله غيرهم مثلهم.

(١) يقصد باب خداع الشيطان لأوليائه بالأحوال الشيطانية الخارقة للعادة، ونحو ذلك.

(٢) **أولئك**: أي: الصنف الأول الذين ينكرون خوارق العادات لغير الأنبياء، ومن هؤلاء من ينتسبون لأهل السنة في زماننا، وينكرون خوارق العادات لأولياء الله جملة، ويرونها من خرافات الصوفية، فوقعوا بذلك في نوع من البدعة، لأن إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة ثابت بالكتاب، كما في قصة أهل الكهف، والسنة كالأحاديث الكثيرة التي ذكرها شيخ الإسلام في هذا الكتاب وغيره، والإجماع.

وهؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة[١]، فتقترن بهم الشياطين، فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله، لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضًا، وإذا حصل من له تَمَكُّن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم، ولابد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلاً وعمدًا، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم، ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من أولياء الشيطان، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٢)، والأفَّاك: الكذاب، والأثيم: الفاجر[٢].

الغناء يقوي الأحوال الشيطانية، والقرآن يقوي الإيمان

ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء، والملاهي، وهو سماع المشركين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥).

قال ابن عباس وابن عمر ﷺ وغيرهما من السلف: «التصدية: التصفيق باليد، والمكاء: مثل الصفير»، وكان المشركون يتخذون هذا عبادة. وأما النبيُّ ﷺ وأصحابه؛ فبعبادتهم ما أمر تعالى الله به من الصلاة والقراءة والذكر والدعاء، ونحو ذلك،

---

(١) العباد والزهاد: يقصد الذين على طرق بدعية، كالذي يبذل مجهودًا عظيمًا في العبادة، ولكن على خلاف السنة، وكذا الذي يترك زخرف الدنيا، ويزهد فيها، لكنه على اعتقاد شركي مثل الرهبان في الصحارى، فلاشك أنهم تركوا كثيراً من زخارف الدنيا لكن على شرك وضلال، كما في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية: ٢-٤)، فهي عاملة ناصبة، لكن على الباطل، فتصلى نارًا حامية، على أحد الوجهين في التفسير للآيات من سورة الغاشية.

(٢) قوله ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: دليل على أنه لابد أن يكون عندهم كذب، وإثم ليتناسب مع الشيطان، فإن لم يكن عندهم لم يتنزل عليهم.

والاجتماعات الشرعية، ولم يجتمع النبيُّ ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط، لا بكف ولا بدف، ولا تواجد، ولا سقطت بردته، بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه.

وكان أصحابُ النبيِّ ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ (١)، والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربَّنا، فيقرأ وهم يستمعون (١)، ومرَّ النبيُّ ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له: «لقد مررت بك البارحةَ وأنتَ تقرأ القرآن، فجعلت أستمع لقراءتك». فقال: لو علمت أنك تسمتع لحبرته لك تحبيرًا (٢)، أي: لحسنته لك تحسينًا، كما قال النبيُّ ﷺ: «زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم» (٣)، وقال ﷺ: «لَلَّهُ أشدُّ أذَنًا ـ أي: استماعًا ـ إلى الرَّجلِ الحَسَنِ الصَّوتِ بالقرآنِ من صاحبِ القينةِ إلى قينته» (٤) (٢).

وقال ﷺ لابن مسعود: «اقرأ عليَّ القرآنَ»، فقال: أأقرأ عليك وعليك أُنزل؟! فقال: «إنِّي أحبُّ أن أسمعه من غيري»، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى انتهيت إلى هذه الآية الكريمة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، فقال: «حَسْبُكَ الآنَ»، فإذا عيناه تذرفان من البكاء (٥).

---

(١) أي: يقرأ القرآن.
(٢) أشد أذنا: أي: أشد استماعًا، والقينة: المغنية.

---

(١) ضعيف: أخرجه الدارمي (٢/ ٣٣٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٨)، وابن حبان (٢٢٦٤) بإسناد منقطع.
(٢) صحيح: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢٣٠، ٢٣١).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري معلقًا (١٣/ ٥١٨)، وأبو داود (١٤٦٨)، وغيرهم، وصححه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٧٧١).
(٤) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٣٤٠)، وأحمد (٦/ ٢٠)، والحديث في سنده انقطاع. وضعفه الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في «ضعيف الجامع» (٤٦٣٣).
(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩/ ٩٣، ٩٤)، ومسلم (١/ ٥٥١/ ٨٠٠).

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم؛ كما ذكر الله ذلك في القرآن، فقال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم: ٥٨).

وقال في أهل المعرفة: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا ﴾ (المائدة: ٨٣)[١]، مدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان، ومن آثار ذلك: اقشعرار الجلد ودمع العين، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣)[٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٢-٤).

وأما السماع المحدث: سماع الكف والدف والقصب، فلم يكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقًا إلى الله تبارك وتعالى،

---

(١) نزلت الآية في النجاشي وأصحابه، حيث تلى عليهم جعفر رضي الله عنه سورة مريم، فبكوا تصديقًا للقرآن، وليسوا كالمشركين النصارى في زماننا وما قبله ممن يسمع آيات الله ليل نهار، فيصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، فهؤلاء داخلون في الذين أشركوا في قوله تعالى: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ (المائدة: ٨٢)، ولم يدخلوا في قوله تعالى: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ** ﴾ (المائدة: ٨٢)، فإنها في الموحدين منهم الذين يصدقون بالقرآن إذا سمعوه، كما قال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (المائدة: ٨٢).

(٢) مَثَانِي أي: تكرر تلاوته، أو متكرر فيه ذكر الجنة والنار، وصفات الأبرار، وصفات الفجار والخير والشر، ونحو ذلك.

ولا يعدونه من القرب والطاعات بل يعدونه من البدع المذمومة[١]. حتَّى قال الشافعي «خلفتُ ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير[٢]، يصدون به الناس عن القرآن».

وأولياء الله العارفون يعلمون أن للشيطان فيه نصيبًا وافرًا، ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم، ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله كان نصيب الشيطان فيه أكثر وهو بمنزلة الخمر بل هو يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر؛ ولهذا إذا قوى سكر أهله نزلت عليهم الشياطين، وتكلمت على ألسن بعضهم، وحملت بعضهم في الهواء، وقد تحصل بينهم عداوة؛ كما تحصل بين شراب الخمر، فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه، ويظن الجهال أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين، وإنما هذا مبعِد لصاحبه عن الله، وهو من أحوال الشياطين؛ فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله الله، فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به أولياءه؟! وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبدًا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما

---

(١) وهذا رد على الطرق الصوفية التي تجعل هذه الحضرات والجلسات من التقرب إلى الله، وكذا بعض الجماعات المعاصرة تجعل هذا السماع أحد الوسائل الأساسية في التربية، والتوجيه كما ذكره الأستاذ/ سعيد حوى في كتابه (تربيتنا الروحية)، وذكر فصلاً في السماع، يقصد بذلك أن هذا من وسائل التربية عند جماعة الإخوان المسلمين، ويقول عن فرق الإنشاد التي تقول الأشعار الطيبة ونحو ذلك: إن ذلك وسيلة لترقيق القلوب. ويوجد فرق بين أن نجعل هذا الأمر مباحًا يستعمل عند الحاجة، مثل السفر، أو عند الجهاد، فتقال الأشعار لتحميس الناس، أو في العرس، أو في العيد، ولكن لا يكون طريقًا إلى الله يُقَدَّم على تلاوة القرآن وسماعه، ويجعل طريقًا إلى ترقيق القلوب، ولا يتخذ دينًا مستمراً كالوِرد، فنجتمع عليه في كل اليوم، أو كل أسبوع، فمثل هذا لا يكون عبادة من العبادات.

(٢) التغبير: الإنشاد.

يقربه إليه، ويرفع به درجته، وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم؛ كالمكاشفات، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك، كالتصرفات الخارقة للعادات.

ومنها ما هو من جنس ما يعطاه الناس في الظاهر؛ من العلم والسلطان والمال والغنى، وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور وغيرها إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمرَ الله به ورسوله؛ ازداد بذلك رفعةً وقربًا إلى الله تعالى وعلت درجته، وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله؛ كالشرك والظلم والفواحش؛ استحق بذلك الذم والعقاب، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية وإلا كان كأمثاله من المذنبين، ولهذا كثيرًا ما يعاقب أصحاب الخوارق تارةً بسلبها، كما يعزل الملك عن ملكه، ويسلب العالم علمه، وتارةً بسلب التطوعات فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارةً ينزل إلى درجة الفساق، وتارةً يرتد عن الإسلام، وهذا يكثر فيمن له خوارق شيطانية، فإن كثيرًا من هؤلاء يرتد عن الإسلام[1]، وكثيرٌ منهم لا يعرف أن هذه من الشياطين، بل يظنها من كرامات أولياء الله، ويظن من يظن منهم أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا أعطى عبدًا خرق عادة لم يحاسبه على ذلك، كمن ظن أن الله إذا أعطى عبدًا ملكًا وتصرفًا أو مالاً لم يحاسبه عليه. ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأمور بها ولا منهي عنها، فهذا يكون من عموم الأولياء، وهم الأبرار المقتصدون، وأما السابقون المقربون؛ فأعلى من هؤلاء، كما أن العبد الرسول أعلى من النبي الملك.

---

(١) إن المسلمين أولياء الله في الجملة، لكن الفاسق منهم ليس مثل التقي الطائع، وقد يسلب المسلم التطوعات بحيث لا تكون له الولاية الخاصة، وهي القرب الخاص من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كالسابقين المقربين.

من وساوس الشياطين

ولما كانت الخوارق كثيرًا ما تنقص بها درجة الرجل[1] كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك، ويستغفر الله تعالى، كما يتوب من الذنوب كالزنا والسرقة، وتعرض على بعضهم فيسأل الله تعالى زوالها، وكلهم يأمر المريد السالك أن لا يقف عندها ولا يجعلها همته، ولا يحتج بها، مع ظَنِّهُمْ أنها كرامات، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها؟! فإني أعرفُ مَن تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها، ومنهم من يخاطبه الحجر والشجر وتقول: هنيئًا لك يا ولي الله، فيقرأ آية الكرسي؛ فيذهب ذلك.

وأعرف منهم من يقصد صيد الطيور؛ فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسي ويخاطبه بمثل ذلك، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق، فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة، وتكون الجن قد أدخلته أو أخرجته بسرعة، أو تريه أنوارًا، وتحضر عنده من يطلبه، ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة؛ ذهب ذلك كله.

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له: أنا من أمر الله، ويعده بأنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ويظهر له الخوارق، مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد

---

(١) قد يكون أنفع للإنسان أن لا يجري الله علي يديه خوارق للعادات، إذا لم يستعملها في الطاعة، وإنما يستعملها في المباح، فيكون كالغني بالمال الذين يكون سببًا للسؤال والحساب الطويل إذا لم ينفقه في سبيل الله، وكالمُلكِ إذا كان لا يستعمله لإعلاء كلمة الله، بل يتنعم بما وسعه الله عليه من أمور الدنيا، فيكون قد ذهب ببعض أجره.

في الهواء، وفي المواشي، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يمينًا أو شمالاً ذهب حيث أراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه؛ حصل له ما أراد، من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة، وتأتي به وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان، فيرفع رأسه فيجدهم بلحى، ويقول له علامة أنك أنت المهدي أنك تنبت في جسدك شامة، فتنبت ويراها، وغير ذلك، وكله من مكر الشيطان. وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرف منه لاحتاج إلى مجلد كبير(١).

وقد قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ⁽١٥⁾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (الفجر: ١٥-١٦).

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كلا﴾ ولفظ (كلا) فيها زجر وتنبيه: زجر عن مثل هذا القول، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مكرمًا له بها ولا كل من قدر(٢) عليه ذلك يكون مهينًا له بذلك بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء؛ فقد يعطي النعم الدنيوية

---

(١) إن الخارقة قد تكون استدراجًا من الشياطين، فهذا الشخص يكون قد فعل شيئًا جعل الشياطين تطمع فيه لهذه الدرجة، فيظل يستغفر الله حتى تنكشف عنه هذه الأمور، التي هي خوارق شيطانية وليس كرامات رحمانية، كأن يتوقع أن هذا الحيوان يقوم الآن، أو أن شخصًا يفعل شيئًا، فيحدث هذا فيظن أن هذا من الكرامات، وهي في الأصل من الشيطان، هذا ولقد عاصر المصنف كثيرًا من الجماعات الصوفية، وخاطبهم وتاب علي يده جماعات منهم.

(٢) ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ أي: ضيق عليه رزقه.

لمن لا يحبه، ولا هو كريم عليه ليستدرجه بذلك، وقد يحمي منها من يحبه ويواليه؛ لئلا ينقص بذلك مرتبته عنده، أويقع بسببها فيما يكرهه منه[(١)].

وأيضًا كرامات الأولياء لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى. فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان؛ فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله[(٢)].

فمن كانت كراماته لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك، مثل: دعاء الميت والغائب أو بالفسوق والعصيان، وأكل المحرمات، كالخبائث مثل: الحيات والزنابير والخنافس والدم، وغيره من النجاسات، ومثل: الغناء والرقص، لاسيما مع النسوة الأجانب والمردان، وحاله وخوارقه تنقص عند سماع القرآن، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان، فيرقص ليلاً طويلاً، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدًا، أو ينقر الصلاة نقر الديك وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه، ويتكلفه[(٣)] ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية، وتوجد عنده مواجيد؛ فهذه أحوال شيطانية، وهو ممن يناله قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف: ٣٦).

(١) يحميه من النعم: أي: لا يعطيه النعم الدنيوية، لأنها قد تكون أحيانًا سببًا في الفتن أو نقصًا للأجر كما قال النبي ﷺ: **«ما من غازية تغزو في سبيل الله فيُصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثُلُثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يُصيبوا تم لهم أجرهم»**[(١)].

(٢) مثل ما يجري على أيدي النصارى، كأن يقال: إن العذراء قد ظهرت على الكنيسة الفلانية مثلاً، وكل هذا سببه الكفر والفسوق والعصيان، فهي من خوارق العادات التي يتسبب فيها أعداء الله، أو مما يصنعه أحبارهم ورهبانهم بالحيل لخداع ضعفاء العقول منهم، ومن غيرهم.

(٣) يتكلفه: أي: يقرؤه ونفسه لا تستسيغه، وهذا بخلاف المشقة في نطق الحروف فإنه له بها أجران.

(١) صحيح: رواه مسلم في الإمارة (٥٠٣٤).

فالقرآن هو ذكر الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه: ١٢٤-١٢٦)، يعني: تركت العمل بها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يُنسى في الآخرة»** ثم قرأ هذه الآية.

النبي ﷺ بعث إلى جميع الإنس والجن كافة

ومما يجب على كل أحد: أن يعلم أن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ رسولاً إلى جميع الإنس والجن، فلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه، فعليه أن يصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر، ومن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به فهو كافر، سواء كان[1] إنسيًّا أو جنيًّا[1].

فمحمد ﷺ مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمين، وقد استمعت الجن القرآن وولوا إلى قومهم منذرين، لما كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه ببطن مكة لما رجع من الطائف، وأخبر الله بذلك في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ

---

(١) هذا أمر مجمع عليه بين المسلمين، أن من بلغته شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فلم يؤمن بذلك إما عنادًا، وإما جهلاً، بأن قلد ما عليه قومه، وصدق ما يزعمون في حق النبي ﷺ من التكذيب، والبهتان فهو كافر، لقول النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولا يؤمن بما أرسلت به إلا أدخله الله النار»**[2]، فاليهود والنصارى، وسائر أهل الملل المكذبة بمحمد ﷺ كفار بالكتاب والسنة والإجماع.

---

(١) **الصحيح**: «سواء أكان إنسيًّا أم جنيًّا ...»، انظر التعليق (ص١٤٣).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٤٠٣) الإيمان.

مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩-٣٢)(١).

وأنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: ١-٦)، أي: السفيه منا في أظهر قولي العلماء. وقال غير واحد من السلف: «كان الرجل من الإنس إذ نزل بالوادي، قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه، فلما استغاثت الإنس بالجن؛ ازدادت الجن طغيانًا وكفرًا»، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (الجن: ٦-٨)(٢).

---

(١) قوله تعالى: ﴿داعي الله﴾: دليل على أن الرسول ﷺ دعا الجن إلى الله، وقوله: ﴿وآمنوا به﴾: دليل على أنه يجب على الجن أن يؤمنوا بالرسول ﷺ.

(٢) ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾: في تفسيرها قولان:

القول الأول ـ أن ﴿مِّنَ﴾ للجنس، أي: برجال جنيين يعوذون بهم من شر سفهائهم.

القول الثاني ـ أن ﴿مِّنَ﴾: لابتداء الغاية، أي: كانوا يعوذون برجال من شر الجن، برجال من الكهان وأمثالهم مثل أن يقول عُذنا به من كذا، ولكن سبب نزول الآية الذي ذكره السلف يقتضي أنهم كانوا يعوذون برجال الجن من شر رجالهم السفهاء، ﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا**﴾ أي: كما يظن كفار الإنس =

وكانت الشياطين تُرمَى بالشهب قبل أن ينزل القرآن، لكن كانوا أحيانًا يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم، فلما بُعث النبيُّ ﷺ مُلئت السماء حرسًا شديدًا وشُهبًا، وصارت الشهب مرصدًا لهم قبل أن يسمعوا؛ كما قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ (الجن:٩)، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢)[(١)]. قالوا: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ (الجن: ١٠-١١)[(٢)].

أي: على مذاهب شتى، كما قال العلماء: منهم المسلم والمشرك، واليهودي والنصراني، والسُّنّي والبدعي.

= بعدم البعث كذلك ظن كفار الجن، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، الحرس الشديد من الملائكة، والجن كانوا يقعدون من أجل أن يسمعوا شيئًا، فبعد نزول القرآن منعوا من أصل القعود منها مقاعد للسمع.

(١) أصبحوا معزولين بالكلية، فلا يسمعون كلمة، ولا شيئًا، وهذا حماية للقرآن من أن يتنزل به على كاهن، أو يستعين به فيلبس على الخلق، واستمر هذا الأمر حتى بعد انقطاع الوحي، لأن القرآن جاء بإبطال الكهانة، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله، وحكم القرآن باق، لذلك ظل الأمر كما هو منذ تنزل القرآن.

(٢) هذا من الأدب البالغ حيث ذكروا الشر بصيغة المبني للمجهول ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ﴾، وأما الرشد والخير فنسبوه إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ كقول إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠)، فنسب الشفاء إلى الله، والمرض إلى نفسه، وهذا تأدب وإلا فالخير والشر خلق الله سبحانه، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨).

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ (الجن:١٢). أخبروا أنهم لا يعجزونه لا إن أقاموا في الأرض ولا إن هربوا منه: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ (الجن:١٣-١٤). أي الظالمون.

يقال: أقسط إذا عدل، وقسط: إذا جار وظلم؛ ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (الجن:١٥-٢٢)[١]. أي: ملجأً ومَعَاذًا، ﴿ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ (الجن:٢٣-٢٤).

ثم لما سمعت الجن القرآن أتوا إلى النبي ﷺ وآمنوا به، فبايعوه، وهم من جن نصيبين، كما ثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود.

ورُوي أنه قرأ عليهم سورة الرحمن، وكان إذا قال: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:١٣). قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

---

(١) يبتلي الله الناس بالخير، والشر، والرزق، والفقر امتحانًا لهم أيشكرون أم يكفرون، ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أي: عذابًا شاقًا، كأن يكلف الصعود في جبال النار، ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ فلا يدعى مع الله أحد من إنس، ولا جن، ولا ولي، ولا نبي، ولا ملك، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ عندما سمع الجن الرسول ﷺ يصلي بأصحابه، تكالبوا عليه.

ولما اجتمعوا بالنبي ﷺ سألوه الزاد لهم ولدوابهم، فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم»، قال النبي ﷺ: «فلا تستنجوا بهما؛ فإنهما زاد إخوانكم من الجن»، وهذا النهي ثابت عنه ﷺ من وجوه متعددة، وبذلك احتج العلماء على النهي عن الاستنجاء بذلك، وقالوا: فإذا منع من الاستنجاء بما أعد للجن ولدوابهم؛ فما أعد للإنس ولدوابهم من الطعام والعلف أولى وأحرى.

ومحمد ﷺ أرسل إلى جميع الإنس والجن، وهذا أعظم قدرًا عند الله تعالى من كون الجن سُخِّروا لسليمان عليه السلام؛ فإنهم سُخروا له أن يتصرف فيهم بحكم الملك، ومحمد ﷺ أرسل إليهم يأمرهم بما أمر به؛ فإنه عبد الله ورسوله، ومنزلة العبد الرسول فوق منزلة النبي الملك. وكفار الجن يدخلون النار بالنص والإجماع، وأما المؤمنون منهم؛ فجمهور العلماء على أنهم يدخلون الجنة، وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس، ولم يبعث من الجن رسول، لكن منهم النذر، وهذه المسائل لبسطها موضع آخر.

والمقصود هنا: أن الجن مع الإنس على أحوال: فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمرالله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه، ويأمر الإنس بذلك، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه. ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له؛ فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له، وهذا إذا كان يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم الله عليهم، ويستعملهم في مباحات له، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك. هذا إذا قدر أنه من أولياء الله تعالى، فغايته أن يكون في عموم أولياء الله تعالى مثل الملك النبي مع العبد الرسول كداود، وسليمان، ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ[1].

---

(١) إن منزلة النبي الملك أقل من منزلة العبد الرسول، كذلك هذا الذي يستعمل الجن في المباحات منزلته أقل بالنسبة لأولياء الله، فإن طلب منهم أو عاذ بهم فإن =

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى عنه الله ورسوله، إما في الشرك، وإما في قتل معصوم الدم، أو في العدوان عليه بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم[١]، وغير ذلك من ظلمه، وإما في فاحشة، كجلب من يطلب الفاحشة، فهذا استعان بهم على الإثم والعدوان، ثم إن من استعان بهم على الكفر فهو كافر، وإن استعان بهم على المعاصي[٢]، فهو عاص، إما فاسق وأما مذنب غير فاسق.

= ذلك محرم، بل هو من الشرك، أو ذرائعة على الأقل، أليس مباحًا للإنسان إذا نزل مكانًا معينًا أن يؤمن نفسه من سفهاء هذا المكان من الإنس، ويطلب الحماية، والاستعاذة من عظماء هذا المكان من الإنس، لكي لا يؤخذ متاعه، ولا يُخوف؟ ومع ذلك نزلت الآيات تبين أن هذا زاد الجن رهقًا، وطغيانًا، وكفرًا، وأن هذا من الشرك، فالاستعانة كذلك، فلا يجوز الاستعانة بالجن، أو طلب قضاء الحاجات منهم، هذا مع اعتقاد أن تسخير الجن هو خاص بسليمان عليه السلام، كما يدل على ذلك قوله ﷺ عن الشيطان الذي تفلت عليه ليقطع عليه صلاته: «**فلولا دعوة أخي سليمان لأصبح يلعب به صبيان المدينة**»[١]، فدلَّ ذلك على أن التسلط على الجن وتسخيرهم داخل في عموم قول سليمان عليه السلام: ﴿**وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**﴾ (ص: ٣٥).

(١) قد يتسلط الجن على الإنسان من خلال الوسوسة الشديدة، أو أن يتلبس به، فينسيه من شدة المرض ما عنده من العلم، قال تعالى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**﴾ (الكهف: ٢٤)، والشيطان يخنس بذكر الله ويبعد.

(٢) يأتي إليه بوسوسة أو بغيرها، كأن يتلبس بالمرأة مثلاً، ويقودها لتصبح مجنونة، تهيم في الطرقات حتى تذهب إلى من يفعل بها الفاحشة، أو بالصبيان، وغير ذلك.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٣)، ومسلم في المساجد (١٢٣٧)، وأحمد (٨١٨٩) واللفظ له.

وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات، مثل أن يستعين بهم على أن يطيروا به عند السماع البدعي، أو أن يحملوه إلى عرفات، ويحج الحج الشرعي الذي أمر الله به ورسوله، أو أن يحملوه من مدينة إلي مدينة، ونحو ذلك؛ فهذا مغرور قد مكروا به[1].

وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن، بل قد يسمع أن أولياء الله لهم كرامات وخوارق للعادات، وليس عنده من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية، وبين التلبيسات الشيطانية، فيمكرون به بحسب اعتقاده.

---

(١) هذا رد على من تأول كلام المصنف على أنه يجوز الاستعانة بالجن، فلا يجوز أن يفهم ذلك، ولفظ الاستعانة غير استعمالهم في أمور مباحات، وإذا أصر هؤلاء على تأويل هذا الكلام، وأنه يجوز الاستعانة بالجن، في قضاء الحاجات والاستفهام عن المغيبات، فهذا المعنى باطل.

مثل القصة التي نشرت في جريدة عقيدتي، لرجل مات ثم قال أهله: إنه أتاهم بصورته، وأتى مؤذن المسجد فقرأ سورة يس، ولم يذهب، وإنه يأتيهم باستمرار، وهذا ليصبح هذا الرجل شيخًا، وله مقام تتوافد إليه الناس، وكان هذا الرجل شخصًا عاديًا إلا أنه كان يصلي في المسجد، ويحب أولياء الله وأهل البيت، ويحضر الحضرات، وكل هذا من تلبيس الجن بلاشك، وإلا فروح الإنسان لا تأتي في صورة إنسان، أو في اليقظة بهذه الطريقة، فلابد عند القراءة أن تكون بعزيمة صادقة، وأن تكون عقيدة القارئ راسخة، ومثل ذلك البلورة السحرية، ونحو ذلك، وهذا ما يحدث مع من يفتح المندل، أو يحضر الأرواح الشيطانية فينظر في هذا الشيء البراق مثل الماء، أو الزجاج، ويسأل عن الشيء المسروق مثلاً، وقد يكون الجني قد رأى السارق وهو يسرق، فيتمثل في صورة السارق وهو يحمل الشيء المسروق ويدخل بيته، فيقول: اذهبوا إلى فلان هو الذي سرق، فيصدقون ما يقوله لهم.

فإن كان مشركًا يعبد الكواكب أو الأوثان، أوهموه أنه ينتفع بتلك العبادة، ويكون قصده الاستشفاع والتوسل بمن صور ذلك الصنم على صورته، من ملك أو نبي أو شيخ صالح، فيظن أنه يعبد ذلك الملك أو النبي أو الصالح، وتكون عبادته في الحقيقة للشيطان، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠-٤١).

ولهذا كان الذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب يقصدون السجود لها، فيقارنها الشيطان عند سجودهم؛ ليكون سجودهم له.

ولهذا يتمثل الشيطان بصورة من يستغيث به المشركون، فإن كان نصرانيًا، استغاث بجرجيس أو غيره، جاء الشيطان في صورة جرجيس أو غيره ممن يستغيث به، وإن كان منتسبًا إلى الإسلام، وقد استغاث بشيخ يحسن الظن به من شيوخ الإسلام جاء في صورة ذلك الشيخ، وإن كان من مشركي الهند، جاءه في من يعظمه ذلك المشرك.

ثم إن الشيخ المستغاث به، إن كان ممن له خبرة بالشريعة لم يعرفه الشيطان أنه يتمثل له بأصحابه المستغيثين به، وإن كان الشيخ ممن لا خبرة له بأحوالهم، ونقل أقوالهم له؛ فيظن أولئك أن الشيخ سمع أصواتهم من البعد وأجابهم، وإنما هو بتوسط الشيطان.

ولقد أخبر بعض الشيوخ الذين كان قد جرى لهم مثل هذا بصورة مكاشفة ومخاطبة، فقال: يريني الجن شيئًا براقًا مثل الماء والزجاج، يمثلون له فيه ما يطلب منهم الإخبار به، قال: فأخبر الناس به، ويوصلون إليَّ كلام من استغاث بي من أصحابي فأجيبه، فيوصلون جوابي إليه[(١)].

---

(١) هذا ليقول الناس إنه يسمع الغيب، فيصفونه بصفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيقعون في الشرك.

وكان كثير من الشيوخ الذين حصل لهم كثير من هذه الخوارق، إذا كذب بها من لم يعرفها، وقال: إنكم تفعلون هذا بطريقة الحيلة، كما يدخل النار بحجر الطلق، وقشور النارنج، ودهن الضفادع، وغير ذلك من الحيل الطبيعية، يتعجب هؤلاء المشايخ، ويقولون: نحن والله لا نعرف شيئًا من هذه الحيل، فلما ذكر لهم الخبير: إنكم صادقون في ذلك، ولكن هذه أحوال شيطانية؛ أقروا بذلك، وتاب منهم من تاب الله عليهم لما تبين لهم الحق، وتبين لهم من وجوه كثيرة أنها شيطانية، ورأوا أنها من الشياطين، لما رأوا أنها تحصل بمثل البدع المذمومة في الشرع، وعند المعاصي لله ولرسوله، ولا تحصل عند من يحبه الله ورسوله من العبادات الشرعية، فعلموا حينئذ أنها من مخارق الشيطان لأوليائه، لا من كرامات الرحمن لأوليائه ـ والله تعالى أعلم وأحكم ـ.

الحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد، وآله وصحبه، وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فهرس الأحاديث النبوية والآثار

طرف الحديث | صفحة

طرف الحديث | صفحة

طرف الحديث	صفحة

الفهرس

الموضــوع صفحة

الموضوع صفحة